رواية

اسكندريتي

ادوار الخرّاط



إسكندريتي

مدينتي القُدسية الحوشية

(كولاج روائي)

إسكندريتي ... مدينة الزعفران

تقديم

هذه النصوص" كولاج" قصصي يقـارب التقنيـة التـي يعرفها الفن التشكيلي، إذ تضم صورا وشذرات شتى، قد تكـون من خامات مختلفة ومن مصادر متنوعة، إلى بعضـها بعضـا، فتعطي لوحة جديدة.

علاقتي بالإسكندرية علاقة خاصة، فقد كانت الإسكندرية – وما زالت – موقعا حلميا، على كلّ واقعيتها.

هي ليست موقعا جغرافيا جميلاً فقط، وليست – فقـط – ساحةً لالتقاء واصطدام الناس الذين يعملون ويحبـون ويموتـون على أرض الحياة اليومية، وليست – فقط – مسـتودع ترسـب ثقافات وحضارات تاريخية، عريقة وراهنة، هي ذلك كله . وهي كذلك حالة من حالات الروح ومغامرة سعي لاسـتيعاب حقيقـة داخلية، وهي مواجهة ميتافيزيقية أيضا لغموض المطلق والموت الممتد على صفحة بحر ساجية أو جياشة، نحو أفقٍ ملتبس، بـلا حد.

***

ولعلني لا أعرف كاتبا آخر في العربية توله بعشق هـذا الموقع – الحلم – الواقع، كما فعلت .

لكأنها امرأة فردانية ومتكثرة بلا نهاية .

ومهما كان من حفاوة كاتب مثل نجيب محفـوظ بأزقـة وحواري الجمالية، أو كاتب مثل عبد الرحمن الشرقاوي، وغيره من كتّاب الريف، بقراهم، فقـد كانـت المدينـة – والأرض – عندهم، في نهاية الأمر ديكورا خلفيا، وفـي أحسـن الأحـوال موضوعا أو ساحة للفعل الروائي .

الإسكندرية عندي هي نفسها الفعل الروائي، بمعني مـا، هي قوة فاعلة، وليست مادة للعمل ولا مكانًا له.

والمأمول أن يفضي هذا" الكولاج" النصي فـي تجميعـه الخاص إلى تكوين صورة جديدة ومتباينـة الظـلال والـدلالات لإسكندريتي، مدينتي التي أعرفها وأصونها فـي عمـق قلبـي، وأعشقها حتى التدلّه، والتي ترابها زعفران، حلم وتراث عريـق وساحة للحب، والكد، ومساءلة للمجهول، في وقت معا.

***

أما لورنس داريل فلم يعرف الإسكندرية، في تقديري، مع أنه كتب مئات الصفحات من رباعيته الشهيرة، فالإسكندرية عنده أساسا هي وهم غرائبي، كأنما كنت لكي يرضي نزعة لا تنتـزع عند الكاتب وعند قرائه الغربيين، سواء، في اخـتلاق، وابتعـاث خرافة راسخة الجذور عن" الشرق" الـذي يمـوج ويصـطخب بشخوص عجيبة، غير مفهومة، تتقلب بين العنـف تـارة وبـين الخنوع والذلة تارة، ولا تكاد تنتمي إلى البشر أيا كانت جنسياتهم وبيئاتهم وثقافاتهم . وتحتشد هذه الخرافة الغرائبية بأجواء خارقة، يجهد الكاتب في أن يضفي عليها جاذبية غير المألوف، إلى درجة منفرة بل ومقززة أحيانًا . فهي جاذبية الخيال المغرق، والجمـال المصنوع، والقبح النادر أيضا.

الإسكندرية عند داريل هـي أسـطورته الشخصـية أولاً وأخيرا، أسطورة تكونت من مشاهد خارجية التقطتها عين أجنبية، ومشاهد داخلية تخلقت في نفس منفصلة محجوزة عن قلب البلـد وروحها، بانحيازات رازحة وراسخة .

لم يعرف داريل من الإسكندرية إلا قشـرتها السـطحية: بيوت ومكاتب الدبلوماسيين، الفئة الفوقية التي تطفو على عباب مدينة تمور بالحياة، كالزبد أو الرغوة، الشوارع والبيـوت التـي

كانت محرمة على أهل البلد،" المتمصرين" الذين لم يعرفوا مـن مصر إلا كيف يستغلونها، ثم من يدور في فلـك هـؤلاء الخـدم والبغايا الذين لا يراهم داريل إلا مـن الخـارج، دون مبـالاة، وبشيء قليل من النفور .

أما الإسكندرية الحقيقية – التي يسميها، باستعلاء متوقـع ومنتظر: المدينة العربية" أو بعبارة أدق بالعامية المصرية" الحتة البلدي" – فهي عنده مشاهد شرقية تلوح باذخة الزينـة وغريبـة الوقع، لا صلة لها بالواقع .

من الأمثلة الصارخة على ذلـك، وأوقـع عليهـا، عفـو الخاطر، فالرباعية حاشدة بأمثال ذلك المشهد الـذي نـرى فيـه "الدرويش" يرقص في مولد ست دميانة القبطية، وقد تحول إلـى شمعدان آدمي، مغطى بالشموع الموقدة، وقطرات الشمع الـذائب الساخن تتساقط على جسمه، ويأتي صبي ليدفع" خنجرا هائلاً" في كل من خديه، وعلى طرفي الخنجر اللذين يبرزان مـن جـانبي وجهه يضع الصبي شمعدانًا آخر، على الجانبين، وفيه الشـموع المشتعلة . (ماونت أوليف ص ١٢١).

" أسير في الحي البلدي الصاخب بـأنواره التـي تشـبه الطعنات وروائحه التي تنهك اللحم. (جوستين ص ١٨٥).

وهو يحكي عن سيدة قبطية جليلة – لا بد أن تكون قـد وقعت في غرام ضابط إنجليزي يجيد العربية ويحظى بإعجـاب الصحافة العربية!: وهي قد خلعت" الحجاب" وعادت الآن ترتديه، وهي تربي ثعبانًا في البيت وتغذيه باللبن كـل يـوم، وإلا سـاء مزاجه! وبعد مرضها لم تعد تسمح بوجود مرايا فـي" الحـريم" (بلتازار ص ٧٩). أما نسيم ونـاروز وهمـا مـن أصـحاب الأملاك، الأقباط، ابنا هـذه السـيدة – واسـمها ليلـى – فهمـا مرسومان طبقًـا للوصـفة الاستشـراقية المألوفـة فـي الأدب الكولنيالي، وخاصة ناروز" مشقوق الشفة" ضخم الجسـم عنيـف وخانع في نفس الوقت.

في الحي" البلدي" المصري تتغير رائحة اللحم: النشـادر وخشب الصندل والبوتاس والبهارات والسـمك" (جوسـتين ص ٦٦). وفي موضع آخر فإن رائحة هذا الحي هي" رائحة المدافن المفتوحة حديثًا" (كليا ص ٩٧).

وذلك يقابل النشوة اللغوية المحلقة في مقـاطع شـعرية: "الجاموس المعصوب العينين يـدير السـواقي فـي أبديـة مـن الظلام ... جوانب كاملة من السماء والأرض تتزحـزح وتنفـتح كغطاء أو تنقلب رأسا على عقب. قطعان الغنم تدخل وتخرج من

هذه المرايا المعوجة، تظهر وتختفي، تحفزها صـيحات الرعـاة غير المرئيين مرتعشة فيها خنة. فيض دافق من التي ورثناهـا . سحب النمل ذي الأجنحة الفضية تطفو صاعدة تلتقي بوهج نـور الشمس ... صمت الركود الكامل، ولكن ريف مصر كله يقاسـمه ذلك الشعور الكئيب بالهجران، بأنه قد تُرك لكي يتـردى ويـذبل ويصطلي ويتشقق ويتفتت تحت الشمس المتقدة...

" وسمعت صوت المؤذن الأعمى، حلوا، من الجامع يتلو" العبادات" (التي يسميها داريل" عبيد" – فهو لا يعنى كثيرا بـأن يدقق كلماته العربية، أتصور أن ما يهمه هنا هو مجرد إيقاعهـا الغريب) صوت معلق كأنه شعرة في الأهويـة العلويـة التـي ابتردت من النخيل في الإسكندرية (!!).

" سماء من المخمل المرتعش النابض، يقطعها الاشـتعال العاري من ألف مصباح كهربي. كان الليل يمتـد فـوق شـارع التتويج مثل قشرة من القطيفة . لم تكن هناك إلا أطراف المـآذن المضاءة، ترتفع فوقه بسيقانها الرشيقة غيـر المرئيـة – تبـدو أطرافها معلقة في السماء، ترتعد ارتعادا هينًا بالوهج كأنما علـى وشك أن تبسط قبازعها مثل ثعابين الكوبرا" (كليا ص ٢٩٥).

وهكذا إلى مالا نهاية له من الشعر المـبطّن بالغرائبيـة، والمنطوي أساسا على الرفض، والتبعيد، والانفصال، والتعالي.

انظر مثلاً إشارته إلى حميد، الخادم المصري الذي يفرش سجاد الصلاة في شرفة المطبخ، والذي يقول عنه أنـه" يركبـه الجن" إلا أنه لا يفتأ يكرر باستمرار" دستور ... دستور" إذ يصب المخلفات في حوض المطبخ" لأنه هناك يسكن جنّي قوي لا بـد من التماس عفوه" وسماحه". والجن يقطن الحمام كـذلك، وكـان حميد يستخدم المرحاض الخارجي، ويستصرخ الجن كلما جلـس عليه:" بالإذن ... يا مباركين!" وإلا سحبه الجـن إلـى مواسـير المجاري. وكان يتحرك، في نعله القديم: مثل ثعبان البوا القابض يتمتم بخفوت" (جوستين ص ٨٧).

وهكذا ينتقل داريل من سخرية الاستهانة إلـى التشـويه الصريح:" الإسكندرية التي تبدو من الظاهر مسالمة إلـى ذلـك الحد، لم تكن في الواقع آمنة بالنسبة للمسيحيين" ثم يحكي حكايـة مروعة عن رأس زوجة نائب القنصل السويدي التـي تـدحرج رأسها من حجر بدوية في طريق مطروج" (ويقصد مطـروح – بالحاء لا بالجيم، فيما أظن!).

الإسكندرية التي عشت فيهـا وعاشـت فيهـا عـائلتي وعائلات أقربائي وجيراني وأهل" ملتي" مكان غير آمن لنا.! هو يقصد طبعا" المسيحيين" الأجانب – هم أيضا قد عاشوا فيها بأمان وبالهنية من العيش.

هذا التجنّي الغرائبي المبطن بسـحر الشـعر المصـنوع يتحول أحيانًا إلى فضيحة حقيقية عندما يصف مشهد وقاع صريح بين اثنين من أهل البلد، بغي وصاحبها، كأنما يجري عليهمـا – كما يقول – اختبارا معمليا، كأنهما من نماذج حيوانات التجارب، في أثناء عملية الممارسة الجنسـية (جوسـتين ص ١٨٧ ومـا بعدها) أو عندما يصف حيا للبغايا – ليس له وجود، كما اعترف بعد ذلك في حديث صحفي – وليس له حتى مصـداقية الشـعر المصنوع (ص ١٨٩).

وهو يصف الإسكندرية على النحو التـالي:" ... مـرآة حجر القمر في بحيرة مريوط، وأبدياتها المتصلة من الصـحراء المشعة – تهفّ عليها رياح الربيع بخفة فتحيلها إلى كثبـان مـن الساتان لا نسق لها، وجميلة كمشاهد السـحاب – ومـا زالـت الطوائف تعيش وتتواصل: الترك مع اليهود، العرب مع القـبط، والشوام مع الأرمن، والطلاينة مع اليونانيين، ارتعادات الصفقات

النقدية تترقرق بينهم كالريح في حقل من القمح، الاحتفالات والزيجات والمواثيق تصلهم وتفرق بينهم، حتى أسماء المحطات على طرق الترام القديمة ووهداتها الرملية من القضبان ترجع الأصداء غير المنسية، لمؤسسيها، وأسماء القباطنة الموتى الذين رسوا هنا أول من حط بهم الرجال: من الإسكندر إلى عمرو، مؤسسي هذه الفوضى من اللحم والحمى، من حب المال إلى الصوفية، أين تجد مثل هذا المزيج في أي مكان آخر؟ (بلتازار ص ١٥١).

فانظر كيف يقسم المصريين: "عربا وقبطًا" وكيف يساوي بينهم وبين الأتراك والطلاينة! ولكنهم ليسوا، عنده "مصريين".

لقد أبدع داريل رواية رائعة – ومروعة – وحاشدة بالتبصر العميق لنفسيات أبطاله وبطلاته، ولكن" الإسكندرية" التي اتخذ منها عنوانًا لرباعيتيه ليست إلا إسكندريته الشخصية: إسكندرية شاعر من أبرع صناع اللغة، ولكنه إنجليزي غريب وأجنبي تماما عن إسكندريتي التي ولدت وعشت بها زهرة أيامي، وعشقتها وتغنيت بها، ولكني عرفتها، فيما أحس، وعرفت حقًا ناسها وأهلها، هم ناسي وأهلي، يكدون ويحبون ويشقون ويموتون

ويعملون ويحيون حياة كل يوم، وفي الوقت نفسه هم – بكدحهم اليومي – شعراؤها حقًا.

إسكندريتي هي الست وهيبة وحسنية وتلميذات مدرسة نبوية موسى وحسين أفندي مراقب" الكوبري" بين غيط العنب وراغب باشا وفتاة باب الكراستة التي أنقذتني من الشرطة السرية، والمعلم عوض صاحب سيرجة الزيت. إسكندرية رفلة أفندي وأخوالي ناتان ويونان وسوريال. إسكندرية شارع ١٢ ووابور الدقيق واصطبل عربات الحنطور جنب ترعة المحمودية، إسكندرية أصدقائي من جابر إلى المردني، وتالبنات اللاتي أحببتهن: كمصريات، وشاميات، ويونانيات، كلهن من بنات إسكندرية حقًا، ولسن أجنبيات أو غريبات أو غرائبيات. إسكندرية الريس نونو وبيوت الفراهدة، وعمال المخازن من عم على والأسطى مرسي النجار إلى" أبي شنب" العجوز و" حميدو شورتي" وإسكندرية سيدي المرسي أبي العباس والكنيسة المرقسية، لها أبعادها الأسطورية حقًا الخيال والفانتازيا في إسكندريتي يغوص في داخل الواقع وينبع منه – الواقع الخارجي والداخلي معا – ويتفاعل هذا الواقع بكل ما فيه من قسوة وجمال مع الأسطورة والفانتازيا تفاعلاً متبادلاً، أو هكذا أرجو. ومع ما

أسعى إليه من دقة التفاصيل الخارجية، فإن إسكندريتي هي نبض متصل متراوح ومتلاحق، حشد من الإحساسات والتـأملات فـي حركة دائمة، هذا ما أرمي إليه . وهي واقع – جوهري – أو عدة تجليات لهذا الواقع – يوضع موضع تساؤل بلا نهاية وبلا خاتمة.

الإسكندرية عندي، مع ذلـك، مدينـة سـحرية، ترابهـا زعفران، حقًا. ولذلك فإن كتابي السابع اسمه هو هـذا:" ترابهـا زعفران" الإسكندرية شط يقع على حافة بحر الأبد، حافة المطلق. وعندما أنظر منها إلى أفق البحر، أعرف كمـا علمـوني فـي المدرسة والكتب، أن هناك شاطئًا من الناحية الأخرى. ولعلني لا أصدق، ولا أقتنع بذلك حقيقة، أبدا، ليس هناك وراء هذا الأفـق شيء هذا امتداد لعباب المجهول، إلا مالا نهاية كأنني أقف هناك على شاطئ الموت نفسه، البحر والموت عندي مرتبطان بروابط انفعالية ورمزية، وبتجارب لاذعة المرارة لا يمحى طعمها أبـدا من على لساني.

والإسكندرية هي هذا المحيط السحري اليانع النضرة على حافة كون ملحي شاسع بل غير محدود. الإسكندرية عالم سـاطع ونقي ونظيف وحي. متقلب بروائح خصوبة جديدة دائمة التجدد، ولكنه هش – حتى في إحساسي بأنه متمدد على الساحل، متطاول

مشدود هضيم الخصر قابل للانكسار في أية بقعة، في أية لحظة، لا بؤرة له يتكثف حولها ويحميها بنطاق وراء نطاق من الحواجز الواقية – يقع على حرف هوة لا قرار لها، متلاطمة، خادعة في لحظات هدوئها، فيها سحر جذاب لا يقاوم، وجمال لا يمكن أبـدا الإحاطة به والانتهاء من تملي مفاتنه، قوية الأذرع ممدودة إلـي تدعوني دعاء لا أكاد أعرف كيف أصده. دعاء في الاستجابة له وقوع القضاء الذي لا مرد منه على هذه الحافة الهشة القلقة. بين الحياة والعدم، بيتي ووطني.

إسكندرية الخراط

في رؤية النقاد الإنجليز

قال الناقد روبرت أيروين في مقال له بعنـوان" معرفـة الأسرار" نشر في الملحق الأدبي لجريدة" التايمز" (١٥ سـبتمبر ١٩٨٩):

" إن الرائحة هي أحد مفاتيح الـذاكرة، فالرائحـة عنـد الخراط كما هي عند الكاتب الفرنسي المعروف" مارسيل بروست" تحمل أو تنطوي على بناء شاسع من الذكريات.

" إن السردية في هذه الرواية لا تسير على خط مطـرد مستقيم، بل هي أشبه بارتماء الأمواج على الشـاطئ وانسـحابها عنه . والبحر صورة متكررة ذات قيم متعددة في هذه الرواية. إن بطل الرواية" ميخائيل" ليس هو أدوار الخراط، وإن كانت هنـاك أوجه شبه وأحداث شبه متوازية بينهما، وإسكندرية ميخائيل ليست من هذا العالم تماما، ومع أن الواقع الملموس المتجسم للإسكندرية القديمة بشواطئها وحاناتها وعربات الترام والحناطير فيها، تُبعث

لنا بدقة بالغة وبإقناع كامل، إلا أن الرواية تنساب فصلاً بعد فصل إلى عالم الفانتازيا والعجائبية والعزائم أو التعازيم الصوفية.

" شواطئ الإسكندرية مشاهد يدور فيها نوع من الشطح السريالي، وقاطرات الترام آلات للتدمير.

" وليس من المستغرب أن نعرف أن عملاً فانتازيا أو خياليا شهيرا" ألف ليلة وليلة" لعب دورا حاسما في تلقين الصبي أسرار المرأة".

ويستطرد الناقد:" أن" ترابها زعفران" التي ظهرت في الترجمة الإنجليزية بعنوان مدينة الزعفران" عمل متوهج ومحموم، ولكنه مكتوب بدقة ورهافة، وهو استكشاف للأسرار".

أما كريستوفر وردزورث الناقد الأدبي لصفحة "الجارديان" فقد قال:" إن كتاب الخراط كله شفافية، وفيه شرائح جميلة ودقيقة من ماضيه: مشاهد عائلية، روائح الطهو أو الطبيخ، نعمة الظل بعد وقدة الشمس، خرير الماء، وإغراءات الجسد الفتي".

بينما تومض" ألف ليلة وليلة" في الخلفية على نحو مغر وساحر، أنه إنجاز غني ونادر في صفاء الجواهر متلألئ بالأسرار (١ سبتمبر ١٩٨٩).

ويقول آلان سمارت في" كايرو توداي":" ومـن خـلال رؤية الصبي ميخائيل، يتاح لنا أخيرا أن ندخل العالم الذي كـان بالنسبة لداريل مجرد" اللون المحلي" متاهته الخاصة، وما يـدور فيها من مؤامرات.

" إن" ترابها زعفران" تملأ فراغًا واضحا، إنهـا احتفـال بأكثر المدن مدعاة للإعزاز، ولكنه هذه المرة، يأتي من الـداخل" (يونيو ١٩٩٠).

ويقول ميشيل موركوك ناقد" الديلي تلجراف": إن" ترابها زعفران" عمل ينتمي إلى الواقعية السحرية، وهو يعيد إلى الحياة مدينة الإسكندرية التي تستطيع أن تحسها وتلمسها وتشـمها، وأن تراها بحدة التفاصيل وبحيوية بالغة، تصبح المدينة أكثر واقعيـة وأكثر سحرية عن شيء كتبه لورانس داريل، فهنا الحياة اليومية للناس الواقعيين الذين يقومون بأعمال عادية، على خلفية من مائة قرن من الزمان، وعشرات العقائد والديانات والفاتحين الذين يشير إليهم الخراط جميعا مستخدما كل كلمة، وكل وصف، اسـتخداما واعيا، سواء كان ذلك عـن طريـق الاسـتعارة والمجـاز، أو بالرجوع إلى الوقائع الأدبية أو التاريخية.

" إن له رؤية تتسم بالسخرية والتعاطف في الوقت نفسه، لصبي يترعرع وهو يقرأ ألف ليلة وليلة، والروايات الإنجليزيـة والفرنسية، محتفيا بثروة من الملذات، ومـن الوجـد والفقـدان بالمدينة الرخامية البيضاء الزرقاء التي ينسجها القلب باستمرار".

إن" ترابها زعفران" تعطي صورة غنائية رائعة لعالم لـم يختف كل الاختفاء بعد" (٤ نوفمبر ١٩٨٩)

أما ناقد الملحق التعليمي لجريدة" التايمز" الدكتور روبين أوستل أستاذ الأدب العربي الحديث في أوكسفورد فقد قـال:" إن الخراط له الحق في أن يعتبر أب الحداثة فـي الأدب المصـري المعاصر، وقد قام بأعمال ممتعة في فن الواقعية السحرية، حيث يمتزج ما حدث في الماضي القريب مع الماضي العريـق، فـي أمواج متلاطمة لا زمن لها لبحر الإسكندرية ولشـطحات خيـال الكاتب معا.

" إن عملاً على هذه القيمة من شأنه أن يكـون فرصـة حقيقية للخروج بالأدب العربي إلى ما وراء الحدود الضيقة لمـا يسمى بأدب العالم الثالث" (١٠ نوفمبر ١٩٨٩).

وكتبت الأديبة والروائية فرانسيس ليارديت التي ترجمت الرواية مقدمة للرواية قالت فيها:

" إن إسكندرية طفولة الخـراط هـي أرض مسـحورة، وموقع لألوان عديدة، حيث يشحن الناس والمكان والأشياء اليومية العادية بحقيقة مكثفة، حيث تراب الأرض هو زعفران، فلا تسجل تقلبات النور والظل فقـط فـي هـذه الشـرائح مـن الصـور الفوتوغرافية، بل اللون والحس والرائحة والمـذاق والصـوت، ورقرقة زيت السمسم في الطشت، وبهرة الشمس في الشارع بعد عتمة الحانة الباردة، والألم الفظيع في المرض.

" إن الواقع والخيال ينصهران معا عند ميخائيل، وتحدث وقائع ألف ليلة وليلة في غيط العنب، ونجد تماثيل الفراعنة العتيقة ملقاة على الشاطئ".

" لقد نشرت ترابها زعفران في الأصل العربي بعنـوان فرعي هو" نصوص إسكندرانية" مما يوحي عن عمد بمجموعـة من الكتابات لا بحكاية لها حبكة، وتجري في أزمان متعاقبة، بل هي سلسلة من الذكريات يكمن تماسكها في أسرار الذاكرة التي لا يمكن فضها، وفي البناء العميق القائم على الموضـوع لا علـى التعاقب.

" إن عناوين الكتاب تحمل رموزا قوية يأتي أثرها عـن طريق التموجات التراكمية، والسرد يدور حول الصـورة التـي

توحي بها هذه التموجات، فنجد أن أحد الفصول يشير إلى سر من الأسرار، ليأتي فصل لاحق، وليس بالضرورة تاليا له، ليضـيء، هذا السر، كما يحدث في الحياة.

" إنها كتابة تعيد إنتاج نزوات الـذاكرة، وتسـتلهم فـن الأرابيسك والخراطيش الهيروغليفية الرمز الذي يتكرر بلا نهاية على جدران المعابد الفرعونية، والنسق الذي يعيد التنـوع إلـى وحدة أصلية.

" إن هذا الشكل الذي يبدو كأنه عفوي، ينطوي على عمل مركب، يقوم على النظام والأمانة المطلقة، ويحرر الإسـكندرية مدينة الزعفران من قيود الزمن، ويتيح لها أن تحيا باستمرار.

" إن لغة الخراط غنية ودقيقة في الوقت نفسه، وهي أداة من الرقة والرهافة بحيث تنتقل سلما كاملاً من الخبرات الإنسانية، بدءا من التفاصيل العائلية البسيطة، إلى الترانيم الشعرية المفعمة باللون والموسيقا".

إسكندريتي

إسكندريتي ...

وجد (وفقدان) بالمدينة الرخامية، البيضاء – الزرقـاء، التي ينسجها القلب باستمرار، ويطفو دائما على وجههـا المزبـد المضيء.

إسكندرية، يا إسكندرية، أنت لست، فقط، لؤلـؤة العمـر الصلبة في محارتها غير المفضوضة ...

رخام متسايل يبض بعربدة اللحم الشبقي أعمدة تميد بهـا الصخور ويسندها ظلام القلب العنيد كثافة العصائر الجسدانية تنز من شرخ الحب العريق، وما زالت التيجان المرمريـة المكللـة بأغصان العنب الحجري تسقيها خمر الكروم المكنـوزة أبـدا لا تسيل، تواجه الأفق بصمت وتسائله بصمت، صـروحا تتحـدى السنوات والحقب والدهور، ولا يعنو بها زلزال الإنكار تكسـرت نفسي معك على سلم الرخام الأسود المستدير وأنت تتعثرين فـي شباك الرفض، قوية الخيوط غير مرئية ذراعك في يدي نحيلـة غصنًا مورقًا رقيق العظام كما هي دائما في حلمي، لم أكـن قـد قبضت عليها قط. وعلى طول العمر جرأة التقارب بينها ليسـت

غير مألوفة، الحم هو الحقيقة الوحيدة في عرفاني، والحلـم لـم يحدث قط. قلت دعني دعني الآن. وجهك فاكهة مضـرجة بـدم الشجاعة، هل كان أيضا دم الحلم الذي لم يسـفك قـط، سـوائل الغضب المحسوبة الانسكاب تطيح بالحبوس، مرارتها لا تطـاق. أصابعي وحدها من غير إرادتي، تزيح خصلة من الشعر عن تاج الجبهة الناصعة مس الشعر الخصيب واندفاق الدم فـي شـرايين الشوق المفتوحة حتى الآن. يدي ورقـة شـجر خفيفـة النسـيج أسقطتْها أصباح الشتاء، منقبضة الأصابع على سـماء مسـتغلة أدحضها ولا تموت، في العتمة المحيقة ليس إلا نورا يحيط برخام وجهك المكسور وجسدك القائم شامخًا ومليئًـا رغـم الانـدحار. طقوس النكث وإقرار الإيمان مرة بعد مرة بلا انتهاء كل صـبح وكل مساء، وصوتك منحة وذبيحة.

عرشت أشواق عشقي في مدينتي العظمى الإسـكندرية، الثغر المحروس، الميناء الذهبية، رؤيـا ذي القـرنين وصـنيعة سوستراتوس المهندس العظيم، ولؤلؤة قُلبطرة الغانيـة الأبديـة، المدينة الساطعة المرخمة لا تحتاج بالليل إلى نور لفرط بيـاض رخامها، أكاديمية أرشميدس وأراتوسنيس الفيلسوف والشـاعرين أبولونيوس وقاليماخوس، مثوى الميوزات جميعا وعاصمة القداسة

والفجور معا، أرض القديس مرقس والقديس أنانيوس وأصحاب الكنيسة البوقالية أوريجانوس والأسقف ديونيزيوس والأنبا أثناسيوس الرسولي الواقف وحده مع الحق ضد كل العالم. مدينة البطاركة عمود الأورثوذكسية القويم، إكليل السبعين ألف شهيد الذين سوف يبعثون إلى جانب المسيح، وجوههم بيضاء كاللبن والصاروفيم، يغنون في مكرمتهم ويسبحون، رأس فاروس يلقي نوره من إليوسيس الحضرة إلى قانوب أبي قير، من الجومنازيوم ومعبد باسيدون إلى الأمبريون والستاديون، من الهيبودروموس إلى معبد السيرابيوم، من تل راتوتيس كوم الشقافة إلى السلسلة رأس لوقياس، من تل بانيون كوم الدكة وكامب شيزار إلى بتراي حجر النواتية، المرسى العظيم الشأن لا يضارعه إلا مرسى قاليقوط في بلاد الهند، تنبثق من قلبها المسلة الجسيمة التي ليس تحت قرار الأرض مثلها بنيانًا ولا أوثق عقدا. أفرغ الرصاص في أوصالها، فهي مؤصرة لا ينفك التئامها، وعمود السواري المنحوت من رخام جبل إبريم الأحمر، تاجه منقوش محزم بأحكم صنعة وأتقن وضع ليس له قرين، مدينة المراتع والمحارس والمدارس والمسارح والجنان، ذات العماد، ذات الأربعة آلاف حمام، الأربعة آلاف ملهى، كلها قمينة بالملوك الأربعة آلاف.

يقال لا يبيعون إلا البقل الأخضـر دعـك مـن الآلاف الأخـر. عروس البحر الدفاق من القلـزم إلـى بحـر الزقـاق، جامعـة المزارات من سيدي المرسي أبي العباس وسيدي أبي الدردار إلي سيدي الشاطبي وسيدي جابر وسيدي كريم رضـوان ا علـيهم أجمعين. ذات الشوارع الفساح وعقائد البنيان الصـحاح، جليلـة المقدار، رائعة المغنى، شامخة الكبرياء. إسكندرية يا إسـكندرية شمس طفولتي الشموس، وعطش صباي، ومعاشق الشباب.

طفلولتي الشموس، وعطش صباي، ومعاشق الشباب.

قلت: أما زلت تحلم بالديمومة بما هو أكثر من الخلود؟

قلت: ألا ترى أن هذا كله حلم شيء وخيم العاقبة؟

قلت: لا

الملائكة الرخامية من وراء أسرار الجبانات تحلق معـي في الأفلاك العلوية صلبة وبيضاء، بأجنحتها المبسوطة الثانيـة، وجوهها الجميلة كأنها تبتسم لي أنا وحدي.

وعندما أنحرف في الطريق الواسع الخالي إلى اليسـار، فليس ذلك، على نحو ما، بإرادتي. الشارع مظلـم، ومرتفعـات الشلالات إلى جانب بأشجارها العجوز القوية في الليـل. وإلـي جانب آخر، جدران مخازن فورد العالميـة، أحجارهـا رماديـة

وضخمة، تقطعها النوافذ الكبيرة المغلقة بزجاج شـديد القتامـة، تلمح عليه من الخارج قضبان حديدية سوداء، وليس فيها نور ولا تنتهي الأبواب الحديديـة الهائلـة، عليهـا أضـلاع المتـاريس المتقاطعة، وتحت الجدران صف واحد متلاحـق مـن سـيارات الأوتوبيس الزرقاء منتفخة البطن، سطوحها مقوسة وداكنـة فـي العتمة التي تتكاثف وكأنني أحس لها قواما وجسما.

رائحـة المطـاط القـديم فـي عجـلات الأوتوبيسـات المرصوصة تختلط بنفث التراب السخن من الشلالات والخضرة الجافة وعبق الزهور اليابسة الحمراء التي تفتتت وغطـت بقعـا واسعة تحت الأشجار المحترقة من الشمس طول النهار، وأنفاس البحر الليلية تأتي إلي من فوق المـدافن الشاسـعة المزدحمـة بالموتى، وأعرف أنه ليس لي موتَي فيها بعد.

كنا ذاهبين إلى حمام الشاطبي، وكان اليوم الأربعاء هـو يوم الستات. مشينا على الجسر الخشبي الممـدود علـى أعمـدة حديدية نال منها الصدأ، مغروزة في كتل من الحجر والأسـمنت مدفونة في الرمل، أحسست الجسر يتأرجح تحتنـا وأنـا أرفـع وجهي، وجسم أمي في فستانها السمني الناعم الطويل يقتطع نسيج السماء الزرقاء فوقي.

هبطنا السلم الزلج الذي ينزل إلى الماء، وأرى درجاته الحديدية معووجة وسوداء تحت سطح الموج، أمسك بالدرابزين بشدة، كانت أرضية الكازينو فوقنا الآن، ونحن تحتها في الماء، وقاع البحر قريب. وقفتُ على آخر درجة من السلم. وابتل المايوه الصوف الأحمر الذي اشتغلته لي خالتي سارة، ووصل الماء إلى ما فوق وسطي بقليل، فأحسست رقرقته الباردة الهادئة حولي.

كانت الأعمدة الخشبية السميكة التي تحيط بها من جانب واحد دعامات مسطحة من الحديد، ترفع أرضية الكازينو والحمامات والجسر، الماء يصطفق بينها بكسل، وحبال سميكة ممدودة بين الأعمدة، متراخية قليلاً، تهتز، لا يطولها البحر، والطحلب طريا لامع الخضرة، يغطي الأجزاء المغمورة من أعمدة الخشب القديم، ويصعد قليلاً فوق الماء، يرشه الزبد القليل ثم يجف بسرعة، الأمواج في هذا المحبس المائي تحت الكازينو كثيفة بخضرتها الداكنة، ولها رائحة عطنة قليلاً من أعشاب البحر وطحلبه، كرائحة الكابينة. والضوء بارد له إشعاعات تنعكس وتهتز وتتموج من تحت، على السقف الخشبي فوقنا. ورأيت نور الشمس بعنفوانه وسطوته ينزل، بعد آخر الكازينو، على البحر

المفتوح الفسيح المتقلب، الذي تأتي أمواجه بسرعة بزبد رغوتهـا وكتلتها المائية الصلبة، فترتطم بأولى الأعمدة الخشبية، ثم تنسال إلينا بعدها، وقد انكسرت شرتها، معتمة هادئة.

لم يكن بالبحر حولي غير السيدات، ينزلن علـى السـلم ويشهقن من صدمة الماء، ويقفن قليلاً يمسكن بالحبال القوية بـين الأعمدة، ثم يتحركن مشيا إلى البحر يتهادين بحرص، ثم يـرمين بأجسامهن في الغمار الطلقة المضطربة، ويسبحن إلـى عـالم لا أعرف كيف أقترب منه.

كان الإنجليز قد انسحبوا من ثكنات مصطفى باشا. تركوا فيها قوة رمزية، وكانت أعمدة الدخان قد توقفت عن الصعود من القنصلية البريطانية المبنية كالقلعة على ربوة عالية بإزاء محطـة الرمل، قبل المستشفى الأميري.

ومع ذلك فقد كانت بنات الـ A.T.S. يتخطـرن علـى الكورنيش الخالي في قمصانهن البيضاء الناصـعة، والكرافتـات الصغيرة الأنيقة والجيبـات الكحلـي المحبوكـة علـى الأرداف الرشيقة. ينزلن الدرجات القلائل إلى الشـط الرملـي النظيـف الخاوي. وإلى الكباين المخصصة لهن فقط في شاطئ مصـطفى باشا، يحرسها البكيت، يمنعون حتى اقترابنا من السور الحديـدي

الذي نصبت عليه أسلاك شائكة متقاطعة. البكيت بالبيريه الأحمر، وعلى ذراعه الشريط الأحمر المكتوب عليه بالأبيض M.P. يلوح لنا بمدفعه الصغير، بصفاقة وبرود، دون أن يقول شـيئًا ونحـن نلمح الأجسام البيضاء الممشوقة الشاهقة البنيـان، والمايوهـات الداكنة المصروفة – تعيين – من مخازن الجيش أو البحريـة أو الطيران، تلمع في شمس ظهر الإسكندرية الشتوي، وهن يغبن في البحر المضطرب دائما بالزبد والموج المتقلب في هـذه البقعـة بالذات.

في الأيام التي ظننت فيها أنني شاعر، كنت في أصـباح الشتاء النقية يوم الجمعة، أنزل وحدي إلى خليج ستانلي. كانـت عيناي تحتفلان بعساليج النبات على الجدار المنبسط الناعم، تحمل إلي رسالة رومانتيكية، مهتزة الأطراف، من جمال الكون، تعذب قلبي وتعزيه معا. أنزل على سيف الرمل وشط الصخر، أشارف حافة الموج، ويرشني رذاذه، وأنا أغوص في تهـاويم دوامـات الماء المزبدة الصغيرة وتخاييله في أغـوار ضـحلة بـين نقـر الصخور ونتوءات الحجر، حيث السماء مصغرة متموجة محبوسة ورقراقة في وهدات مسطحة قريبة القيعان، أو أراقب نَهك البحر مرتميا مستنفدا على الرمل بزبده المرغي ووشيشه العنيد، مـرة

بعد مرة بلا انتهاء. وأفكر بغموض في أن هذه كلها أبدية، وأنها كانت هنا قبل أن أراها بدهور سحيقة وستظل هنا بعد أن أذهب بدهور سحيقة. ألم أكن شاعرا.

كان سور الكورنيش على اليمين ونحن نتجه إلى كامب شيزار عاليا جدا، وتحته الكبائن الخالية المتنوعة الأشكال والتصميمات، لكل منها خيالاته المجسمة على هيئة مقاصير وأبراج من خشب ومظلات من حصير ونوافذ، من زجاج ملون سميك. المربع منها والمستطيل، المسطح القريب من الأرض، والعالي تطلع إليه بسلمتين أو ثلاث. وكانت كلها مهجورة، وخشبها باهت وحائل من شمس الصيف، ومخرم كالدانتيلا أو مصمت وجدرانه مخططة بشقوق رأسية رقيقة.

كنت أنحني على الرمل، وجمعت لها من قرب الشط كومة من الصدف الأبيض الناصع، والأحمر المموج الصهبة، والقواقع الصغيرة الكاملة التكوين، ما زال حيوانها الهلامي حيا في كنها العميق، متحيرا ينبض.

هب الهواء قويا، من البحر. وجاء من الأذن، بسرعة، سحاب قائم، وأربدت السماء، وادلهمت فجأة، وخفق ضوء البرق واستطار، مرة واحدة، في نور الغروب، واشتد عصف الهواء.

جلجل الرعد وقصف بعنف فوق رأسنا مباشـرة، كـأن العـالم ينقض. وقبل أن نتحرك انهل مطر كثيف ضخم القطر، أغرقنـا في لحظة، وأحسست الرمل تحت قدمي داكنًـا ومتماسـكًا، فَقَـد هشاشته، وابتل شعرها الوحف كله دفعة واحدة، وسـقط خصـلاً غامقة لامعة على جبينها المدور وعلى ظهرها، والتصقت البلوزة الموسلين البيضاء بصدرها وتغير هبوب الريح، فسمعت للنسـيج صوتا طريا يمتلئ بالهواء من أمام وهو يلتصق بظهرها.

جرينا، دون أن نتكلم، كأنما على اتفاق، إلى أول كابينة. وكانت شرفتها الخشبية مغطاة عريضة. وأحسست الكن الجـاف مطلوبا ومرغوبا، بينما وابل المطر يدق السقف الخشـبي دقـات متقاطرة مليئة، والهواء يهز الحصير من على جانبي الشرفة، وقد طلعت له رائحة ابتلال البوص القديم الحادة الريفيـة. وسـمعت حفيف تموج الحصير هبات الريح المتتابعة.

نظرنا إلى أحدنا الآخر. وفجأة، دون كلمة، انفجرنا معـا بالضحك والبحر جثة يلقيها الغسق، تحت أقدام المدينة.

الاسم يسقط مني، برغمي، بين يدي الموت.

فهل سمعتُ أبدا صوتَك المجيبي؟

وهل رأيت أبدا، على سقفي، نجمة الوجد الواحدة؟

ولكنها جاءت.

الشيء الذي لا يصدق ولا يعقل حدث.

جاءت في الميعاد: بل قبل الميعاد قليلاً فيما يبدو، لأنني وجدتها.

هادئة الطير، في ردهة كازينو الشاطبي الدائرية التي كانت جديدة وفسيحة وخاوية ودافئة قليلاً في بعد ظهرية أكتوبر، وزجاج الردهة المقفل يدور حولنا. كل لوحة مغبشة قليلاً بالزرقة الباهتة، تعكس بحرا خاصا لها، معوجا قليلاً، تلعب أمواج الزرقة المدهونة بأمواجه الصغيرة، وتؤطره بين جانبي الستارة القماشية المربوطة بكل نافذة على حدة. بحار كثيرة شائهة ومحبوسة.

كان العالم في فجره الأول، خاويا ليس فيه أحد، والهواء النقي، صحراويا وصحوانًا فيه بلولة البحر وجفاف خاص في الوقت نفسه.

كان الوقت ظهرا هادئًا، كامل السكون.

الصمت ليس صلبا، صمت ناعم. كل شيء كان ناعما، وصافيا.

كنت قد عدت إلى هذا العالم الذي لا ينقضي أبدا. أنا مع ذلك غريب فيه أعرف أنني لست هناك.

وأمي تمسك بيدي، ونحن ننزل من القطار إلى المحطـة في أبي قير، وحدنا، لم يكن في القطار، ولا في المحطة، غيرنا.

أرصفة المحطة مرتفعة، قائمة مباشـرة علـى الرمـل الأصفر النظيف، وأرضيتها سوداء لامعة البلاط.

مبنى المحطة، بمدخله الرطب الظليـل المفتـوح علـى الرمال من الجانب الآخر، وسقفه المثلث المكسو بطوب القرميـد الأحمر، وشـباك التـذاكر الوحيـد المكتـوب عليـه بالعربيـة والإنجليزية، ومن وراء قضبانه الحديدية وجه نـاظر المحطـة، جامد في العتمة، يبدو كأنه مبنى مسحور.

الخرطوم الأسود الضخم، معلقًا بفوهته الحديدية المضلعة من الصهريج، متين العضل، جلده الخارجي مندى وحار، يتـدفق منه سيل متماسك القوام من الماء، يضرب الرصيف ثـم يسـقط مندفعا كأنه صلب، ويتقلب ويهضب ويزبد برغوة شفافة وثقيلـة وبيضاء، يهبط إلى الفراغ المستطيل بين الرصـيفين العـاليين، ويسيل على الفلنكات الخشب وبين القضبان الحديديـة الممتـدة، بثقة، إلى المصدات الحديدية الشريرة الشكل.

نزل السائق من القاطرة القوية المدروة الـبطن، كاملـة السوداء، وعليها كتابة ذهبية اللون، ومازالت تنفث هبات كثيفـة

من البخار الأبيض في نور الظهر. انحنى بكـل جسـمه، وأدار، بجهد، عجلة ضخمة أفقية على الصنبور الكبير المنتصب علـى الرصيف، فانقطع انصباب الماء، وتحول إلى سلسال رفيع يتقطع ويتصل، ويتقطر من على جانبي الرصيف إلى الرمـال الخشـنة التي تتشربه، بسرعة وعطش، تحت الحصى والـزلط وتـراب الفحم.

كان الرجل صامتًا وهو يعمل، وكـان المـاء صـامتًا، والمحطة صامتة، لا صوت هناك ولا أحد.

كانت ترتفع من مرآة البحر الرصاصية اللـون صـخرة ناتئة عريضة، رأيتها مكسوة بأكملها بالنوارس، كأنمـا حطـت عليها سحابة كثيفة مبطنة بالريش الأبيض، ساكنة عليها متشـبثة بها، النوارس متجاورة متزاحمة،الجسم المطوي يلتصق بالجسـم المطوي، وقد أحنت رؤوسها، وأدخلت مناقيرهـا الطويلـة فـي صدورها، محدبة الظهور، أجنحتها مطبقة إلى جانبهـا. وكانـت كلها تبدو جافة، مكسورة.

وألوان البحر قد أخذت تتخطط، أمام عينـي، بنفسـجية وزرقاء وبيضاء فضية مشعة، تحت سحاب أبيض تختفي الشمس وراءه، وتضيئه باحمرار سائل مشاع، وهـدوء البحـر عميـق،

صفحته مبسوطة لا تكاد تترجرج، ووشوشة الموج الذي يترقرق، على مهل، ناعمة، أسمع صوت الصمت المطبق تطرزه وتنمنمه، فجأة، زقزقة العصافير التي تتواثب على الرمل الطري، وتنقـر العشب اللزج والودع والصـدف الحـي بمناقيرهـا الصـغيرة السريعة. ومن بعيد صدى نداء يتردد على الكورنيش: سـيد ... حسونة ... لا يكاد يسمع . وعلى آخـر المـدى أرى عاشـقين غامضين على الرمال العذراء. في هذا الفجر؟ أي هيام لا يقاوم؟ أية رغبة مبهمة وخرساء، مطلقة، تدفعهما يمشيان على هذا الشط الموحش المبلول؟

عند التقاء الرمل بالموج خطّ الطحلب الأخضـر الـذي يبيض حينما ينحسر عنه الماء، غض ويابس على التوالي، بـلا توقف. قلت لنفسي: أبدي، دائم، أمام فنائنا وانتهائنا.

الشاطئ طويل هش مشدود، ملقى بين الفـراغ والمـلء، خصر هضيم ضامر مسحوب، قابل للانكسار في أية لحظة، فـي أية بقعة، لا بؤرة له يتكثف وراءها ويحميها بنطاق وراء نطـاق من الحواجز الواقية. خط متموج يقع على حرف هـوة لا قـرار لها، متلاطمة، وخادعة عندما ما تهدأ، لأنها دائما مهددة بالعصف وضاربة بجبال الماء. سحرها جذاب لا يقاوم، وجمالها لا يمكـن

أبدا الإحاطة به ولا الانتهاء من تملي مفاتنه، قوية الأذرع ممدودة إلي، تدعوني دعاء لا أعرف كيف أصده، دعاء في الاستجابة له وقوع القضاء الذي لا مرد منه، على هذه الحافة الهشة القلقة، بين الحياة والعدم، وطني الذي لا أعرف كيف أستقر إليه.

كنا في أواخر سبتمبر، وشمس بعد الظهر تصـنع علـى صفحة البحر، تحتي، ملايين النقط اللامعة التي تبـرق وتختفـي وتُعشي عيني وزرقة الماء تحتها عميقة وداكنة وكثيفة الشـفافية في الوقت نفسه، فأمد بصري من نافذة الكازينو العالمية المفتوحة إلى الأفق الغامض في اتصاله بخط السماء المهتز بالضوء، عندما رأيتها.

كانت تسبح تحت النافذة، بالمايوه الأزرق الفاتح، محبوكًا عليها، لامعا تحت سيولة الموج الخفيف الـذي يترقـرق عليـه وينحسر في حركتها الناعمة، ذراعاها لا تكادان تصنعان رغـوة في انزلاقها المنساب على الماء وعرفتها وأنا الذي كنت نسـيت كل شيء عنها. جسمها فاتح السمرة وغض، ولما يكـاد يكتنـز بأنوثته التي تتفتح وتزدهر، في أول امتلائها الباكر، ولكنها أصغر سنًا بكثير، فتاة بعد، ولها رشاقة سمكة في الماء.

خفق قلبي وتوقف من هي؟ هل هي أخت لها، صغيرة، لم أرها من قبل؟ كنت موقنًا أنها هي، هي. أم هي الأخرى التـي سوف أعشقها، وأفقدها؟ تعلقت عيناي بهـا، مسـحورا وغائبـا، وعندما ما انقلبت على ظهرها، تطفو فوق الماء، رأيت وجههـا المدور الخمري، مغمض العينين تحت الشمس، طافيا إلي، وكان شعرها الخشن الوحف قصيرا حول رأسها، مبلولاً وداكن السواد، أعرف حرافة عبقة المسكر، وخداها الأسـيلان يومضـان فـي استدارة رخمية كاملة تحت الماء، وهـي تبتعـد. سـاقاها، فـي بضاضتهما المخروطة العبلة، لا تكادان تتحركـان، وذراعاهـا تضربان الماء بحركة خلفية منتظمة، إيقاعها هادئ، وهي تبتعد. وعرفت أنثى سأحبها، في آخر العمر، حبا كأنه الموت، وأن قلبي هو ساحة بحرها اللجي الجياش أبدا بأمواج لا هدوء لها.

أرى الولد، صغير الجسم، ساقاه رفيعتان فـي الشـورت الأبيض الواسع، وقميصه مفتوح، عيناه كأنما فيهما نظرة متأملة، مبكرة كثيرا عن سنه، وهو يقف في أول الصبح على حافة البحر الموحش، عند المندرة.

أمامه صفحة ساكنة وشاسعة، مشعة ولا تكاد تترقـرق، دسامة بيضاء في الضوء الذي يكاد يكون شتويا، تنتهي برغـوة شفافة تغوص في الرمل بوشيش خفيض، متكرر.

وأحس، عبر السنين الطويلة، بالنداوة اللينة تحت قدميـه الحافيتين، والهواء المبلول على وجهه.

وأجد أن الشوق، مثل نزوع الموج، يرتمي على الشـط ممدود اليدين. بلا تحقق، مثل اندفاع الماء، مستنفدا بعـد رحلـة طويلة على ثبج العمر، ينكص محسورا أبدا إلـى عـرض الـيم العميق، ولا يفتأ يعلو وينحسر، حلمه يأتي ويعود، لا يهـدأ إلـى راحة، وكأنه لم يترك خط النهاية المتعرج، لحظة واحدة.

في تلك الساعة لم يكن هناك غيره على الشاطئ الواسع.

كنت أحس نفسي وحيدا جدا، وهواء البحر يـأتي علـى وجهي حارا ثم رطبا على التعاقب، مرة بعـد مـرة، ومحمـلاً برائحة الماء الملحية، وأضاءت أعمدة النور على الكورنيش، معا مرة واحدة، بقعا مستديرة بصفرة وهاجة إزاء نسيج السماء الداكن الزرقة الذي مازال في طرفه احتراق الغروب، يسود بالتـدريج، ونور المصابيح المهتز يقع على أسفلت الكورنيش وعلى ظهـور

السيارات اللامعة التي تمرق بصمت وسرعة، ومتباعدة وقليلـة، لتختفي في انعطاف الطريق، عند الكازينو البعيد.

وأمام الكابينة مباشرة التفت فجأة فرأيت جسـمها يـدور تحت عجلات السيارة، أمامي، ناعما ولدنًا بدون مقاومة، فستانها يطير ويتقلب تحت السيارة، والذراعان تهتزان، والجسم يلتف مع العجلات، مرة ومرتين.

أحسست العجلات المسرعة تطأ عظامي نفسها.

وسمعت صرخة ثاقبة في سكون الغروب.

كنا في ليلة في أول الصيف، العالم قد خلا فجأة، أصـبح مجوفًا، صفارات الإنذار تعول عويلاً موحشًا، وسمعت الكـلاب تنبح، بصوت مرتفع في السكون، والظلام الذي سقط.

نزلنا السلالم مسرعين، من بيتنا، في حارة الجلنار، إلـى راغب باشا، كنت أمسك بيد أختي هناء من ناحية، وأختي لـويزة من ناحية أخرى، وكانت أمي تحمل أخي ألبير الصغير، وأبي قد لبس البالطو على جلابيته البيتي البيضاء، ومعه أختـي عايـدة، صامته وخجلة قليلاً من أنها كبرت الآن ولم تعد طفلة. وعبرنـا شارع راغب باشا، وكان معنا جماعات صـغيرة مـن النـاس يتحدثون بهمس. ودخلنا من ميدان صغير في تقاطع شارع إيزيس

وشارع صغير لا أعرف اسمه، ودخلنا من الفناء الصغير إلى باب الكنيسة الإنجيلية المبنية بالحجر الأحمر، ووقفت بالباب بينما نزل أبي وأمي وأخواتي إلى البدروم المتين الصلب الشكل.

كنا نعرف أن باب سدرة قد ضرب، أمس، بطوربيد، ونشرت الأهرام والمصري والبلاغ خبرا واحدا وبنص وحد معا، أنه انهار بيتان كانا آيلين للسقوط، وأنه لم تحدث خسائر في الأرواح، وأصيب ثلاثة أشخاص إصابات طفيفة. وكنا نعرف أن العمود، صباح ذلك اليوم، قد غص بالجنازات المتتالية، وأن الكنيسة في جبانة الشاطبي أيضا، قد ظلت أجراسها تدق طول الصباح. وأن العديد واللاطم والشلشلة قد فاض من بين البيوت والأنقاض، وأن صلاة الموتى والغائبين قد أقيمت في جامع سيدي المرسى أبي العباس وفي الكنيسة المرقسية في وقت واحد معا وقال أبي أنه في طريقه لشغله رأى فتحة واسعة غائرة ظهر الماء في قاعها، على دوران البياصة، ورأى، من خلال كوردون عساكر الجيش المرابط، الحيطان المتهدمة والأنقاض والأحجار المتراكبة، وأنه رأى سراير حديدية متلوية ومحروقة، معلقًا بها جلاليب وفساتين كأن أصحابها قد خلعوها الآن فقط.

كانت السماء فوقي قد أصبحت شاسعة ومخيفـة، تحمـل الموت في بطنها، الموت محددا ضاربا وثقيلاً ونهائيا. وكان نور القمر قاسيا في سطوعه الفسيح، وانطلقت أسنة الأشعة الكاشـفة سيوفًا طويلة متحركة من النور القاطع، آتية من أطراف المدينـة ومن وسطها معا، تدور في الزرقة الصافية الحريريـة، تتقـاطع وتتجاذب وتتفارق وتتلاقى أطرافها لحظة، وتتركز فـي نقطـة واحدة وهاجة ثم تتشعب، تجوس في الـبطن الفسـيحة المغلقـة عليها، تبحث عن بؤرة مراوغة، وطلقات الآك آك الرفعية الثاقبة المتعاقبة تطقطق دون توقف، تتفجر في ورود حمـراء معدنيـة تتناثر شظاياها على الفور وتنطفئ، وهدير محرك الطائرة بعيـد وعال ولكنه مسموع بين انبثاقات الطلقات من المدافع المضـادة للطائرات، في الصمت الذي يجعل المدينة أكثر شفافية واتسـاعا، من الأنفوشي إلى المندرة والمنتزة، من الرند والبان والنخيل في غيط العنب إلى اللبان ورأس التين وأنسطاسي، من جليمو نوبولو وزيزينيا إلى ستانلي والنزهة والورديان، من حجر النواتية إلـى كرم الناضورة، من سيدي جابر وسيدي بشـر وبـاكوس إلـى سموحة والمكس، ومن محطة مصر والرصافة إلى مصطفى باشا

عودا إلى عزبة الصيادين، كانـت حبـات إسـكندرية عاريـة مطروحة، تغطيها فقط أسنة من شبكة الأشعة التي تطعن السماء.

كان العربجي يسابق ترام بك وهو يفرقع بالكرباج فـوق ظهر الحصان الذي له لون الكونياك الفاتح الذي يشـربه أبـي، وكانت عجلات العربة تفرقع على قضبان الترام التي تومض في الشمس.

ودخلت العربة إلى شارع الرصافة، وكانـت الأشـجار ظليلة في الصبح والشمس تهتز من بين أوراقها التي لها رقرقـة سريعة الموج وجافة في الهواء الرطب. ثم حودت العربـة إلـى شارع جانبي ترابي ولكنه واسع، وفيه خرابات مسورة بـالحجر الأبيض الكبير المكسر الضلوع، وفي الحجر خطـوط متعرجـة داكنة اللون، فيه بيوت كالسرايات لها أسرار حديدية تتهدل عليها أغصان كثيفة وتهب منها رائحة الياسمين البلدي العبقة ورائحـة الأرض المبلولة.

كنت في الوقت الذي أحفظ فيه الشعر الجـاهلي وأقـرأ القرآن وأترجم رواية مغامرات اسمها" السهم الأسود" وأحب الفتاة الأرستقراطية ذات الروب الحريري الأزرق التـي تطـل مـن الشرفة، أمام بيتنا في محرم بك، ثم تدخل مباشـرة فـي اتجـاه

الحديقة المسورة التي ترتفع من وراء الفـيللا بأشـجار النخيـل والمانجو والموز، أذهب للمدرسة العباسية الثانوية – كنـت فـي السنة الثانية- عن طريق تخريمة في قلب محرم بك.

يرتفع بي الشراع الرملي الحجري المـدكوك النظيـف، وأنفذ من ثقب في سور ضخم قديم من الحجـر الأنتـري الـذي اصفر وأربدت سطوحه الخشنة، فإذا بي في سفح ربـوة رمليـة صلبة الأرض قليلة الارتفاع، ورائحة الغنم وروثهـا وصـوفها وجلدها تفغمني كلها، وخيام الشعر المغبرة الداكنـة أرى وبرهـا ممزقًا ومرتوقًا بقطع من الجلد الجديد مرة ومـرارا عنـد خـط المزقة نفسها، واطئة ومظلمة الداخل، متناثرة على الربـوة بـين بضع نخلات نحيلة وسامقة الارتفـاع. ثغـاء المـاعز ودخـان الكوانين يرتفع.

وعندما أخرج، في السابعة والربع تماما، حـاملاً كتبـي وكراريسي فإن الحركة في مخيم البدو تكون قد هدأت، فقد خرجت البنات وراء معيزهن التي ترعى على نفايـات ورق الصـحف وورق الشجر وخرق القماش القديمة في شـوارع محـرم بـك الهادئة، وكنت أجد نفسي فجأة في نجد، أو تهامـة، أو الحجـاز، وأنا على ناقة امرئ القيس، مع البنت البدوية القصيرة الملفوفـة،

بثوبها المخطط، وأنفها مخزوم بحلق ذهبي مشرشر الحافة، عصابة حمراء عريضة تخفي شعرها إلا من ضفيرتين مجدولتين بقماش ملون يبدو غير نظيف تمام النظافة، ولكن العينين السوداوين تلمعان بوجد في وجهها الخمري المسحوب تحت نقاب نصفي سميك يخفي فمها، فلم أر شفتيها قط، ولا عرفت ابتسامتها، كانت تنظر إلي، وكنت أحبها جدا، وأسميها ليلى الأخيلية، وأنا أمر ببطء تحت حافة الربوة.

تنزل برشاقة، ردفاها المضمومان يتحركان بموسيقية لدنة تحت الحزام الأحمر العريض النازل على أسفل بطنها، أنسى البيوت القليلة المنخفضة التي تحيط بالمخيم من بعيد، وأنسى الرائحة الحادة وخوار الجمل الشيخ الذي يهدر فجأة بصوت أجش ومحبوس في حلقه، وأنسى دخان الكوانين الذي ينفذ إلى أنفي، ولا أعود أحس إلا بالمحبين العذريين وأعرف جميل بثينة وكثير عزة والمجنون يقطنون هذا القلب الذي كان – وما زال، على كهولته – شبقًا وتواقًا وفياضا بالحب والحلم.

وأخرج من الساحة الترابية المغبرة تحت الربوة كأنني أخرج من عالم سحري رث ومختلط التاريخ، طريق ضيق وعر ومنحدر، وأجد نفسي مرة أخرى في الشارع العريض المسفلت

الذي فيه عيادة الليدي كرومر، الإنجليزية التي كانت أمي تأخذني إليها وأن صغير جدا لأمس عيني.

في عشية عيد القيامة القبطي ذهبت إلى مسرح" الجلوب" في تقاطع شارع السلطان حسين وشارع صفية زغلـول. كـان صديقي جورج قد قال لي أنه سيكون هناك على الساعة التاسعة. كان الزجاج السميك الدائري الذي يحيط بالقاعة الفسيحة منـدى ببخار الأنفاس من زحمة العساكر والضباط مـن كـل صـنف وجنس، ورائحة البيرة تختلط بزعيق الموسيقا الصـاخبة حقًـا، والبيست الخشبي مكتظ بالعسكريين يراقصون الفتيات السمراوات المجعدات والشقراوات وبنات البلد النحيلات والممتلئات بزواقهن الفاقع والإنجليزيات من بنات الـ .A.T.S الصـافيات البشـرة كأنهن أبيات شعر مصفى، ترفرف في ضجيج الخمـرة والشـبق والقذارة والعرق . والاحتفال الشرس بانتظار الموت الوشيك في صحراء العلمين وطبرق وبير حكيم. وكان وجه سيلفانا الطويـل بشعره المفروش كجناحي مروحة بنية الخصل يطفو فوق الغمر. وكان العساكر يخرجون إلى الحوش، رأيتهم وأنا أدخل يتقيئـون ويتبولون دون تورع تحت العراء، ويعـودون متسـاندين علـى بعضهم بعضا أو حتى على نسائهن اللائي ينتظرن غيـر بعيـد

ويصرخن لمرأى الرجال يبولون أو يقذفون مـا فـي أجـوافهم، بأصوات ثاقبة من السكر وانطلاق العربدة الحسية في الأوصـال الجافة الجائعة.

رأيت أنني أسير إلى كوم الدكة، وفي الطريق ذهبت إلى الجنينة الواسعة التي تقع على المحمودية والتي كنت أشتري منها، الآن وأنا صغير، الخس والجرجير والبصل الأخضر والكـرات والملوخية والكرفس والبقـدونس والخبيـزى والفجـل والسـلق للقلقاس. وفي كل مرة أسير إليها متمهلاً، متأملاً، أمـر بسـياج خشبي عال فيه ثغرات طولية بين ألواح الخشب، أضـع عليهـا عيني ولا أكاد أرى وراءه أسرار هذا المبنـى الغـامض البعيـد الشاحب البياض، وله أعمدة.

ورأيت أنني صعدت إلى أعلى تلة كوم الدكة القديمة، وقد جلا عنها الجنود الإنجليز سرا في الليل، ولأول مرة منذ وعيـت لم يكن اليونيون جاك يرفرف على ذروة التلة، وكنت أعرف مع ذلك بغموض أن كوم الدكة القديمة قد أزيل، وحلت محله سـاحة مسفلتة ومبان حكومية، وأننا كنا ننطلق في جماهيرنا الغفيـرة، منذ الصباح الباكر، نرتفع على طرقات كوم الدكة الخيالية التـي كانت محرمة علينا، وقد أصبحت في هذا الصبح حلالاً، جماعات

جماعات، أصوات هتافاتنا مبحوحة في الهـواء النقـي: الجـلاء الجلاء يسقط الاستعمار يسقط الاستغلال، وكانت عنابر الجنـود الإنجليز خاوية على عروشها، ولم يتحـرك الجـيش المـرابط لاحتلالها بعد، ودخلناها ورنت أصداء أحذيتنا في فراغ حيطانها، وكان بلاط أرضها متربا قليلاً وعليه قصاصـات ورق ممزقـة وبقايا القش، وكأن اليوم عيد، وجماعـات المتظـاهرين كـأنهم يرقصون رقصات جماعية، يشورون ويهتفـون وينشـدون مـن الفرح.

وكانت الأشجار القصيرة المشذبة على جانبي الممـرات الترابية كأنها رؤوس خضراء مشعثة، مطموسـة العيـون فـي الجدائل الخشبية الغليظة المورقة بدغلات من الأغصـان كثيفـة جعدة منذرة ومهددة وشرسة وعندما طوفنا بكـل أنحـاء القلعـة المهجورة الموحشة، ونزلنا، وجدنا جنود بلوك النظـام صـفوفًا متراصة تحت سفح كوم الدكة، وفي أيديهم دروعهـم الخشـبية الخضراء القاتمة، على رؤوسهم خوذات حديدية صدئة، ركـبهم مدورة سوداء بارزة تحت الشورتات الكاكي الطويلة، وشـرائط الألشين تلتف بسيقانهم النحيلة حتى تغيب تحت الأحذية الميـري الضخمة المتربة بجلدها الخشن المقبب. وانتظمت الجموع بقيـادة

صديقي عبد القادر نصر ا الذي كان مازال في كليـة الطـب، بينما كنت قد تخرجت سنتها من جامعة فاروق، وكان قد انضـم إلى جماعتنا الثورية الصغيرة، ورأيت على جانبي شارع النبـي دانيال جثث الأطفال المرمية هامدة، حمراء لها قشـرة لامعـة، كأنها جنبري مسلوق ضخم، أيديها وأرجلهـا ثلاثيـة الأصـابع مبتورة ومتورمة، وحول رؤوسها غلاف صدفي شفاف، تحـدق من وراء زجاجة عيونها المفتوحة المتهمة. وكانت المظاهرة تشق طريقها، مع ذلك بحرص، بين صفي الجثث الطفليـة تحـاذر أن تمسها، وعندما وصلنا إلى واجهة كأنها بوابة فندق منيف، ناطحة سحاب، ألواحها زجاجية مدخنة شاسعة، تقطعها أعمدة الألمونيوم المصقولة، هجم جنود بلوك النظام فجأة دون إنذار، وسمعنا فـي الوقت نفسه فرقعات الرصاص في الهواء كأنها غيـر جديـة لا تحمل خطرا، آتية من نوافذ البناية الزجاجية الشـاهقة، ورأيـت الناس يسقطون بصمت مضروبين بالرصـاص، وتمـر علـيهم الأقدام المتلاحقة والناس قد انطلقت تجري في كل اتجاه، وكانـت موجة الناس تصعد وتهبط، ورأيت الأجسام التي أمسكت بها النار تلقى من النوافذ العالية، وتتقلب في الهواء، وتسـقط بعيـدا فـي البحر، وكانت الرؤوس تطفو فوق الأمـواج مفتوحـة الأفـواه

بصرخة لن تصمت أبدا، ورأيت وجهها الذي أحبه، ويردني فـي حلم مستمر، يسبح في مياه حبي التي لا تغيض، ساطعا بسـمرته الخمرية وسط زبد الرؤوس المتلاطم من غير صوت، وأحسست الطعنة في قلبي من عينيها الواسعتين بموجها المخضـر الثـبج، وسقطت في الغمر، ولما أفقت كانت الطعنة مازالت تغوص فـي عمقي الذي ينصهر ويتقد ويفيض حمما كالبحار الوحشية الجموح تنسكب متوهجة تئج باللظى وتغرق جسمي في ضـرام اللهـب، وأحسست أجنحة الحمام المشتعل بوهيج النـار ترفـرف حـولي وتصعد بي، في زرقة السماء الصحو الناعمة محترقًا من غيـر انتهاء.

أخذت ترام الورديان، وكانت عربة الترام تتأرجح قلـيلاً في اندفاعها وكان شارع السبع بنات خاليـا فـي حـر الظهـر، ورطوبة البحر تأتي إلي من نافذة الترام المفتوحة، ونزلـت بعـد كركون اللبان بمحطتين، وكان الشارع مرصوفًا بأحجار البازلت السوداء المحدبة قليلاً وعلى جانبه مخازن الخشب والقطن العالية الحيطان، والورش الصغيرة، ومخازن الخيش والبصل، وعربات الكارو الطويلة واقفة تحت الجدران المصـمتة الخشـنة القويـة

الحجر، وكانت رائحة الفحم ونفايات البحر، خفيفة وجافـة قلـيلاً تأتي من ناحية الميناء تحملها بلولة الهواء.

ولمحت البار في منعطف داخل شارع جـانبي، اللافتـة الخشبية على بابه مازلت حروفها الإنجليزية" بطـاطس وسـمك" مقروءة وإن كانت مطموسة تحت بقع مضطربة بالطلاء الأسـود الذي لطخها به الطلبة الوطنيون بلا شك، وقد أقلع جنود الحـرب الذين كانوا يملئون هذه النواحي بعدة اليأس والقهر والموت.

كنت قد نزلت من الترام، وكنت أصـعد علـى صـقالة خشبية بها حزوز بارزة أثبت بها قدمي، إلى المركب الصـغيرة المربوطة بالرصيف، تتأرجح قليلاً على المياه المخضرة الثقيلـة القوام التي تطفو عليها، وسط زبد أبيض كرغوة الصابون غيـر النظيفة، عكارة، وأوراق خضروات ذابلة، وقطع خشب عليها بقع زفت سوداء، حول الهلب الساقط في العمق الداكن، تبرق علـى موجه نقط حادة من شمس بعد الظهر.

وكانت المركب خالية تماما، فجأة وأنا أجري في ممرات تفتح على ممرات مفتوحة وفيها نوافذ زجاجية مدورة أرى منهـا أمواج البحر الزرقاء العالية وجوانب البواخر الشاهقة ومـداخنها العريضة وأبراجها الثابتة، ومازلت أجري وأجد أمـامي سـلالم

خشبية عالية تصعد إلى مالانهاية، لا أصل إلى سـطح المركـب أبدا، وكانت جدران المركب الداخلية بلون بني فاتح جـدا يكـاد يكون أصفر، ولامعة مصقولة تومض، وأنا أجـري، بـلا وزن، على السلالم التي تصعد معي بلا نهاية، وأسأل نفسي، من غيـر دهشة، إلى أين تنتهي السلالم في هذه المركب الصغيرة التي كنت أظن أنني سأقطعها، طولاً وعرضا، في دقـائق، ولا أنهـج ولا أحس ثقلاً ولا ضعفًا وأنا أجري الآن في ممر طويل، على سطح المركب، خشبه مبلول داكن اللون من الماء الذي تشربه وينفـث رائحة ملح البحر، وصرخات النوارس تحوم ثاقبة وجائعة، تصعد وتحوم وتهبط على الموج الراكد حول خشب المركـب الواقفـة، وأنا أطل عليها فجأة من حاجز حديدي طويل.

وتنقض علي نورس سوداء، صـدرها صـلب ومـدور ومكتنز، وفي منقارها الطويل الجارح رائحـة أعشـاب البحـر الحادة، وهي تنظر إلي بعينين حانيتين فيهما حكم علي بالقتل.

كان البحر فسيحا. مراكب الصيد الصـغيرة بأشـرعتها الضيقة تهتز على الموج الذي يكاد يكون مسطحا، وداكن الزرقة. رأيت الصيادين بالصديري واللباس الإسكندراني الأسود الواسـع الطيات، يبسطون شـباكهم وينفضـونها مـن السـردين،فيتتابع

ويصطدم ويرتطم بخبطات طرية دسمة، ويسقط على الكومة الفضية التي ترتعد مازالت بالحياة، في قاع المركب. وينحني الصيادون ويلقون بالسمكات الصغار إلى البحر، والأولاد بأجسامهم المحروقة يسبحون حول المراكب، منهم العراة تماما ومنهم من اكتفى باللباس العبك المتهدل الذي يكاد ينزلق من على وسطه، يغوصون، برؤوسهم أولاً، ويخرجون على الفور وفي أيديهم السمكات التي تضطرب وتتماص وتتلوى وتتنزلق، فيرمونها في أكياس مرتجلة من الخيش الغامق المبلول يشر منها الماء كلما خرجوا يشقون سطح البحر. والنوارس الرمادية الضخمة الأجنحة تنقض فجأة من عل وتخطف صيدها من المراكب، ومن أيدي الأولاد، صدورهم المخسوفة يلمع جلدها مشدودا على العظام الناتئة، ترتفع وتنخفض باستمرار، وتحلق النوارس ظافرة، صاعدة في خط مستقيم، وهي تنعق مهددة، غاضبة أو خائفة.

كنت قد أخذت ترام المكس المفتوح من الجانبين، وكان ألم الحب، والغيرة، والامتهان يعتصرني، وله رائحة المدابغ النفاذة العطنة التي خنقتني. ولم أكن واثقًا أنها سوف تأتي، كنت قد تيقنت الآن أنها لن تأتي. أقف، غير مدرك تماما ماذا يقع لي،

تحت سور القلعة القديم بأحجاره الكبيرة الرمادية، يرتفـع إلـى يساري شاهقًا يحجز انهيـارا دائـم الحـدوث، وكـأنني لا أرى البياعين والصيادين جالسين القرفصاء أمام مشنات ومغالق وقُفف تفيض بالسردين والبوري والمياس والجمبري.

والكابوريا، وأحاذر أن أدوس علـى أجسـام السـمكات الصغار المنفية، مهروسة على الرصيف، مسطحة، انبعجت مـن أبيضها بروزات، مدماة باهتة عند الـبطن والـرأس المـدعوك المسوى بالأرض.

كان كل شيء يبدو معاديا، وقريبا جدا مني، كازينو زفير بخشبه الأخضر الداكن وزجاجهة المغبش يلوح لي غيـر بعيـد، كشك مزلقان السكة الحديد وعليه بالخط الثلـث الكبيـر، ثابـت وشركاه نترات الشيلي الطبيعي. كانت هذه الكلمات تجعلني أحلم باستمرار منذ أن كنت أجيء مع خالي ناثان إلى الكازينو، ونأكل السمك بالليمون والبصل والبهارات في ورقة دسمة طالعة سـخنة من الفرن. البيت ذو الشرفات العربية المنمنمة الـذي تعرفتـه، حائل وشكله مهجور ولكنه هو، بعد ذلك بأربعين سنة. فندق سي جل – لم يكن عندئذ مطعما مزخرف الأناقة – مبنـى مصـمت الجدران رملي اللون مغلق على أسراره المشبوهة.

كانت رائحة البحر والسمك النيئ الطازج تتغلغـل فـي الحواري الموحلة قليلاً، مياه المطر من نوة الأمـس مـا زالـت تترقرق تحت هبات الهواء الملح، وتنتهي إلى الأرصفة البازلت.

وكنت أمشي بسرعة بين البيوت المبتلة القليلة الارتفـاع أحاذر أن أنظر، بشكل صريح، إلى المداخل المعتمة قليلاً المليئة بالنسوان، منهمكات في الطبيخ أمام مواقد الجاز التي تفح وتنيـر العتمة بنور أصفر ثابت الاتقاد، أو متربعـات أمـام الطشـوت المعدنية يغسلن ويدعكن هدوم الرجـال والعيـال، أو محنيـات الرؤوس عاكفات على تنقية الرز في الصواني النحاسية في نور النهار على عتبات البيوت، وهن يرضعن أطفالهن تـركن لهـم أثداءهن بحركة نسيان لهم وللعالم كله، وكنـت أحـس عيـونهن مفتوحة علي، صاحبة لي في الوقت نفسه، متسائلة.

عند صهاريج البترول الكبيرة والشعلة المتقدة المتطـايرة التي لا تنطفئ، رأيت على سيف البحـر صـفًا مـن العسـاكر الأفريكانه الشداد يقفون وظهورهم لنا، ينظرون في اتجاه البحر، شاكي السلاح، مشدودين، وكانت البارجـة الإنجليزيـة شـاهقة بيضاء راسخة في البحر، ومشرعة مدافعها نحو مركب حربيـة صغيرة رأيت عليها حروفًا باليونانية والعلم الأحمر يرفرف مـن

بعيد، كأنما باستماتة، على صاريها، ورأيت صفًا مـن العسـاكر بخوذاتهم وأقنعتهم الزجاجية التـي لا ينفـذ منهـا الرصـاص، مدججين، يسدون الشوارع الضيقة التي ذرعها الأنبياء والشعراء والحالمون، في القدس ورام ا والناصرة وبيت لحـم والخليـل، يقذفون الأطفال بالرشاشات السريعة الطلقات والقنابـل المسـيلة للدموع، يحيطون بالنصب الدائري الجرانيتي الذي يلمع بالليل في قلب ميدان التحرير ويضـربون الأولاد والبنـات بـالهراوات، ويسوقون الأسرى إلى عربات السكك الحديدية المغلقـة الخانقـة وإلى الخنادق الموحلة المثلجة في وارسو وسيبريا وغرف الغـاز في داخاو، ويجرون وراء عمال الغزل والنسيج في المحلة وكفر الدوار وكرموز وطلبة الحقوق والطب وسائر العلوم على ربـوة العباسية في محرم بك. دبابـاتهم الصـفراء الصـغيرة عارفـة بنواياها، ويضربون بالرصاص من البنـادق الطويلـة القديمـة الطراز، فيسقط المئات في الساحة الفسيحة أمام قصـر الشـتاء، وتصفر سياراتهم السوداء المسدودة أمام السـوربون، ويجـرون بمقاودهم الجلدية الكلاب المدربة الشراسة فتنهش سيقان السود في جوهانسبرج أو المسيسيبي على السواء. وسوف أعـرف بعـدها بسنوات، أن الإنجليز قتلوا مئات من البحـارة الثـائرين الـذين

انضموا إلى جيش التحرير في اليونان، وأسروا البـاقين، حتـى انكسرت الثورة بعد الحرب.

ومازلت أذرع شوارع غيط العنب، كما كنت أعرفها وأنا في مدرسة النيل الابتدائية، واسعة، نظيفة، مستقيمة، أرضها مـن الحجر المدكوك الملتصق به تراب رملي جاف، والشـجر علـى الأرصفة أمام البيوت المنخفضة، وفيها رائحة الملاحـة الرطبـة تأتي من وراء سور السكة الحديد.

شارع الترامواي وحده كان مكسوا بالأسـفلت الأسـود الصقيل تشقه قضبان الترام اللامعة الجديدة، وكنا نسير أنا وأمي، أمام مطعم الفول الذي كنا نسميه التركي، وكان فسـيحا ومبلطـا ببلاط أبيض وأسود، وبابه مفتوح المصراعين الزجاجيين اللـذين يبرقان، عريضا جدا، ووراءه مباشرة بجانب المنصة الرخاميـة الطويلة، قدرة الفول النحاسية الهائلة، وكان يعلق صورة الملـك فؤاد جامد الوجه ببدلة التشريفة والشارب والنياشـين، وبجانبهـا صورة الملكة نازلي وعلى شعرها المرفوع في شكل هالة صلبة مرتفعة تاج نصفي صغير، وعلى الجدران الأخرى صور تلمـع من تحت إطاراتها الزجاجية، فيها سبع يرفع سـيفًا، وأبونـا آدم وأمنا حواء، مطرودان من الجنة، عاريان إلا من ورقة التـوت،

والحية ملفوفة بنظام هندسي حول الشجرة، والخليل إبراهيم يرفع سكينًا ليذبح ابنه إسحاق بينما الخروف واقف والملاك نازل مـن السماء، وألوانها زرقاء وخضـراء يانعـة وخطوطهـا رفيعـة مسطحة.

في أول السنة كنت لا بدا في السـرير متـدثرا بلحـاف وبطانيتين، وكنت قد استقللت بغرفتي في شقة شارع ابن زهـر، وكأن البيجاما الكستور الثقيلة التي أرتديها تحت الأغطيـة غيـر موجودة، وكان الفحم شحيحا فكان وابور الجاز يئز في الغرفـة وعليه كسرولة ماء يصعد منها البخار والدفء والباب مـوارب قليلاً جدا خشية الاختناق، وأنا أقرأ، وأنا تحـت اللحـاف" دليـل المرأة الذكية إلى الاشتراكية"، بشـغف كأنـه روايـة بوليسـية، وسمعت صفارات البواخر التي تصل إلي من الميناء الغربية حتى راغب باشا عبر سكون المدينة في الليل، تتجاوب ويرد بعضـها على بعض كان جيراننا الأروام والطلاينة والأرمن والقليل مـن أهل البلد يقذفون، مرة واحدة، بالزجاجات الفارغة والقلل الفخـار والأطباق الصيني المشروخة والأصص القديمة، على الأسـفلت، في تتابع بهيج، سوف يصبح الصبح فنجد الشارع الواسع مغطى بحطام العام القديم. وكانت نوة عيد الميلاد قد هبت منذ ٣ أيام في

٢٣ كيهك والهواء يعصف والأمطار نازلة كأنها مـلاءات مـن المياه تفرقع وتصطفق بالشبابيك الموصدة ثـم ترتخـي وتعـود ترتطم بالبيوت من جديد. ومنذ أيام قلائـل، قبـل الكريسـماس بيومين، كنت قد نزلت في أول الليل إلى الشاطئ الذي يتسع عند الشاطبي وتصطدم الأمواج عنده، إلى اليسـار بأحجـار سـور السلسلة السوداء، وتعود في صخب مزبد مدوم داكـن الزرقـة، كانت النوارس تزعق فجأة، تنقض وتعلو.

وقلت: أوقوف، بلا رحمة ولا دموع، على مابـاد مـن طلل، واندثر؟

فماذا يجدي؟ وبم يقاوم؟

وقلت: هل من معول – بـالعكس – إلا علـى الرسـوم الدوارس؟ العطف والحزن الرباني الشفيق الذي يملأ علي شوارع طفولتي وهواجسها وآمالها في غيط العنب، أين هي الآن منـي؟ وهل أستطيع أبدا أن أبتعث من جديد هذه الجنات الواعدة البعيدة مفتوحة الأبواب عن كرماتها وموصدة في وجهي إلى أبد الآبدين، وهذه الأشجار المثقلة برمان اللـبن والعسـل والمـر، والخمـر الصهباء التي يشعشعها لي أبي بماء حنوه ومحبته ويسقيني، وأنا طفل غرير؟ فوانيس الغاز المضلعة الزجاج متقـدة أشـعلها لنـا

عفريت الليل بعصاه الطويلة التي يطقطق شررها، ثم مضى فـي مملكة ليله التي لا نعرف لها حدودا. من أين جـاء وإلـى أيـن يمضي ويترك لنا حبات النور، فاكهته المهتـزة الغضـة علـى شوارعنا الناعمة الغامضة التراب، أين هي؟ والبيـت الخفـيض جنب بيتنا، من دورين فقط، مقفل دائما وغريب ولكننا نعرف أنه معمور. نحس الحركة الحيية فيه ولا نرى سكانها أبـدا، نوافـذه تنفتح ولا يبوح بأسراره قط. دائما مكنون على بحيراته الشاسـعة الخفية الساكنة الماء، وعلى أهل مملكته البنات الطيـور اللاتـي يأتين مرة واحدة كل عام، ويخلعن ريشهن، فإذا هن الحور الخود لا مثيل لجمالهن في الأرضين. أين ذهبت البنات؟

قوة حضور الذكر تنفض القلب .

دخلت، وحدي، في الممرات الصحراوية الواسـعة بـين العشش والكباين والبيوت الحجرية القليلة المبنية من دور واحـد، من وراء أسوارها المعمولة من البوص والمربوطة بألياف باهتة غليظة، مغروسة في الرمل. وكنت أمسها بيدي وأنا أجري فـي الرمل بصعوبة، فيتمايل السياج، خفيفًا، وكانت فيه فتحات طويلة رفيعة بين قوائم البوص المحترق من الشمس وكانـت الشـوارع

ترتفع بي وتنخفض، كلها رملية، نظيفة. والهواء يرتفع بهبـوات صغيرة من الرمل الدقيق، لها حفيف في أعواد البوص الهش.

وكانت النقوش المخرومة بأشكال هندسية وزخرفية فـي خشب المباني المغلقة، والشرفات المائلة الخاليـة التـي تقشـر طلاؤها، تواجه نور الظهر بعتمة حميمة خاصة من الداخل.

وبين الكباين فجوات عرضية غيـر منتظمـة، ضـيقة وصغيرة وظليلة دائما، وعلى الرمل أوراق صحف رقيقة يابسـة غطتها الرمال. وتغوص في الرمل أغطية زجاجـات الكـازوزة وعلب الصفيح الصدئة ونفايات جافة حادة، وترتفع منـه، بـين حيطان الكباين، أشجار نخيل مائلة وخشـبها صـلب ومضـلع، والهواء، دائما له وشيش في رؤوسها المترنحة بالخوص الرشيق المهتز.

في الفجوة الرطبة الظليلة بـين رمـل الشـارع وأرض الكابينة، أقلب في الرمل بيدي وأحـس نداوتـه تحـت السـطح المحبب، وأفكر في الجسم الضيق المسحوب الذي أخذتـه الميـاه بعيدا عني، وأنا على سيف البحر، وفي وسـط خلـيج صـغير، مملوء بمياه شفافة بللورية النقاء، تترقرق فيها خطوط متموجـة كأنها مرسومة بقلم متحرك رقيق، تذهب وتجيء بنعومـة بـين

الصخور الصغيرة اللامعة التي تنحسر عنها المياه فتجف بسرعة ثم تعود فتبتل.

سرعان ما تحول المايوه الأزرق الباهت إلى نقطة بعيدة في البحر الواسع. وكانت أمي قد سبقتها إلى ما بعد البراميل فلـم أكد أراها بين ما تثيره الأمواج من زبد قليل.

كنت أقف في وشل الماء الصافي القليل الغور، وأنظـر إلى الجسر الخشبي الممتد إلى داخل البحر على أعمدة مسـتديرة قصيرة من الأسمنت اللازج تنتفض عليه طحالب خضراء شفافة، تلعب في الماء، وتهتز، مخلوقات حية، ثم تخرج من سطح الماء مبللة ممتزجة الألياف، ثم تجف فجأة وتصـغر وتصـبح يابسـة كالورق القديم، بلا حراك.

ولم يكن هناك الآن في الظهر، من يقف علـى الجسـر بأعواد البوص وجرادل الجمبري والدود الصغير. كـان الجسـر يمتد بخشبه الجاف بعيدا إلى داخل البحر لا ينتهي إلى غاية.

وكانت الوحشة على الشاطئ كاملة، لم يكن هناك أحد من المستحمين في هذا الظهر الهادئ، وكانت الشمسـيات المتنـاثرة المتباعدة قديمة الألوان، تلقي بظلهـا علـى المقاعـد القماشـية

المفتوحة الخالية، وحتى حارس البحر، بصفارته النحيلة الصوت لم يكن موجودا.

كنت وحدي لا أعرف كيف أدخل البحر الواسع العميـق المخيف السحر، ولا أعرف كيف أرجع عنه.

وكنت أذهب، في مضض هذا الحب الذي لم أكن أعرف كيف أحتمله ولا أعرف كيف ينتهي، إلـى كـازينو كليوبـاترا، وأقضي ساعات بعد الظهر المبكر أنظر إلى البحر، وأحلم أحلاما مضطربة، أحاول أن أقرأ رواية، أو أنتظر صديقًا قبـل ميعـاده بكثير، أو أقرر، خلال ساعات، هل أذهب إلى سينما، أي سينما، أم إلى قهوة الفريسكادور أو باسترودبس في شارع سعد زغلول، أو سان جيوفاني في ستانلي، لمجرد أنني لا أطيق البقـاء بـين أربعة حيطان وحدي.

لا غفران أبدا لقسوة العالم. نهائيـة مطلقـة. لا شـيء يرجحها، أو يفسرها. ونبض دمي يضرب في الوحشة، والصمت. ما أشد الإيجاع ... الدموع لا تجف ولا ترقأ، ولا تعني أحدا على أية حال.

كان الجدار الخارجي الجانبي للمحطة، أمام باب الدرجـة الأولى، يرتفع حتى الشارع العلوي تتخطر عليه عربات الحنطور

التي تبدو صغيرة، وأجراسها دقيقة مصلصلة الصوت، فوانيسـها النحاسية الأمامية بزجاجها المصقول المكعـب السـطوح كأنـه معمول من ماس كثيف ونقي، تحبس شعلات صـغيرة صـفراء محمرة تتقد في النهار. وقع حوافر الحصان على بازلت الطريق له موسيقا رشيقة. وكنت أنظر إلى إعلانات،" شركة الأدرياتيـك وتريستا للسفريات والملاحة" والباخرة تمخر مياه الحلم المتموجة بزرقة فاتحة الصبغة، دون أن تتحرك، مستقيمة الخطوط وهفهافة الريح في وقت معا، ثابتة في سرعتها الساكنة التي لا زمن فيها، ونوافذها، في البطن المسطح بصفحته المستوية، فتحـات كاملـة الاستدارة ومسدودة بلون الزجاج المعتم الشفافية.

كنت أرقب الدبور الذي صـنعته مـن ورق كراسـات المدرسة، مدببا أبيض حاد المقدمة، أشد طيرانه بالخيط الطائر في السماء، بحزم ورفق فوق رؤوس النخل، وأنا على سطح بيتنا في غيط العنب. وقلت لنفسي بفرح أنني عندما أكبر جدا، وأصبح في العشرين سوف أسافر في بعثة، كما سافر رفاعة الطهطاوي، إلى مارسيليا، وأركب البحر على باخرة شركة الأدرياتيك وتريسـتا، وأعرف فنون الحرية في باريس كما لم يعرفها أحد فـي مصـر قط. وكنت أعرف أنني لم أركب هذا البحر، ولم أمخر عباب هذه

الحرية، وأن القلب الطفلي مازال يطفو فوق أحلامه القديمة، وإن كان الآن قد تصدع بشقوق رقيقة وقاتلة.

أنزل السلم العريض بدرجاته الحديدية المفتوحة، لأقدامي عليها رنين معدني، كسلالم الحريق. سياجه الدائري يهبط معـي إلى دور سفلي في المحطة معقدة المسالك، خاويا أيضا، متكـرر الأرصفة، أيضا، بلا نهاية والسماء نفسها فوقي، وفوق الأرصفة العلوية الأخرى، منفصلة ما تزال، لا يهب فيها النسيم.

وأجد أمامي المصعد الكبير الـذي ينزلـق علـى بابـه الحديدي المصمت، بهدوء" وثقة" في مجراه المحفور، ويصـطك بالجدار المعدني بصوت ثقيل، نهائي. وفي الهبوط البطيء أحس في قلبي الروع الذي يريد أن ينفجر. هذا الباب لن ينفـتح علـي قط. لن يسمع أحد صوتي عندما أنادي النجدة. لن ينجدني العالم.

وتمتلئ المحطة والممر العريض، حتى الساحة الخارجية، بالجنود، والزهور، في صفوف وثيقة ومتلاصقة لا ينفـذ منهـا شيء. ولا يقف عمال الأبواب على رؤوس الأرصفة عند الحاجز الحديدي المنخفض، لا يثقبون التذاكر بمقراضهم الحديدي الشرير الشكل ولا يقتضونها منك عند الخروج، فلا يمكن أن تدخل أو أن تخرج الآن. مرة واحدة لمحته من بعيد، الملك، من بين ظهـور

الجنود والناس الواقفين بجلاليبهم وطرابيشهم وعمائمهم وشيلائهم وربطات العنق الرفيعة الضيقة الخناق، ورأيـت اهتـزاز ذيـل السموكنج الطويل الذي يلبسه على جسمه الثقيل، غريبـا علـى ساقيه الممتلئتين، وجانبا من وجهه المحـتقن المـزدحم بالـدم، وشاربه القائم بذؤابتين رفيعتين مشدودتين بالكوزماتيك المشـمع. كان أبي يقبض على يدي، بقوة، ونحن نخرج في الزحام وأشـم الرائحة الحريفة من معطفة وسجائره ورجولتـه، وهـو يمسـك بعصاه الرفيعة السوداء الحديدية الكعب ذات المقـبض الأبـيض المحفور بزخرفة، عرفت عندما ما كبرت أنها اسمه" قلته فلـتس" من العاج المخروم. كان في ميدان المحطة قرة قول من تلاميـذ المدرسة الحربية بالشريط الأحمر الذي يشق البنطلـون الـداكن الضيق المستقيم حتى تحت الحذاء الأستيك اللميع، وبلـوك مـن الجيش البريطاني وموسيقا القرب الأسكتلندية بأصـواتها الثاقبـة المملة، والجونلات ذات الطيات المتعددة وقطرات العرق تتفصـد ببطء على الوجوه المحمرة ولا يمسحونها. والموسيقا النحاسـية تضرب بفرقعات بهيجة وإيقاع واحد لا يتغير. وجنـدي قصـير يحمل طبلاً ضخما على بطنه الكبير يـدق عليـه بانتظـام دون توقف، كأنه وحده في العالم.

جنود بلوك النظام ينزلون جريا مـن عربـات الجـيش المربعة العمودية الجوانب، على سلالم قصيرة مثبتة في مـؤخرة السيارات، ويطاردوننا، بقمصانهم الطويلة المهدلة، وسـراويلهم تنزل إلى ما فوق الركبة بقليل وسيقانهم السوداء مربوطة بلفائف الألشين الكاكي الرمادية التي ترتفع إلى ما تحت الركبـة بقليـل. ونحن نجري في ميدان المحطة الفسـيح بـين عربـات التـرام الصفراء اللون التي توقفت، واحدة بعد الأخرى، على خطوطها، والناس ينظرون منها بفضول. وكان تلاميذ المرقسية ورأس التين قد انضموا إلينا. وكنت أهتف ولا أسمع صوتي: تحيا فلسـطين. يسقط وعد بلفور. الاستقلال التام... حملت العلم يا عبد الحكم ... الشمس حارة في دمائنا ونحن نجـري. والشـتائم البذيئـة مـن العساكر تلاحقنا، والعصي القصيرة في أيديهم. وكانـت الشـتائم موجعة جدا. والغضب يلغي العالم.

" وكان أبوه أيامها قد ترك عمله عند الشـيخ المراغـي تاجر البيض والبصل والمسلى في شارع أنسطاسي بسبب قضية ما ظلت غامضة عليه حتى الآن، وكان بالكاد يعمـل حسـابات التجار الآخرين باليومية، أو بالمقاولة، يشتغل يوما أو يومين، أو أسبوعا أو أسبوعين ثم لا يجد شغلاً بالأسابيع. ولكنه ينزل كـل

يوم على الصبح، في ميعاده، بعد أن يشرب قهوته التي يصـنعها بنفسه على السبرتاية، ولا يعود إلا على المسـاء، جـف وجهـه ونحل وغارت عيناه الثاقبتان المليئتان بالذكاء واليقظة، ولم يعـد يشرب خمسينية الكونياك على العشاء إلا في النادر، ولكنه ظـل أنيق الملبس، أمي تنظف له البالطو بالفرشة صـباح كـل يـوم، والجلابية المفتوحة الحرير، السكروتة مكوية دائما، تهفهف، شقها مطوي على الشق الآخر بحزام مضفور دقيق. والطربوش حـاد الدوران، جاف الحافة من غير أثر للعرق ليس عليه ذرة غبار.

" وقرأ في اللطائف المصورة أن حضرة صاحب السعادة مراد سيد أحمد باشا عين وزير مفوضا لمصر بألمانيا، بعـد أن كان شغل هذا المنصب في بلجيكا خلفًـا لسـعادة سيزوسـتريس سيداروس باشا، وترك أثرا جليلاً في التمثيل الخارجي، وتأمـل قليلاً في صورته بالطربوش القصير والنظارة المدورة اللامعـة، والشارب المشذب، والياقة البمباغ، والمعطف الأسموكنج، ممتلئًا باعتداد وكبرياء".

كنا في ليلة في أول الصيف، العالم قد خلا فجأة، أصـبح مجوفًا صفارات الإنذار تعول عويلاً موحشًا وسـمعت الكـلاب تنبح، بصوت مرتفع، في السكون، والظلام الذي سقط.

في تلك الليلة، عندما نزل الطوربيد من الطيارة الطليانية، على مقام سيدي أبي الدردار، لم يصل إلى الأرض أبدا.

قال شهود العيان أنه بينما كان الجسم الضخم يهبط ويتقلب، حافته المدببة مصوبة إلى الأرض، ويومض تحت القمر بلمعة شريرة، انشقت قبة المقام الخضراء، وسط تعريشة العنب المورقة المسورة بسور رقيق من الحديد، ثم التأمت على الفور، وصعد منها الحضور الأكرم لولي ا . وكان من الصالحين، يفدي عزوته وكل أبناء مدينته البيضاء المحروسة، والبرنس المغربي السمني الهفهاف ينفتح كالجناحين في الهواء، ووجهه كالبدر الطالع يكسف بدر السماء، سناه يعشي الأبصار، فاحت رائحة المسك والعنبر المدفون في المقام المصون، وإنه بسط ذارعيه فإذا هما عريضتان، نورانيتان، وتلقى في حضنه الطوربيد الهائل المندفع كالصاعقة فإذا هو برد وسلام، وطار به كلمح البصر أو أسرع، فوصل به في الحال إلى أكمة الشلالات العالية الخضراء الخالية من الناس، ووسده الأرض على جنبه، وقد نزع شرته وأذاه، فرقد بين الشجر الملتف الأغصان حديديا باردا ميتًا بلا حول ولا قوة. وجده الناس في أول الصباح فتوافدوا عليه ألوفًا مؤلفة، وفككوه دون ضرر ودون عناء، وكل

واحد أخذ منه قطعة حديد خردة للبركة والعبرة، وعندما وصـل رجال الجيش المرابط وضربوا نطاقًا حول المكان، لم يكن قد بقي من الطوربيد المهول إلا قطع صغيرة هشة من الصفيح، وكومـة باردة مفتتة من البارود تشبه الفلفل الأحمر المطحون.

زرقة الحلم الداكنة هي لون العالم.

كل الآفاق بها الحلم ولم تكن قط مواقع للأقدام. الشطوط الفسيحة الرمال على مياه ساجية عذبة، لا نهلت منهـا ولا رددت نفسي عنها، والبحار التي لم تطف عليها أشرعتي حتى لو هبـت بها رياح أشواقي، والشوارع المبلطة بالحصي المدور في القرى السحرية المستكنة بين المروج الخضر تحت شعاب الجبال وعلى سفوح المراعي، تجري فيها قنوات وجداول شفافة ثلجية المـاء، والأعمدة الضخام مكسورة الأضلاع أحجارها الهائلـة يترعـرع على خشونتها عشب الربيع النضير لا يعيش إلا قلائـل الأيـام، أنقاض لا تندثر وقوة الزمن لا تكسرها، فاضت نفسي، ولم تشف، بحب لا أدري ماذا أفعل به، ولا ماذا تفعلين.

كان المطر يسقط بلا انقطاع على خشب الشـباك الـذي يشبه المشربيات، له وقع متصل رتيـب، طـوال الأيـام السـتة الماضية.

الشوارع الراقية في الرمل وحول ملعب الملك وفي الحي اليوناني، كانت نظيفة تلمع، ولخرير الماء المتدفق صوت بهـيج، أما االحواري التي أخوض فيها إلى الربع القديم في بحري ثم إلى بيتنا في راغب باشا فقد كانت برگًا موحلة، وما زال الطين فيهـا ملبدا وشكله شرير.

" في الليل، في ضوء المصباح الكهربي القـوي، كـان وحده، على الكنبة الأسطمبولي، وحده يقرأ رواية السهم الأسـود على مائدته الرخامية البيضاوية المفروشة بكتبه وقواميسه، وإلى جانبه دولاب الملابس العالي، خشبه البني لامع ومصقول، وعلى كل من ضلفتيه مرآة بلجيكية سـميكة بللوريـة النقـاء، سـاقان بيضاويتان باللحم الناعم وينضمان على المثلث المقبب المسـود، والنسيج الأسود الساتان يلتصق بالاستدارة الصغيرة وينتهي تحت تكور الردفين بنمنمة الدانتيلا، يتراوح سـوادها المشـغول بـين خرومها الدقيقة مع بياض الجسد المتنزي المتقلب الذي يحتضـن انبثاق الصلابة الجياشة بالدم والمتعة المحبوسة حتى تنبجس مـن جديد، سورة مياه الطوفان ويتقوض الجسم".

في حارة الجلنار في راغب باشا، كان البرد فـي بيتنـا لاذعا للعظم، ولكنه لم يكن أبدا جافًا ولا قاسيا، بل مبلولاً بشـكل

ما، ورطب الهواء وكنت أنزل أشتري الفحم من عم عبده البقال، ونضع قطع الفحم الهشة، تلمع بقطرات الجاز القليلة المصـبوبة عليها، على التراب في الموقدة الفخار، وعلى أصابعنا آثار سوداء الناعم، يدخن الفحم قليلاً برائحة نفاذة، ثم تتطـاير ألسـنة النـار الصغيرة ونحن ننفتح عليها، حتى تتقد حبـات الفحـم وتسـطع، ويتحول جسمها الهش إلى جمرات متوهجة الحمرة فيها خطـوط رقيقة أكثر اتقادا وحمرتها أكثر التماعا، وتتكون عليها طبقة مـن رماد أبيض كالدقيق، وتظل محتفظة مع ذلك بشـكلها، وتكسـر حناياها الحادة وطبقاتها المتراوحـة الحمـرة، ولا تنهـار إلا إذا حركنا الموقدة، وجددنا الفحم، ووضعنا عليه حبات" أبـو فـروة" بقشرها البني الجاف المتجعد، نتخاطفها سخنة ومحمـرة الـبطن ولها عبق خفيف فيه نفحة من حلاوة السكر وطزاجة الفطير فـي الفرن.

وكان أبي يجلس على الشـلتة، علـى الأرض، وأمامـه الطبلية المنخفضة، وعليها الخمسينية الشـفافة وشـقائق البـيض المسلوق المقشر وقد عصر عليه الليمون، وورك الفرخة المحمر، وشرائح الجبنة التركي الصفراء يابسة ومشققة وندية في الوقـت نفسه بزيتها الناضح من لحمها.

ركبت ترام السبع بنات، ونزلت في محطة كركون اللبان، وخرمت على الفراهدة مباشرة. لماذا افتقدت أبي" فجأة" وأنا أسير في الشارع، بأنواره الزرقاء، وباراته، وبيوته الغامضة؟.

انطلقت قريبا جدا مني عربة حنطور مثقلـة بالعسـاكر الاستراليين، مكومين فيها ومتدلين من جانبها ومعلقين بمؤخرتها، بقبعاتهم المدورة العريضة وجثثهم الضخمة الشاهقة، عملاق منهم أخذ مكان العربجي الذي انحشر جنبه فارغ اليدين مسلما أمره ، والعملاق أخذ يفرقع بالكرباج فوق ظهر الحصان، فـراح يعـدو كأنه قد جمح بالعربة المائلة إلى جانبها بخطـورة، والاسـترال يصفرون صفيرا ثاقبا يائسا ويصرخون باستماتة: ها ... شي ... شي، بأعلى أصواتهم، في صمت الشارع الخالي.

وجدت حارة القاضي الفاضل مباشرة بعد أنقاض البيـت الذي سقط عليه طوربيد طلياني. السنة التـي فاتـت، وتكومـت أحجاره القديمة وترابه وخشبه، ونبتت فيها عناقيـد ملتفـة مـن النباتات والحشائش شكلها بالليل مهدد، وكانت رائحة البحر دافئة.

عندما دخلت الحارة الطويلة أحسست بأمان أكثر، كانـت مصابيح النور الزرقاء متباعدة وأبواب البيوت مفتوحة ومظلمـة كأنها لا تغلق أبدا، ورأيت جماعـات صـغيرة مـن العسـاكر

الأفريكان السود الضخام، والإنجليز الشقر الناحلي القامات، وعددا قليلاً من أهل البلد بالجلاليب والبلاطي الخفيفة أو البنطلونات، معظمهم كبار في السن جدا، يخرجون ويدخلون البيوت بصمت وسرية. ومررت، وأنا أحاول أن أقرأ أرقام البيوت، على بار واحد ضيق الباب وعليه كلمة واحدة بالإنجليزية" بار" تومض وتنطفئ لمبة كروية حمراء فوقها، وعلى قمة الحارة التالية عربة الكبدة والطحال، عليها صينية مدورة فوق وابور جاز يفح بصوت واضح أبح في سكوت الليل، ونشيش مرقة الكبدة ورائحتها المقلية تفغمني وتفتح نفسي للأكل.

تأتيني حتى الآن رائحة الملح والسمك الطازج ويود البحر تفغمني.

نزلت جماعة صاخبة من العساكر الاستراليين، بقبعاتهم العريضة الواسعة، من عربة حنطور وقفت أمام الكازينو، وهم يصفرون للبنات والنسوان بملاءاتهن المحبوكة على الأرداف، ويهتفون دون جدية ودون اهتمام تقريبا: كام أون بنت ... فانتازية ... كم أون وقلت لنفسي، لماذا قلت لها، أن تأتني هنا؟

تزلزل قلبي وأنا أراها، مرة واحدة، تقف أمام صياد فارع وشاب، محروق الوجه ووسيم وأزرق العينين، وهو ينحني على

طشت كبير وعميق مليء بماء البحر، تخبط في جدرانه النحاسية المستديرة ترسة ضخمة، محبوسة وحية وبطيئة الحركـة. ولمـا وقفت إلى جوارها، لم تلتفت إلي، لم تحيني. قلت لنفسي: خائفـة على نفسها أن يراها معي أحد. قلت لنفسي: أنكرتني للمرة الثالثة. وكانت تساوم الصياد الشاب بصوتها الأغن قلـيلاً، تنظـر إليـه بعينيها المرفوعتين المغويتين. قلت لنفسي: كل الأسلحة مباحـة. والأنوثة – وحدها – سلاح هي تعرفه. وكانـت تلعـب بعقـدها الكبير الحبات حول عنقها، أصابعها الطويلـة تتحسـس الجـزء العلوي من جيدها البين.

لا يا خويا عشرة صاغ كتيـر أوي والنبـي. دي بشـان ونبقي كرمينك، وعشان خاطرك انت بس. طب وحيـاة النبـي، ومن نبى النبي نبي، داحنا عايزين نكرمك، داني حنيجـي علـى نفسي بس عشان ذوقك، ومجدعتك. يا بقى، بيع، ربنا يعـوض عليك.

فقال لها الولد الإسكندراني الحليوة: ماشي كلام الحلوين، بس قولي لي على العلوان يا ست الكل واحنا نوصل لـك لحـدة الباب عندكو، والناس لبعضها برضك ... كله قسمة ونصيب.

فلم تقل له أن الترسة ليست لها، هي، وظننت أنـا أنهـا تركت له ساحة الغواية مفتوحة، كعادتها.

رمقتني بسرعة، بجانب عينها، نظرة أحسستها تغرقنـي بانهمار مضطرب سخن وغير صاف، نظـرة تغريـب تنفينـي وتلغيني. وعرفت عندئذ أنها سوف تحيلني إلى شفرة.

" جاء من محرم بك مشيا، إلى محطة الرمل، ترك وراءه أحزان صباح ثقيل السحاب في سماء الإسكندرية الفضية، المقفلة على نفسها فوق البحر، وعبر السلسلة، ووقف عنـد الشـاطبي. ترك الكورنيش، ونزل على سلالم متعرجة منحوتة في الصـخر المتآكل الزلق تحت قدميه، وكانت السلالم تغوص في مياه بحرية هادئة، ويهتز موجها في دوائر تتسع حتى تصل إلى حافة جدران الصخر فتصطدم به بخفة، رغوتها متقلبة الزبد. وتحـت قدميـه العاريتين، بالضبط عند التقاء الماء بالصخر، طحلب مخضر كث الوبرة، مخضل بالبلولة اللزجة، إذا انحسرت عنه سرجة المـاء الشفافة، الهفهافة القوام. جف الطحلب بسرعة، واصفر لونه قليلاً ونشف الماء تماما، يبيض جسد الطحلب شيئًا فشيئًا، فـإذا هـو غض وناعم وأملس يلتف بلدونة ملتصقًا بحافة الصخر الدائرية،

حتى يرتفع الماء فجأة، ويلاطمه برفق، فيبتل من جديـد، ويعـود أخضر غضرا كثيف اللحم.

النور يأتي من فتحة علوية واسعة منقورة فـي السـقف الحجري مضطربة الحـواف، فيغمـر هـذا الاتسـاع الـداخلي المحصور بين صخور مشققة عليها طبقات بارزة قلـيلاً متلويـة الخطوط بلون أكثر صفرة كأنها هشة ومتماسكة بالكاد. وينفـتح، إلى جانبه، في الجدار المحبب، نفق متحدر نصفه العلوي القريب منه جاف، مدور، أرضيته رملية مفروشة بقواقع صغيرة بيضاء كبيرة، ثم يهوي النفق إلى الماء وتلتطم الأمـواج فيـه ويرتفـع سطحها المتراوح المرتطم ويضيق حيز الفراغ فوق الموج حتـى يغوص النفق تماما في الماء الذي يملأه، بلونه الأزرق الـداكن، حتى العمق المدفون الذاهب إلى تحت في ظلمه القاع.

ولما عدنا بالترام في أول الليل، كان الميدان الصغير في آخر شارع راغب باشا خاليـا، ودكـان الـدخاخني، بمنصـته الرخامية الرمادية الطويلة الخارجة في الشارع، مغلقًـا، ولكـن السينما، التي كانت في عنبر صفيح عريض مثلث السقف وبوابتها شبكة حديدية جرارة، كانت منيرة بعقد طويـل مـن المصـابيح الكهربائية مدلى على الباب، يضيء إعلانًا ملونًا فيه.

حصان أحمر يجري وعليه راعي بقر قبعته عريضـة مسـتديرة زرقاء، باهتة على وجهه الناصع الزرقة، ويرفع سوطًا طويلاً في الهواء، وكنت أتأمل الإعلانات الملونة المصورة على هذه السينما في طريقي للمدرسة كل صباح، وأقرأ عناوين الأفـلام وأسـماء الأبطال، وأتخيل أحداث الروايات، طويلاً، وما يدور فيها، وأحلم كثيرا بأن أدخل هذه السينما ولم أدخلها أبدا.

" كان أمام بيت عبده، في محرم بك، فيللا قديمـة مـن الحجر، مربعة، مسطحة الجدران، وراءها حديقة لا يرى منهـا، خلف البناء المتين، إلا أعالي النخل وشـجر المـانجو والتـوت الداكنة، ولم يكن يعرف عن أصحاب هذا البيت إلا أنهم أغنيـاء، مترفعون، لا يختلطون بالجيران بل لا يكلمونهم، وأن لهـم أمـا عجوزا لم يرها أحد قط، وولد في مثل سنه كـان يخـرج إلـى البلكونة، في مقابل بلكونة بيتهم، كثيرا، وكان يذهب للمدرسة في سيارة فورد سوداء عالية ومربعة، وأختـه الأكبـر منـه بعـدة سنوات، جميلة جدا. ولم يعرف أسماءهم ولا جـرؤ أن يسـأل، وكان يعرف أنهم من أصل تركي.

كان يقف في البلكونة المطلة على الفيللا، أعلـى منهـا قليلاً، ساعات لا يفعل شيئًا، ينتظر فقط أن تخرج إلـى الشـرفة المقابلة.

وكانت لا تخرج إلا لحظة واحدة، ثم تدخل على الفور.

كانت بيضاوية الوجه، ناصعة، شعرها الفاتح ينسدل على كتفيها وتلمه وراء عنقها بربطة زرقاء رقيقة، ودائما تخرج فـي روب دي شامبر حريري، أزرق سماوي عليه رسوم ورد أحمر وأصفر كبير، ملفوف على جسمها اللدن، سابغ يؤكـد انسـياب ساقيها الطويلتين، وكان لحذائها الصغير ذي الكعب العالي قلـيلاً وقع على بلاط شرفتها، يسمعه في الشارع الساكت.

يحبها جدا، ويحلم بها أحلاما مبهمة غير متحـددة، ولـم يفكر قط أن يعرفها أو تعرفه أو تنعقد بينهما علاقة من أي نوع، فقط ينتظرها، وينظر إليها، وترفع إليه عينيها أحيانًـا. ويحبهـا جدا".

الحلم لم ينطق ... اسودت شفتاه.

وكانت بئر عينيها عميقة تومض بلمعة سـوداها، وكـان الصراع بين جسدينا لا ينتهي، ومعركة الحنان بيننا لا شفاء لها. جسمها كالعجين الأبيض المتماسك، والسواد الشفاف يبرق نسيجه

المهفهف كالموج، بالليل، على رمالها الدمئة، وهي تتفـتح عـن ربوة فينوس المتحدرة، شقها الطـري ملتـئم بنعومـة وشـوق، وشفتاي منطبقتان على ثمرة البلح الصـغيرة الداكنـة، أسـتطعم سلافتها المسكرة، وأنين المتعة كأنين الموت، لم أجد في الجسـم الإجابة التي أنشدها ولوعتي إليها لاعجة، أبدا. الطائر الأبـيض الرؤوم يطبق علي بجناحيه الأسودين الوثيرين، يرفرفان، حنانـه قاتل ولا غنى لي عنه، واختناقي في الريش اللين كـأنني أريـده وآوي إليه. الغراب الحدأة الأنثى الخصيبة المعطاء بذلك لي جسم عمرها، وعرفت في صدرها الطيب قوة الحب والمقـدرة علـى البقاء. فأين مهب الهواء الفسيح في الأفق الواسع المفتوح؟ وأيـن عصف الرعد بموسيقا الحرية والفرح، ومياه المطـر الهـامرة، مدرارا مبرئة؟ عدت إلى حضن طائري بعد أن أحرقنـي عقيـق برق العشق. بعد أن اشتعلت في نار العليقة القائمة أبدا لا يبقـى منها إلا جذع أسود الجمال، متفحم وصاب ومستضيء، لا يسقط ولا ينكسر.

كتب جورج خطابا هو عقد من الأشواك.

الإسكندرية في ١٩/ ٧/ ١٩٤١.

أخي وصديقي العزيز

لا أدري ماذا أكتب ولا كيف أبتدئ إنما يكفي أن أقول لك أن خطابك العزيز قبلته آلاف المرات وسألته آلاف الأسئلة، وقد كاد اللعين أن يضل طريقه إلي ولكن ا سلم.

وأخيرا دعنا من المقدمات ولندخل في الصميم، ولأقص عليك قصتي كما قصصت علي قصة شحنك أنت وأسرتك إلى بلادك إخميم، في عربة بضاعة مكشوفة ولمدة ليلتين كاملتين وثلاثة أيام، بعد الغارة الشهيرة على الإسكندرية.

إنك تعرف رأيي في"عجر" وفي آراء "عجر" حينما يشطح عن تدريس العربي إلى أفكاره الفلسفية، ولكن حدث ما قد خيب ظني. لقد كان عجر دائما ينفخ كرشه العظيم ومن أعمق أعاميقه يقول:"جورج ده ولد مستهتر" لم أكن أعني بالتعليق على هذه الجملة ... ولكن حدث أخيرا ما جعلني أومن بأنه كان على حق. فقد بلغ من استهتاري أنني استهترت بالحياة، هذا هو الفصل الأول من تلك القصة.

في اليوم الذي انتهي فيه الامتحان اللعين ذهبت إلى مصطفى باشا، وهناك كان كشف الهيئة فوجدوها لا بأس بها، وبعد أيام تلقيت خطابين أحدهما من الأميرالية تطلب إلى التوجه إلى مطار الدخيلة والآخر من سمير يتمنى لنا النجاح ويسأل عن

أرقام جلوسنا. وضعت أحد الخطابين في جيب والآخر في جيب آخر.

وفي اليوم التالي توجهت إلـى مطـار الدخيلـة، حيـث أوصلتني سيارة إلى الباب الخارجي وقال لي السائق هنا مطـار الدخيلة، سرحت الطرف فرأيت عدة معسكرات تمتد على جانبي طريق صحراوي، والمدافع منصوبة من كل الأشكال والألـوان، منها الرفيع ومنها السميك، ومنها الطويل ومنها القصـير. كمـا رأيت الطائرات جاثمة من كل الأشكال والألوان، منهـا الرفيـع ومنها السميك، ومنها الطويل ومنها القصير. كما رأيت الطائرات تصعد وتهبط مما يسمونه"المطار" وكم كان منظر ظـل الطـائرة على الأرض مهيبا، لم أشعر بشيء سوى لسع حرارة الشـمس، وقد وسوس لي الشيطان أو وسوست لي نفسي الخبيثة أن أتجول قليلاً في تلك المنطقة. فخلفت المطار ورائي وتقدمت في الطريق أتفرج، فطالعني من الجنود أصناف وأشكال. بعد مدة وصلت إلى باب أحد المعسكرات فتقدمت منه. وعندئذ رأيت قزما يقفز مـن أحد شقوق الباب هاتفًا "باس بورت".

كانت مفاجأة ولم يكن لدي "باس بورت" فأبرزت للحارس الخطاب وأخبرته بأني أريد أن أصل إلى المطـار الإنجليـزي.

ولكن الحارس لم يكن إنجليزيا بل كان بولنديا، فلم يفهم إلا كلمـة إنجليزي ولم يستطع قراءة الخطاب، فأعطاه لي وأشار لي بيـده وأخذ يتكلم بالبولندية، وفي كل جملة كان يضع كلمـة"بـريتش" ففهمت أن البريتش معسكر في الاتجاه الذي يشير إليه. فدخلت.

كان أول ما صادفني جماعة من الهنود، وقد جلسوا تحت ظل النخيل وخلعوا أقمصتهم وفردوا لباساتهم، وأخذوا ينقونها من خيراتها. مررت بهم وتابعت سيري، فإذا بي أجـد نفسـي فـي معسكر بولندي. تقدمت من أحـد الجنـود قـائلاً هـل تعـرف الإنجليزية، فهز رأسه وأشار إلى زميل لـه ونـاداه، وكـررت السؤال على الزميل ولكنه بدوره هز رأسه وأشار إلى زميل لـه وناداه، وتكررت هذه المهزلة بضع مرات إلى أن تقـدم أحـدهم وهو طويل طويل جدا ورفيع جدا، فأطل علي برأسه مـن عـلٍ قائلاً: ماذا تريد؟ فأفهمته أنـي أريـد أن أصـل إلـى المطـار الإنجليزي، فتشاور قليلاً مع زملائه بالبولندية ثم أشار إلى حائط فاصل وقال: خلف هذا الحائط تجد المطار، ولكن غير ممكن أن تقفز منه، لذلك يجب أن تدور حوله حتى تصل إليه. هنا شـكرته وخرجت، وعند خروجي أشـار لـي الحـارس محييـا كأنـه أدى لي خدمة جليلة.

ذهبت إلى المطار، وهنا تقدمت إلى حارسه وأطلعته على الخطاب فأذن لي بالدخول، سرحت النظر فـي المطـار فـإذا بالطائرات تنتشر على الأرض، فعولت على رؤيتها كلها، وأخذت أتجول في أنحاء المطار زهاء الساعة، حتى كلت قـدماي وكـاد الحر أن يهلكني. ولكنني شاهدت العجب العجاب مـن طـائرات مطاردة إلى أخرى قاذفة للقنابل إلى أخرى بحرية، كما شـاهدت أعشاش المدافع، ولم أر في حراستها غير البولنديين والفرنسيين. كما لاحظت أن معسكرات البولنديين والفرنسيين من الخيام، أمـا معسكرات الإنجليز فمبنية بالطوب وأمام كل ثكنة حديقة صغيرة وأخيرا تقدمت إلى الكابتن، وكان أول ما لاحظتـه عليـه ذقنـه الغريبة، فهي تبتدئ من تحت العينين وتنتهي قـرب الـذقن، ولا يلتقي الفرعان ولا يتجاوزا الذقن أبدا. وقد قابلني بكـل احتـرام، وأفهمني أن العمل على حاملة الطائرات فورميدابل غير متيسـر الآن، ولكن قد يكون من الممكن بعد مدة. وتمت جميع الإجراءات الرسمية، وهكذا أصبحت عضوا فـي سـلاح الطيـران التـابع للأسطول. وقدمني الكابتن إلى أحد الطيارين الذي اقتـادني إلـى إحدى الثكنات ووقف في وسطها صائحا: أيها السادة لقد كسـبنا زميلاً جديدا متطوعا. فأقبل علي الجميع مرحبين مهنئين .

إنني لا أستطيع أن أصف لك مقدار غبطتي ولا مقـدار سروري بين هؤلاء الزملاء الأوفياء، ولكن الذي يحزنني هو أن أمرح مع أحدهم في أحد الأيام ثم إذا سألت عنه بعد ذلك قيل لي لقد ذهب ... ذهب بغير رجعة ... وقد كان لي صديق كنت أعزه أكثر من الجميع وكان اسمه (إدورد) كان دائما بشوش الوجـه، دائما ضاحكًا لا يحزنه شيء دائما يغني ومن الأغاني التي كـان يغرم بها ويحبها الأنشودة التي تقول: سوف ألتحـق بالأسـطول لأرقص فوق الأمواج، على نغمات الأمواج.

وكان يمضي في أنشودته بصوت سحري وبنبرات فياضة تهز مشاعر القلب، وفي بعض الأحيان كان يغني: سوف ألتحـق بالطيران لأركب متن الريح، وأهتف في أعماق السـماء المجـد لنا ... ولكن هذا الصديق ذهب في إحدي المـرات فـي إحـدي الطائرات الأمريكية الجديدة ولكنه لم يعد.

لقد مرت بي ساعة من أحرج الساعات. فقد كنت في أحد الممرات جالسا مع بعض الزملاء مـن الطيـارين فـي نـادي الطيران، وكانت الساعة زهاء العاشرة، فإذا بالصـفارة تـدوي. وجلسنا في الظلام وأخذ أحد الزملاء وكان جديدا يقص ما صادفه وما قام به من جليل الأعمال، وإذا بنا نسمع صفير إحدى القنابل

الهابطة، فكان أول من انبطح على وجهـه هـو ذلـك الطيـار الجريء، ولكن لحسن الحظ لم تنفجر تلك القنبلة في هذه الساعة، وأيقنت أن ا   حق، ولعنت هتلر والحرب، وأيقنـت أنهـا نقمـة وليست بنعمة.

وبعد بضع دقائق مرت سيارة، فظنوها طوربيـدا نـازلاً فكان أسبقنا إلى الانبطاح هو ذلك الزميل.

إن لباسي الرسمي يتيح لي الكثير، وقد تفهم معنى الكثير، فإن الكثيرات يتهافتن علي والكثيرات ينظرن إلي، وهذا مما لـم أحظ به من قبل. وفي أحد الأيام شاهدت منظرا مؤلمـا. فبينمـا كانت إحدى الراقصات ترقص في أحد البارات، إذا أسر في أذنها أحد الخدم بضع كلمات، فتركت الرقص وخرجت هارعة، فدفعني الفضول إلى تتبعها، فإذا بي أراها وقد احتضنت ابنًا لها وأخـذت تقبله بكل شغف، وقد لوثت المساحيق التي تزين بها وجهها وجه الطفل. وبكل براءة مد يده النحيلة وأزالها عن وجهه، ترى هـل أنف الطفل الصغير من أن تلطخه تلك المساحيق المشوبة بالعـار المدنسة بالقذارة؟ ترى هل فهم الطفل الصغير معنى تلك الحركة التي قام بها. لقد كان منظرا مبكيا، وعندئذ تذكرت قول إسـكندر ديماس: "وإذا أردت أن تحكم على بغي ففتش عن سبب عهرهـا"

من يدري لعله أحد الأنذال قد غرر بتلك المرأة ثم رمى بها إلى عرض الطريق بعد أن خاف فيها ثمرته، ومن يدري فلعلها هي التي غررت بأحدهم ثم تركته تحمل ثمرة إثمها، ومن يدري لعل ذلك الطفل البريء هو ثمرة حب بريء ...

والآن لأحدثك عن حالة المدينة، فقد أصبحت خاوية خالية هجرها أبناؤها، وصارت المدينة وكأنها مدينة الأموات، وقد أصيب منزل عمي بقنبلة وأصيبت مدرسته بقنبلتين وأصيبت المكتبة البلدية بقنبلة، وأصيب جميع أحياء المدينة بلا استثناء، وأصيب باب سدرة بطوربيد جديد أفنى ما أبقاه سلفه. والغارات الآن لا تكون إلا في الليالي غير القمرية، فإن الألمان يأتون معهم بكلوبات يعلقونها في السماء فيطفئ نورها على نور القمر. وقد نزل طوربيد في حديقة المحافظة ولكنه لم ينفجر. وقد قال أحدهم أن سيدي أبا الدردار صعد إلى السماء وأنزله على الأرض بسلام. وأن الذي رأى أبا الدردار وهو نازل بالطوربيد هو يوناني فأسلم، وبالأمارة أن سيدي أبا الدردار لابس لباسا أبيض، فلعل أحدهم رأى الطوربيد نازلاً بباراشوت أبيض فظنه أبا الدردار.

وأخيرا نأتي إلى ألعن شيء فـي الحيـاة وهـو نتيجـة الامتحان الذي كنا فيه من الناجحين نجاحا متفوقًا. وقـد قابلـت عجر فأراد أن يفتتح إحدى المحاضرات – وكنت بلباسي الرسمي – فتوعدته بطوربيد ألقيه عليه.

لقد انتشرت المدافع في الشوارع وفوق أسطح المنـازل العالية كما انتشرت فيها المناطيد التي سماها أحد الظرفاء"خنازير" كما أخبرني أحد الظرفاء أيضا أن الصفارة تنطلق قائلة: طابخين إيبيه ... طابخين إيبيه ... طابخين إيبيه ... فيأتيها الـرد العاجـل كرمب كرمب كرمب.

لم يبق لدي الكثير من الوقت، فعلـي أن أسـتعد اليـوم للطيران للمرة الثانية منذ التحالقي. فعذرا، وأرجو أن تكتب إلـي بهذا العنوان: ٥٣ شارع دارا برمل الإسـكندرية. وقـد عملـت الترتيبات اللازمة حتى نصل إلى الخطابات في يومها. لم أتلـق خطابات من وفيق أبدا فأرجو أن تدلني على عنوانه قريبا.

وأخيرا إلى اللقاء!!!! المخاص: جورج

إلى اللقاء؟

فهل التقينا حقًا، بعد ذلك؟

لم ألتق بعد ذلك، لا بسمير، ولا بجورج.

شطت بنا الطرق وانشعبت المسارات.

وها نحن نضرب – كل منا وحده – في آخر الدروب.

إذا كنا ما زلنا، بعد.

وخطر لي أنه بينما كان سمير قناوي – كالنبات المعتني به جيدا في صوبته المحمية - فيه براءة تشفي على الطفولة، كان وفيق – في تلك السنة –أنضج منه، ومني، بكثير، وأكثر تجربة. فهل كان وفيق أيضا أكثر خبرة بالنساء؟ هل كان قد تردد على البيوت السرية؟ أم كان يكتفي بكتب مثل"بئر العسل" أو"اعترافات مومس" أو"مذكرات فاني" بالإنجليزية، في طبعاتها الرخيصة – بالبنط الكبير والأخطاء المطبعية الفاضحة – والورق الهش الأصفر، التي كانت تطبع عندئذ في مطابع شبرا والفجالة، خصيصا لاستهلاك العساكر الإنجليز والاستترال الذين كانت تغص بهم شوارع الإسكندرية في ١٩٤٠ و ١٩٤١ والذين ذهبوا إلى موتهم في العلمين والبراري الغربية؟ هل كان يكتفي – فوق ذلك – بمجلات البورنو الإنجليزي اللامعة الصفحات – التي أسميتها ماجنة – والتي اشتراها سمير أيضا؟ وقرأتها، منهما معا، بافتتان ونفور مزدوج.

أما جورج فقد كنت عرفته – كما عرفتهم، معظمهـم – قبل ذلك بأربع سنوات" ياه ... يعني في ١٩٣٧، في سنة أولـى، أو ربما ثانية ثانوي حسب نظام التعليم حينئـذ – يعنـي ثـلاث سنوات قبل التوجيهية التي لم يحصل عليها جورج قط.

كان جورج عندئذ فتى ضخم الجسـم ولكنـه رياضـي، ممشوق الطول، قويا، على طريقة القبضايات، وجهـه محمـر، مدور وكثيف، على الطريقة الشامية، كان أبوه ناظر محطة ترام سيدي جابر (المحطة لا الحمامات).

" عرفته عندما حاول اغتصاب رواية من درجـي فـي الفصل. وإني لأذكر التفاصيل كما لو كانت بالأمس. فقـد كنـت حريصا على روايتي، تلك الثمرة الشهية التي تتدلى مـن دوحـة الفن والجمال. كنت غيورا عليها، خائفًا من استلابها، لذلك خبأتها تحت الجاكتة، وخرجت بها في الفسحة، حذرا مترقبا.

وحدث ما توقعت، إذ فحص المغتصب درجي، فلما لـم يجدها استشاط غضبا وانطلق يبحث عني، مع أحد زملائه، وعثر بي عندما كان الجرس يدق، وقد ابتدأ الفنـاء يخلـو مـن رواده بالتدريج، فلم يبق معي غير أحد أصدقائي واسمه إدوارد. لسـت

أذكر تماما كيف استطاع أن يجر شَكّلي، وإنما تتمثل لي صـورة الموقف الذي تلا ذلك، في قوة رجلاء.

أمسك جورج بساعدي وحاول أن يثنيه (يعني أن يفرده عن صدري) لكي يخرج الرواية من مخبئها تحت الجاكتة، وأخذ زميله يعاونه في تلك العمليـة، لكنـي كنـت حريصـا عليهـا، فاستبسلت في الدفاع والمقاومة. وكنت خجولاً فلم أحـاول الـرد بسيل من الشتائم والسباب، كما يفعل المرء عادة في مثـل هـذه المواقف.

أذكر أنه لم يفلح في الاستيلاء على بغيته، وذلك بمعونـة صديقي إدوارد اللبق طلق اللسان. وارتد جـورج علـى عقبيـه محسورا محبوطًا. ثم أذكر أخيرا كيف أسرعت إلى الفصل وقـد تدفقت الدماء فصبغت وجهي بحمرة الانتصار والنشوة والظفر.

يوميات: إخميم، حوالي الساعة الحادية عشرة مساء.

١٩ أغسطس ١٩٤١

لماذا لم أكتب في تلك اليوميات التي اصفر ورقها (بعـد أكثر من خمسين عاما، ألا تريد أن يصفر، ويصبح هشًـا، مثـل حياتك نفسها، وتظل له مع ذلك سطوة؟) لماذا لم أحك كيف أنني واجهته، في البداية" بلكمة على فكه، بالضبط كما كنت أقرأ فـي

روايات أرسين لوبين (هل هذه حكاية داود وجوليات، مـثلاً؟) لكنني، بالطبع، لم أكن قد تلقيت أي نوع مـن التـدريب علـى الملاكمة، فإذا بقبضتي، مهما بلغ من حماستها، واهنة، قاصرة، لا تكاد تمس وجهه، وإذا هو يضربني بقبضة قوية – لم يضع فيهـا كل طاقته وإلا كانت قد أودت بي! – وإذا بالدنيا تدور بي، ولكني أحطت الجاكتة – وتحتها الرواية – بذراعي كلتيهما، واستقتلت!

ترى ماذا كانت الرواية؟

في الفناء الرملي الذي أصبح الآن خاويا تقريبا، وفي عز الشمس، بين المبنى الذي أصبح كلية الحقوق فيما بعد، والمبنـى الذي أصبح كلية الآداب، ولم يعرفها جورج قط على هذا النحـو، أذكر – حتى الآن – كيف كدت أختنق، وهو يجهد في أن ينتزع تلك الرواية العجيبة مني – وزميله الذي لم أعد أذكر لا اسمه ولا شيئًا عنه على الإطلاق – يجهد في أن يفرد ذراعي الأخرى التي ماتت على الجاكتة، لا يهزها شيء.

هذا الصبي – الطفل في الثانية عشرة من عمره، هـش الجسم، ضئيل الحجم، هل أذكر – مع هذا الصبي – حس الغرق وشهقة الغصص والاستماتة مع ذلك في الدفاع عن الذات؟ أو عن الفن؟

وهل انحسرت هذه الاسـتماتة أم هـي – أو بقاياهـا – مازالت هناك؟" لست أدري كيف تصادفنا. وكيف وجـدت فيـه ميولاً نبيلة، وأفكارا سامية، وقابلية للأدب، وميلاً لسماع آرائـي المتطرفة، والشعور بمثله.

أذكر كيف كنا نسطو على حديقـة المدرسـة، وحديقـة الناظر، لنسرق الزهور الجميلة الباسمة، وكيف كنا نبرر أعمالنـا بآراء فلسفية رائعة، وندعمها بحيل شيطانية غريبة.

ثم ألفنا عصابة تتكون منه، ومني، ومن"صبي حرامي" – تلميذ شقي في سنة أولى – وكنا نسـطو علـى أشـجار النبـق، والعنب، ونملأ جيوبنا في فسحة الغداء نبقًا لذيذًا، وإن كان فـي الغالب فجا، ولكن تحليه لذة المغامرة وطرافة الأمر.

وكنا نعقد في أثناء تلك الأعمال مؤتمرات عجيبة يتخللها الجد مع الهزل، والدعاية مع الخطورة، وتمتزج فيهـا الفلسـفة بالسخرية، وتشوفنا إليها رغبتنا في الخروج على التقاليد المتبعـة والسخرية بكل ما هو مألوف وعادي.

أذكر كيف كنا، قبل الامتحان بدقائق، نسطو على كرمـة العنب فنجني منها كمية كبيرة مـن ورق المحشـي والحصـرم

وطائفة لا بأس بها من الأشواك والغبار والمتاعب المحبوبة التي تنتهي بابتسامة ...".

وكما كان يحدث لي في" الطرانة" ها هو ذا التشبث، فـي آخر حدود الاندفاع الصبياني، بالخشب الهـش الرقيـق، هيكـل العنباية التي تقع في داخل حدود المحظور: بين فناء المدرسـة، وهو مباح، وحديقة الناظر وهي ممنوعة.

أهجوم باكر على الطابور، أو مناوشة له، واقتحام، مـرة بعد مرة، على طول السنين؟

الخدش في الوجه والذارعين والساقين من غيـر تـرف ومن غير جرح للروح.

كأنما الأشواك عقد خفي مضفور حول كل الجسم.

كانت هناك لحظات قوطية في محرم بك.

كان سمير قناوي من أولاد الذوات. واضحا.

وكانت لديه لُكْنَة خفيفة في نطق الراء.

كان يأتي للعباسية الثانوية – على بعد عشر دقائق مـن بيتهم – في سيارة باكار سوداء يقودها شوفير أصـلي مصـنوع حسب المواصفات المضبوطة: كاب أزرق داكن، بدلة بياقة صلبة من نفس القماش تدور حول رقبته، وصف رأسـي مـن أزرار

صفراء كبيرة وهاجة. لا ينزل سمير من المعقد الخلفي الفسـيح للسيارة إلا بعد أن يثب الشوفير من السيارة ويفتح له الباب ويمد له يده بحقيبة الكتب والكراريس – التي يحتفظ بها معه في مقدمة السيارة – منحينًا انحناءة خفيفة.

أين اختفي بيتهم الآن؟

بيتهم؟

قصرهم على الأصح.

كان القصر في آخر شارع محرم بك الذي كـان عندئـذ هادئًا مظللاً بأشجار ضخمة، توت وكافور وجميز ومنجـة، لهـا حفيف تسمعه عندما يهب هواء إسكندرية المبلول قادما من ناحية محطة مصر. مع أن الترام – هل كان نمرة خامسـة؟ - يقطـع الشارع وهو يتأرجح ويتقلقل ولـه صـوت كركـرة وجلجلـة، والجرس يصلصل برنين متصل، بهيج، في سكون الشارع الـذي لا تقطع إلا قرقعة عجلات الحنطور ووقع سنابك خيلهـا علـى أحجار البازلت الصغيرة المتلاصقة، لامعة وسوداء.

للبيت – أو القصر – كما لا بد أن يكون له، سور عـال من قوائم حديدية رفيعة متقاربة مغروزة في كنار حجري متـين

الشكل، ووراءه حديقة، كما لا بد أن تكون، متكاثفة الشجر حوشية الخضرة قليلاً من الإهمال أو من غضارة النجيل الغني اليانع.

القصر يقوم غامضا شيئًا ما وراء هذه الخطوط المتعاقبة من التمهيدات، التحصينات، المناعات.

ما كان يسحرني في هذه السراية لـيس النوافـذ العاليـة الخضراء المقفلة الضاف، علـى المقـاس الكلاسـيكي، ولـيس الشرفات الحجرية الصغيرة، ملاصقة للحيطان تقريبـا، لا تكـاد تسع إلا شخصا أو شخصين، لها سور خفيض دائري قليلاً مـن عواميد منحوتة. كأنها أرجل مقصـولة عنـد الركـب، منتفخـة الربلات.

ما كان يسحرني، من الخارج طبعا لأنني لم أزره قط ولم يزره أحد قط، هو ذلك البرج على طرف السراية.

لحظة قوطية

مدور، كامل الاستدارة، شاهق، صاعد للسماء، نابع مـن ركن القصر مباشرة، فيه نوافذ صغيرة مفتوحـة دائمـا عليهـا قضبان حديدية، وله قمة مخروطية مغطاة بقرميد أخضر.

برج الباستيل، كنا نسميه ونحن نمر مـن أمامـه بعـد خروجنا من المدرسة، شلة العيال المقاطيع العفاريت الذين ليسوا من أولاد الذوات ولا حاجة.

إخميم في الحادية عشرة مسـاء ٢٢ أغسـطس ١٩٤١: يوميات. عرفته من أربع سنوات أيضا، كان معي فـي الفصـل، علاقتي به لم تكن تتجاوز تحية معتادة، فيها ميل يسير متبـادل. كنا نعلق أحيانًا على بعـض روايـات، أو كتـب، بملاحظـات عابرة ...

في السنة التالية كان الأدب، والعلاقة المدرسية، وتواصل الألفة، باعثة علـى توثـق الصـلات بينـي وبينـه. وكانـت حصص"الدين" التي كنا نقضيها في حدائق المدرسة، أقوى رابطة بين أعضاء" المحور الثلاثي" كما سمينا فيما بعد. أنا، وجـورج، وسمير.

كنا نقضي هذه الحصص متجـولين متحـدثين، نغـازل الشرفات من بعيد، ونقتطف الأزهار، ونعبث – باختصار – فـي الحوش، ونجري خلف السحالي في حديقة الكشـافة المحجـوزة الواطئة قليلاً، وكثيفة الزروع بأزهارها، حريفة الرائحة، خشـنة الورق.

زوغنا مرة من المدرسة، في يوم أحد السعف، وطفنا في شوارع المدينة، حتى وصلنا للكورنيش، ونحن نضحك ونمرح – كنا في العيد – ونخوض في أحاديث تتراوح بين أحدث ما قرأنـا من كتب، وأطرف ما عرفنا من نظريات، وأجمل السائرات فـي الطريق.

كان عند خروجنا من المدرسة يزدلـف إلـى سـيارته الفخمة، يلقي بالتحية، ثم تمضي به السـيارة كالسـهم المـارق، وكان، على الرغم مما يبدو من جديته، مرحـا يحـب الحـديث العابث المستهتر – خاصة أحاديث جورج – وقد تعتريه نوبـات اندفاع فيشتري المجلات الماجنة، لكنه كان فتى كريم الخلق فيمـا عدا ذلك، سمحا، بشوشًا، رقيق المحضر.

في أول سنة كنا نأكل على مائدة واحـدة – أنـا وهـو وجورج – وكنا نعاكسه، ويستشيط غيظًا، بأن نغني له: سوسـو، حنتوسو، ياالطافتك يا حلاوتك يا ننوسو ..."

وعلى أننا كنا نعز سمير، ونوده، فلم يخل الأمر – فـي الأول – من قليل من الاحتقار لرفاهته، وربما هبوة من الغيرة – لا تكاد تحس – من العز الذي كنا نفترض أنه يعيش فيه، لكننـا بعد أن أصبحنا أصدقاء حقًا أسقطنا المعاكسة، والأغنيـة التـي

كانت شائعة عندئذ ولها توقيع خاص منغم، ونسينا أنه ابن ذوات، حتى تجيء الباكار والشوفير فنتذكر من جديد، ولكن لا نكاد نعير ذلك أهمية.

كان سمير قناوي يكتب قصصا – ساذجة بالطبع، مـاذا يمكن أن تتوقع؟ - عن شقاء العمال وكفاحهم، وعن قسوة قلـب أصحاب المصانع – وطيبة بعضهم – قصص أشبه مـا تكـون بقصاصات من جريدة يومية. وكانت خطاباتـه أشـبه ببلاغـات رسمية، وإن كان يشرق في خلالها بأشياء جميلة.

وكان أيضا يحفظ أنساب قبائل العرب، ويرسم لها خرائط تفصيلية طويلة ومعقدة بطون قحطان: سبأ، حمير، الهميع، وهكذا متسلسلة حتى حطم ومعاوية مثلاً، وانتهاء ببني يعفـر. وبطـون كهلان: ابتداء من سبأ وانتهاء بقيس وعبيد، مرورا بالأزد مـثلاً. وعدي. كان عندهم في البيت مكتبة حافلة من التراث، الأغـاني وصبح الأعشى والكامل ونحوها. كتب مرة قائمة بتسعة وتسعين اسما للأسد.

ضربت أيدي الليالي بيننا، بعد ذلك، ولم نلتـق بعـد أن سافر إلى القاهرة في صيف ١٩٤٠ – بعـد الغـارات الألمانيـة

الشهيرة على الإسكندرية – والتحق بمدرسة من طراز السـعيدية أو الخديوية أو نحوها، وانقطعت الصلة.

طيلة سنوات – عندما انتقلت إلى القـاهرة – كنـت أرى اسمه على لافتة نحاسية صغيرة على عمارة قديمة كبيـرة فـي الزمالك: الدكتور سمير قناوي طبيب باطني وجراح. وأفكر أنـه ربما كان هو صديق الصبا القديم وأفكر أن أزوره أو أكلمه على الأقل بالتليفون وأنسى وأرجئ، حتى اختفت العمارة وقامت محلها بناية حديثة بها سوبر ماركت ومحلات مزادات فخمة، وواجهات زجاجية ضخمة لامعة فيها ملابس أنيقة وغالية.

بحثت أخيرا عن رقم تليفونه في الدليل، أما الذي أجـاب علي فقد كان خاله الذي أنبأني – بتردد وتوجس – أنه هاجر إلى إنجلترا، ثم إلى أمريكا، وأنه الآن في فلوريـدا، وطلبـت منـه عنوانه، وتليفونه في فلوريدا، وعندما مررت في إقامـة قصـيرة بنيويورك كتبت له، وجاءني الرد – على الطريقة الأمريكيـة – بالتليفون.

حكى لي بسرعة قصة هجرته، ونجاحه. قال أنه لم ينس العربي ولا الأدب العربي – وإن كان الوقت المتاح له لا يسـمح له بقراءة كثيرة – كان مشغولاً جدا في عيادته ومستشفاه ومنزله

على السواء، وله في كل منها سكرتارية في ساعات العمل وآلـة للإجابة في غير أوقات العمل، وألح علي فـي أن نلتقـي. كـان إحساسه بالنجاح، وبالزمن، وبالسلوك، إحساسا أمريكيا خالصـا. من يستطيع أن يلومه؟

لم نلتق، ولم نتكلم، ولم نكتب.

عرفت – كما أفاجأ كل مرة، بأن أعرف – أنه غريـب، أنه آخر.

قلت أين تلك الرسائل التي كتبها إلي عندما كنـا صـبية سارع بنا نضج مبكر وإن كان ساذجا لا شك في غرارته.

هل يبقى سمير القديم، فتى، دمثًا، محبا وصديقًا. أم قـد اندثر؟

ما زالت عندي صورة له وهو في الخامسة عشرة ربما: وجه أسمر هادئ أميل إلى التربيع، فيه إرادة قوية في بكرتهـا، شعر أجعد مفروق بعناية، ونظرة صعيدية حالمة قليلاً وشـاردة قليلاً، وبدلة شيك.

بعد عودتنا للإسكندرية من إخميم كتبت له على عنوانـه الذي كان قد تركه لنا قبل أن يسافر: ١٠ شارع الديوان جـاردن سيتي، وجاءني الرد، واتصلت الرسائل والأخوانيات.

ثم جاء الخطاب الأخير:

" القاهرة في ٣ إبريل ١٩٤٤

أخي العزيز

لست أدري في الواقع كيف أبدأ خطـابي إليـك، ذلـك الخطاب الذي تمنيت أن أكتبه من زمن طويل. أأبدأه بالاعتـذار عن التأخير الطويل أم أبدأه بالعتاب لأنك ظننت في شخصا ينسى أحب صداقة إليه وأعزها؟

ولست أريد الإفاضة في الاعتـذار فلعلـك أدرى منـي بالمشاغل الشاقة التي يتعين على الطالب الجامعي احتمالهـا، وإن كنت أظن أن لطلبة الطب حظًا أوفر من تلك المتاعب.

لنتحدث قليلاً عن تلك الصداقة القديمة التي حز في قلبـي شكك في بقائها وطيدة ثابتة مهما طال الزمن وكثر الفراق. أتظن أني أنسى تلك الأيام السعيدة التي قضيناها معا وتلـك الصـلات الروحية التي استمرت بعد ذلك؟ وإنك لتظن نفسك الملوم علـى قطع تلك العلاقة مدة طويلة،ولكني أجد نفسي أحـق بـاللوم وإن كنت ألتمس الأعذار. ولكن ارجع مرة ثانية إلى ذلك العذر القوي وهو الانهماك في الدرس لعلك ترضى به.

وقد أحزنني جدا ما أخبرتني به عن مداعبة القـدر لـك، وفي الحق أن ضربات القدر في هذه المرة كانت قاسية عنيفة بل أكثر من القاسية العنيف. ولكن صبرا فالصبر شيمة الكرام. لست أجد في الواقع الكلمات التي أعزيك بها لأن الخطب لا ينفع فيـه عزاء، ولكن تجلد يا صديقي.

عزيزي

لعلك تدري أني قد انقطعت عن الكتابة إلى جورج مـن زمن طويل، أما السبب في ذلك فهو أني فقدت عنوانـه ونسـيته تماما. وهذا شيء لم أكن أتوقع حدوثه مطلقًا، وحاولت الاتصـال به بعد ذلك فلم أستطع، ولم أرسل لك خطابات في الصيف لأنـي لم أكن أعرف عنوانك . وقبل أن يصلني خطابك ببضـعة أيـام قابلت عبد المتعال قدال فأخبرني عن كثير من أحوالكم، فرجوتـه أن يحث جورج على أن يبعث لي بعناونه، وأن يفهم عذري، وأن يحثك على الكتابة لي ولست أدري ما تم في الأمر.

وختاما تقبل تحياتي الحارة وأشواقي القلبية

صديقك المخاص

سمير قناوي

سمير، جورج، وفيق، أنطون، قدال، بدوي، منير، أين أنتم الآن؟ منكم من رحل عنا، وعن كل هذا العناء الرديء، منكم من هو بعيد، لا سبيل إليه، ومنكم من لا أعرف إليه سبيلاً من الأصل، ولا أعرف إن كان معنا على هذه الأرض الواسعة ... أو ...

كم أحب هذه الطيوف الأطياف، ماثلة وغائبة على السواء، مازالت تراودني باستمرار. فما قيمة – وما معني – هذا الحب؟

سؤال قائم باستمرار، ولا يكاد يكون له معنى، أو مكان.

لكنه ممض، ملحاح، عنيد. وما من رقية – عقلية أو خرافية – تنفع في أن تطرده.

وبينما كنت أكتب إلى وفيق، من إخميم أو من دمنهور أو من إسكندرية، ويكتب لي سمير من القاهرة، أو من المحلة الكبرى – طرف وصفي بك الزيادي صندوق بوستة ٢٥ – لم يكن سمير ووفيق يعرف شيئًا عن أحدهما الآخر.

ثم انقطاع تام، ليس لأحدهما بالآخر أدنى معرفة.

لم يكن وفيق قد جاءنا – بعد – في الإسكندرية، فلم يلتق وسمير قط. أو هكذا أظن. فهل تلعب بي الذاكرة؟

وبطبيعة الحال لم يتلاق أي منهم – سمير، جورج، وفيـق – بمنير رمزي.

خطر لي أن هذا النمط متكرر.

كم من صديق لي، كم من دنيا عشت فيها، كم من فلـك كنت أدور فيه لا صلة لها – جميعا – بأصدقاء، ودنى أعيش بها، في الوقت نفسه.

كنت أنعي على "رامة" انقطاع أفلاكها بعضها عن بعض. أنا الذي لا يعرفني أصـدقاء – وغربـاء – إلا ثوريـا قـديما، وآخرون إلا موظفًا صغيرا أو كبيرا، ولا يعرف عني أصـدقاء أخر إلا أنني مشغول بأشياء من قبيل هموم الروح أو الثقافـة – كانت هناك نسوة يهجس بهن أنني لا يمكـن – لا يمكـن – أن أعرف شيئًا مثل الحب، أو حتى النوم مع امـرأة. وأخريـات – قليلات جدا – عرفن معي من صنوف الشبق والعشق وفانتازيات الجنس ألوانًا.

أليس ذلك شأن كل الناس؟ سألت نفسي.

كنت أظن أنني مشقوق شقين.

أتصور الآن أنني، كلي، شظايا ومزق.

هل ثم ما يجمعني؟

دخول تراب العنب المحمل برائحة الفجاجة النيئـة فـي خمر السكر الخام الذي يتخثر ببطء ونتعجل مذاقه في لهوجة.

التأرجح على الغصن المهتز المترنح تحت ثقل قلب، مـا أخفه، يهدد بالهوى في أية لحظة، في غمار شجرة النبق الكثة.

ومن خلال تواشج الـورق وتفجـر شـرايين الخضـرة والسماء الزرقاء صافية مشحونة بالمعاني – لم تكن قفرا مجديـة – تسبح فيها سحابات معنية.

وتبدو أرض الحوش – بين المباح والمحظور – سحيقة، تحت.

الوصول بأصابع ممدودة متوترة بالطلب والشهوة إلـى كريات الثمر متضرجة صفرته باحمرار لما يكد يشيع في الروح الرقيق المتماسك، وفي إهابه معا.

التحكم في بهلونيات الجسـم والرغبـة، بـين السـماء والأرض، عند حشو الجيوب بورق العنب وحب النبق الذي يشر

قليلاً بعصارة نزوة ويصبغ طرف القميص المحشور بين القماش المشمور والجلد العاري الحار، حلمات أثداء منتظرة.

معلق أزحف على فرع الشجرة الشـاهق علـى خشـب البحث بلا وصول.

ثم الانحدار بسرعة وخشونة.

انهيار على شروخ الجذع الجاري المشقق قوي اللحاء.

حتى صدمة الالتقاء بالأرض كأنها غير مأمولـة وغيـر مألوفة مفاجئة تزلزل القلب بوعي اليقظة.

كنا، أيضا، نصعد على سلالم الطوارئ العمودية، قضبان حديدية رفيعة أحدها فوق الآخر، حتى سطوح مبنى عنابر النـوم لطلبة الداخلية. ولم تكن السطوح منطقة يمسـها تلميـذ أو غيـر تلميذ، كان الهواء يهب بنا هناك، في العلو، نقيا وحـادا ويهزنـا قليلاً، وكان حول مدخنة المطبخ عش عصافير معتنى به، وبعيـد التناول، نمد اليدين إليه ونحن ملتصقان بحافة السطح، على حافة التردي البهيجة، لكي نصل إلى البيض الصغير المكنون. ترفرف الأم، تزقزق في فزع ولهفة، فنقرر بعد المخـاطرة بأعناقهـا أن نترك لها عشها آمنًا، استجابة لنداء الطبيعة الذي لا يقاوم كما كنا نقول، ونسعد بذلك سعادة صبيانية.

فهل أحتاج أن أقول أننا كنا أقرب صديقين إلـى أحـدنا الآخر، مشيات طويلـة بالسـاعات علـى الكـورنيش، أو فـي الشلالات، وحدائق محطة مصر، ومدافن الشاطبي، وبائعي الكتب القديمة في حواري العطارين، نبحث ونصطاد كتبا ومجـلات – بالعربي والإنجليزي – تفوح منها رائحة تراب المكتبات الحميمة التي انتزعت منها – كان الطلاينة قد اعتقلوا، واليهود قد سافروا، وتشتتت مكتباتهم، وكانت الكتب برخص التراب.

و"أذكر على الخصوص ونحن علـى الكـورنيش أمـام المنشية، كيف تقابلنا فجأة مع العمروسي، وطلعـت، ومـا كـاد الزميلان يلقيان بالتحيـة حتـى صـرخت:" الحـق، أديـب ... مجنون ... حرامي" ووجدت على الفور صدى لصـرختي عنـد جورج، وسرعان ما كان المارة يرون أربعة صبية يعدون وراء بعضهم بعضا، صـارخين، ضـاحكين، صـائحين فـي وسـط الشارع..."

وثبنا على سور الكورنيش الأبيض العـريض، نطـارد بعضنا بعضا على السور الحجري إذ تضرب الأمـواج تحتـه، وتصطدم بمكعبات الصخر الأسمنتية الضخمة التي نمـا عليهـا

طحاب أخضر لزج قديم، وترغي في ارتطامات هينة متلاحقـة، ونهتف:" أديب ... مجنون ... حرامي".

فيم تهم هذه الصبيانية كلها، وحكاياتها؟ وماذا تعنـي، إن كانت تعني شيئًا على الإطلاق؟

وكيف انتهى هذا" الفتي اللص المستهتر الفيلسوف" إلـى مقاول نقل عنده لوريات، بعد أن مر بسلسلة أحـداث وتقلبـات، خرج من عمله الذي لم نعرف قط ماذا كان بالضـبط، أمتطـوع طيار حقًا؟ أم كاتب مدني أرضي ملحق بالطيران الإنجليزي؟ ثم أصبحت له علاقات غريبة مع العسـاكر الإنجليـز والاسـترال والأفريكان، مع الطيارين والبوليس الحربي وبنات الـ .A.T.S وكان وراء دكان البقالة الذي يملكه أبوه في شارع دارا، مخـزن خلفي مكدس ببضائع" الأورنس" من أول علب البولوبيف والمربى إلى البطاطين والبلاطي، وكان جورج يـتقن الكـلام باللهجـات الإنجليزية ولكناتها المختلفة، من لهجة أوكسفورد مـع الضـباط والضابطات، إلى لهجة الكوكني القح، والسكوتش، والاسـترالي، كأنه، في كل حالة، من أبنائها. وكانوا يأتون في ساعات محـددة متفق عليها سلفًا: تقف لوريات الجيش الضخمة العالية، وفي لمح البصر تكون شحناتها قد انتقلت إلى المخزن الخلفي، بينما العسكر

يشربون كأسا من البراندي، ينصب مباشرة من حنفية في برميل صغير، وتمضي اللوريات قبل أن تأتي دوريات البوليس الحربي، وكان لجورج أيضا علاقات ومعـاملات أخـرى مـع البنـات الإجريجيات والشاميات ونسوان الطلاينة، يلتقي بهـن ويرتـب أمورهن في مسرح الجلوب في شارع السلطان حسـين أو فـي ساحة الباتيناج في سبورتنج أمام محطة التـرام، وكنـا نسـميها "الوباء".

إلام آل هذا الفتي، وقد كان شـاعرا كتـب فـي أنغـام قيثارته:" وفي طرف الغاب مسحت الآلهة دموعهن صائحات: ما أقسى الإنسان!"

عندما التقيت بجورج، بعد ذلك بسنين، في ردهة شـركة التأمين الأهلية لم أصدق. كان – وكنـت – مشـغولين سـاعتها بأنفسنا، وهموم ساعتنا.

وبعد التحية العابرة، المندهشة، أحسست أننا غريبين.

ومن غير مليودراما، ولا رثاء للنفس، أسأل:

هل نحن دائما، في النهاية، غرباء؟

كلنا؟

أما مفر من هذه الغربة الكلية؟

حتى نسقط في الغربة الأخيرة النهائية؟

لا.

لا.

أرى يميني بيوت رأس التين والأنفوشي وبحري، واطئة، مبلولة الحيطان، ناصلة الحجر.

كان الثعبان قد خرج من الباب، وانسـل بسـرعة علـى الأرض الترابية الرملية الرطبة.

لم يقربه أحد.

بل وسعوا له. قال لي الواد مرسي الجرسون، وهو يقـدم لي القهوة المحوجة على الصينية النحاس المدورة والمطبقة قليلاً:

- لا عم. وأنا مالي. دا بركة الحتة كلتها. أضربه إزاي يـا سيدنا لفندي؟ دي وليفته مستنياه. اللي يمسه حتـبخ فـي عينيه، تجيب داغه، في ثانية يا بويا ... اللهم احفظنا.

قال لي أنه مهما حطمنا رأسه، فسيذهب إلى أليفته – بعد أن يموت ، وعيناه قد رجعتا مفتوحتين وفيهما صورة من قتلـه. وسوف تعرف أنثاه كيف تناله.

تأتيه ولها نفخ ورعيد وهديد تحرق كل شيء في طريقها إلى ضحيتها، مسحورا بنظرتها، وعلى رأسها إكليلها المعمول من ثلاث قبازع براقة بشتى الألوان.

تغرز ذيلها في الأرض، تنتصب كالعود، وهي تفح، ثـم تثب كالطير على القاتل المقتول.

يتيبس فور طعنتها لدغتها نهشها.

وينزف الدم الأسود.

القيء والشلل والسقوط، القاتل القتيل يعرف آلام الجحـيم كلها في أقل من ثانية، من غير ثمن.

صورة وجهك الأسيل مطبوعة على حدقتي عيني، حتـى بعد أن أموت.

تنبحني الكلاب بشدة، في سكك الجبانـة العتيقـة، بـين حيطان القبور المتداعية، تهت عن الطريق إلى قبر أمـي الـذي عليه اسمي منقوشًا بالخط النسخ على رخامة بيضاء، هـل هـو قبري؟ وكان عم مسيحة الآن قد تهدم بنيانـه الجسـيم، هـائش اللحية، غير قادر على الحركة، بوابير الجاز التـي تفـح تحـت قلقاس الغطاس انطفأت من سنين، حـل محلهـا الآن بوتاجـاز

عصري أبيض شيك في العشة التي انبنت الآن بالحجر وأصـبح لها باب خشبي مردود عليها.

السور الأبيض على يساري ممتد إلـى مـالا نهايـة، لا أعرف إلام يفضي.

بارحت أحلام النور والظل وصورها المهتزة بـالأبيض والأسود.

احترقت الآن سينما ماجستيك الواسعة الجميلـة، وحـل محلها دكان جزم، وإن ظل برجها الـدائري مخروطـي القمـة، شامخًا.

كانوا قد أغلقوا الباب الطالع على شارع سـعد زغلـول، والذي تأتيه من عتمة الصالة الداخلية إلى ردهة دائريـة فسـيحة فيها واجهات زجاجية عالية ومقوسة، تضيء فيها – حتى الساعة عشرة مساء – صور الممثلين الأنيقة مصنوعة العيون مصـفوفة الشعر بإتقان.

خرجت، مع جمهور حفلة السـاعة ١٢، مـن الأبـواب الجانبية الحديدية الصغيرة، على الشارع الطويل الخاوي الممتـد إلى مالا نهاية.

ليل الإسكندرية صاف وصحو وبليل، فيـه دفء مـريح منعش لا أجد مثله أبدا في النهار، ولا في أي مكان على الأرض.

ولحقت بنيامين قبل أن يقفل أبوابه، الساعة اثنين الصبح، وأخذت سندوش فول بالطماطم والجرجيـر وسـندويش فلافـل بالطحينة البيضاء ودفعت ٢٤ مليما فكة.

هل ينتهي بي هذا الشارع المقفر إلى شـارع السـلطان حسين، ومسرح الجلوب؟

ولكنه لا ينتهي.

لمحتها قادمة من بعيد من الناحية الأخرى.

جاكتتها الجلدية الترواكار، عريضة الكتفين، تنزل إلى ما فوق ركبتيها العاريتين، جلدها أشهب يومض.

ولما اقتربت رأيت أن عينيها المدورتين المتعبتين، نصف مغمضتين، وأن زواق شفتيها وخديها فاقع، وهي تتسل، لا تكـاد تتلفت، تحت السور الأبيض الذاهب إلى غير غاية. ولما حـاذتني قالت:" صباح الخير". فشبكت ذراعها على الفور بـذارعي، دون كلمة، وأحسست جسمها نديا وبـاردا، وأردت – دون إرادة – إن أدفئها بحنان ليس فيه شهوة قط.

وهي تلتصق بي، عارفة، في صمت.

وأسريت تحت الأسوار الطويلة، وسمعت هرير آنوب في العتمة تلتف حول وسطه الكوبرا الملكية، مميتـي وفـاتح فمـي وباعث مزق روحي من الممات – إن كان ثمت – يرعاها سربا هائما لا تعرف مستقرا.

ولما ذهبت إلى الجزيرة التي يسيل عندها ماء النيل كانت الغرانيق بعيدة التطواف القادمة من أقصى بلاد خراسـان حيـث الثلج الدائم، تقاتل رجلاً من الحجر قامته قدر مائة ذراع، تطيـر وتحوم وتهدف إلى عينيه الفاغرتين وقد لاف على رأسـه ثعبانـه الملكي، وهو يخبطها بذراعيه في حركات متصلبة، بينما الكوبرا تهب وتنفخ عليها، وينشق فمها عن لسـانها المـزدوج الحـاد، والغرانيق ترتفع جدا ثم تسف وهي تصبح.

كان الرجل الهائل الجسيم واقفًا على أعلى صرح مشـيد كالجبال، يمسك في يده فتاة تبدو كالعصفورة، تتأرجح أطرافهـا الأربعة وتتلوى في الهواء، وتهب الرياح التي تثيرها الغرانيـق حديدية الشكل متوازية الأجنحة، فيرتفع طرف فستانها الخفيـف عن ساقين أملودين صغيرين جدا في يد الملك القرد المهول.

بكيت في السر، بالدموع السخنة الخفيـة،، عنـدما لـم تأخذني أمي إلى سينما ستراند، عندما لم أر"كنج كونج" ولم أنـس

لوعة الخذلان حتى بعد ستين عاما. يا هووه! ستين عاما مازلت أذوق على طرف اللسان طعم ملح الدمع الذي سقط من ذلك الطفل، كأنما رغما عنه – هل كان ذلك سنة ١٩٣٦؟ - لأنه حرم – بعد وعد – من متعة تحقيق خيالات هائمة.

رسم خطوطًا ساذجة للرؤى الساذجة، وما زال، لكنها لم تحمل إليه عزاء، لا عندئذ ولا الآن.

نامت الغرانيق، وضعت رؤوسها تحت أجنحتها، واقفة على ساق واحدة. نامت الغرانيق.

لكن شيخها لم ينم، ولا ينام أبد الدهر.

عنابي ... عنابي

يا خدود الحليوة ...

مجاريح الهوى – كما هو ذائع ومعروف – ليس لهم أطبة.

ولا المحبوب طبيب، ولا عنده دوا.

هل يترصدني آنوب، كما يرصدنا جميعا، إن شاء ا ؟

سمعت هريره الأبح وشممت أنفاسه النتنة، وجهه لا أراه، أعرف أنه ممدود الخطم ناتئ الأنياب. سرت إلي منه برودة لم

أعرف مثلها قط، ذراعاه البشريتان تستديران بي، لهم حس سيقان الحيوان الأشعر كثيف الجلد.

أما التماسيح – في وسط شوارع رأس التين، أم بين دور صندابورة؟ - فقد كانت تزحف ببطونها قوية الحراشـيف علـى التراب الرملي الرطب، ذيولها الضخمة تخبط الحيطان، متجهـة، بتصميم، إلى الماء الحلو البعيد، هل تصل؟

وعندئذ فتح الناس أعينهم ورأوا الحيـة العظيمـة وقـد انتصبت برأسها، وقامت بجسدها الأملس، ونفثت شـيئًا بصـوت ضخ محبوس بشهقة كأنها أنين اللذة. وتصلب ركـاب البـوينج ٧٤٧ في مقاعدهم، والطائرة تشق بهم أطباق السـماء، بصـوت هدير محركاتها النفاثة الأربعة، منتظما، رتيبا، تحت أنوار النيون اللبنية من وراء مسطحاتها المستطيلة المثبتة في السـقف. هبـت رياح مسمومة، تجمد كل الناس، دون حياة، دون رجعة، ومضت الطائرة وحدها تمخر الأجواء الموحشة، دون أن تتوقف، دون أن تسقط، دون أن ترتفع. الطيار الآلي لا يموت، هو أما أنـا فقـد نظرتُ إلى عيني الحية العظيمة، ونظرتّ إلى عيني.

ومن نظرتها النجلاء، مصفرة وخضراء وكلهـا شـبق، جاحظة العينين قليلاً، مدورة الحدق، جاءتني حياة شرسة ما زالت تفتك بي.

وما من رقبة تنفعني من لدغة هذه النظرة الأولي.

كل الخطوط وكل الحـروف وكـل التعـازيم، أعيـدها وأزيدها، لا تبرئني، ولا تبررني.

كانت مخازن القطن على جانبي الشارع تعمـل بنشـاط، بنوع من الاستبسال اليومي غير المدرك لشجاعة بأسه، النوافـذ التي تشغل واجهة حائط المخزن كلها، فاغرة، ارتفعت مصاريعها الحديدية المصبوغة بالأحمر الكابي، عن فـراغ متلهـف يعيـد الغور. الأوناش الضخمة تئز سلاسلها المتينة خطرة الشكل ترفع بالات القطن الهائلة المحزمة بسيور مسطحة لامعة بين الزرقـة والسواد مغروزة في جنوب البالات، تمسـكها بدقـة وإحكـام. الأسطي الونشمان يشور بيديه وذراعيه بحركات متفـق عليهـا: بيرة" ...! فيدور الونش دورة كاملة ... نص عندك! تهتز البالـة في نصف دورة ... ستوب.

البالات مشبوكة بخطاطيف ماكرة لا تثقبها، تصعد مـن على ظهور الشاحنات التي يبدو شكلها عتيقًا، مربعـة الخطـم،

مفتوحة تنفث بخارا عن أفواه محركاتها العريضة، لكنها شـغالة فعالة حمالة الأسية.

وعربات الكارو الطويلة التي تجرها أحصنة فارهة متينة الكفل تزاحمها، تقرقع إذ تتلاحق دقدقاتها وهي تـدور بعجلاتهـا المكسية بالحديد على بازلت الشارع المضلع.

قلت: ها هي شونة الخشب نمرة ١١ خلاص وصلت.

كانت الشونة مفتوحة واسعة، لها سقف جمالون بالقرميـد الأحمر القديم يصل إلى نصف الشونة ويترك النصـف الثـاني مكشوفًا تحت السماء. والبغال مربوطة جنب الحـائط، مدموكـة ثقيلة، تدس خطومها عميقًا في المخايل، تزفـر فيتطـاير حـول أسنانها الضخمة المكشوفة رشاش من هشيش التـبن بـلا وزن، خفيف، خالص.

كان السلم كما كنت أنتظر تماما، مظلما لا أكاد أرى فيه شيئًا، تلمست طريقي عليه بقدمي ويدي المتمسكتين بالـدرابزين الذي لم أكن أعرف حتى مدى نظافته، حدسـت مـن لزوجتـه المتماسكة القديمة أنه متراكم القذر، لكن قذراته جافة، تاريخية.

ذكرت نفسي: الكات الثالث، يعني رابع فسـحة، عنـدما وصلت كانت لمبة نمرة خامسة مدغمسة، صفراء النور في شعلة

السلك الكهربي المتعرج وراء الزجاج غير النظيف، تتقد بضعف على الباب.

قلت لنفسي: كأنني في فيلم عربي قديم، لكـن الـديكور، هنا، حقيقي غير مصنوع.

ياما الواقع الرث يحاصر الخيال المتنزي، قلت.

قلت: يا سيدي على الحكم ...!

هل هناك واقع خارج الخيال؟ قلت.

عندما فتحت لي الباب، تدفق النور من نافـذة مواجهـة تفيض وتنسكب بأصص ونباتات الظل.

ولما انجابت بهرة النور المفاجئ رأيت أنها تلبس قميص نوم، بيني، طويل الذراعين، ساتان أزرق لامع، ولكـن طيـات البطن وأعلى الساقين من اللبس المستمر، تركت خطوطًا باهتـة بان منها نسيج القماش التحتاني نفسه تحت لمعة الساتان. وفتحـة العنق مرتفعة، محتشمة، ولكن القميص الطويـل مشـقوق مـن الجانب حتى منتصف الفخذ، ليبيح لها حرية الحركـة، والمشـي وكانت تلف رأسها – كالمنتظر بالضبط – بمدورة مـن قمـاش خفيف مزرق، غير لامع، اكتسب من طول مسكته بشعرها طياته

ولفاته نفسها، كأنما سرت في نسيجه حيـاة خاصـة، وحـرارة خاصة، من الشعر الخشن القوي.

كما سوف تلبسه امرأتي الأخرى في زمني الآخر.

في الفسحة الطويلة البلاط المغطاة بكليم أسيوطي، رأيت طفلها، قالت: اسمه مرسي. اسم ا عليك، شـي ا يـا سـيدي المرسي أبو العباس، كان الولد عمره سنتان ربما، أو أكثر قليلاً، يمكن وكانت عليه فانلة واحدة، ع اللحم، جسمه مدملك أسطواني الشكل وبطنه بارز، جالسا على قصرية صاج، سعيدا بما ينجزه، في وسط الصالون.

وقدمت لي كوب كركديه، سخنًا، فيه حرافة مثيرة.

كأنني في زيارة عائلية، لبيت الجيران مثلاً.

لاحظت، لأول مرة، أنها لم تكن قصيرة جدا، ولا طويلة جدا. سوف أعرف حنكتها بفتون صنع العشق الجسماني الخالص، واستثارتها لكوامن جسمي وخفاياه التي لم أكن أعرف مدى لطفها ودقتها، على أنني عرفت معها – في تقاب غمرات الاستكشـاف والمغامرة – كيف أستنفر مناعمها هي، بعد أن أبلاها ربمـا، أو على الأقل ثلمها، طول ممارسة الصنعة الروتينية.

وحكت لي، فيما بعد، عن قصة جارتها التي تحت، ضمن حكاياتها الكثيرة، فقد كانت إرهاصا مبكرا بشهر زاد الأخـرى، قالت:

سكينة. كل الناس تقول لها سوسو. مليئة جـدا، سـمراء جدا. زوجها سائق تاكسي معتبر، من أولاد الحتة، عندنا من كوم الناضورة، طلعت لي فوق هنا، يجي من شهرين تلاتة، في نص الليل، تبكي بالدموع السخنة، قلت الحمد ما كنش عنـدي حـد يعني. قال يا دار ما دخلك شر، مالك يا عيني، مالك يـا سوسـو ياضناي؟ قالت حودة ضربني علقة سخنة، حودة جوزها، اسم ا على مقامك، طيب ليه؟

قالت لي:

جايب لي يا ختي قال إيه قال بدلة رقص بالترتر، شفتشي محزقة يا ختي كانت حتتفزر مني، وقـال إيـه قـال ارقصـي، ارقصي يا ولية، ارقصي لي بيها ... ا يرضيك، ا يهديك يـا خويا، طب تيجي إزاي؟ قال على عينك يا تـاجر، آدي ا وآدي حكمته، تدخل في إزاي دي؟ قال لازما ولا بد ترقصي لي. بايني كان شارب له كاسين طافيا ولا هباب. وا مانا عارفة. قلت مـا ينفعش يا حودة، ما يجيش يا حودة. مانت شايف أهه، هـو أنـا

حقول لأ حقول لأ ليه بس؟ مش نافع يا حبيبي. هـي كلمـة مـا تنيتهاش، وفين يوجعك، ماخلاش، راح نازل في تسفيخ، بالقلام، بالشلاليت باللكميات، تقوليش ياختي راكبه ستين عفريـت، لمـا طفحني الكوتة بعيد عنك، وعن السامعين.

قالت له أن سوسو بعد ما نزلت من عنـدها علـى وش الفجر، راحت: للبوليس وكتبت المحضر والذي منـه، وحولـوا زوجها للنيابة، والنيابة حولته للمحكمة.

قالت: وعنها يا سيدي. القاضي قال:" براءة".

طيب ليه؟ قال لأنه ما تعقلش، كده بالعقل مش ممكن فيه راجل يقول لست زي دي– اسم ا على مقامك – تـرقص لـه: وإيه في بدلة رقص كده، يبقى ما حصلش، يبقى بتتبلـى عليـه. القاضي قال لها ياست مش ممكن، اتهامك كاذب. هو ده برضـه جسم يترقص بيه! آي وحياة النبي قال! يا خويا. ياما في الحـبس مظاليم.

وعنها يا سيدي واتصالحوا، سوسو وحوده، فـي قلـب المحكمة، قدام القاضي.

قال لهم صافي يا لبن؟ قالت والنبـي علـى قلبـي زي العسل!

كأنها لم تغرق تماما في لحم جسمها. ذهبت إليه طافيـة على غمر هذا الجسد .

فكأن جسمها سوف تترقرق على سطحه مياه بحر غيـر مرئية.

سكبت نفسي على جوارحها الناعمة.

سوف أقول: عينان كأنهما زهرتان منورتان طافيتان على ماء اللوتس الذهبي.

عبق ماء البحر الملح، نفث سمك ذفره يتضوع.

الصدفة التي رأيتها، ذات حلم، ورديـة اللحـم، داكنـة، حجرية اللازوجة، متماسكة وطرية، على شاطئ جسمي الرملي.

الخضرة اليانعة الظليلة يتفتق لها ألف باب على حـرف اليم.

النباتات والزروع حية وارفة تشاركنا فعل العشق الحميم.

زروع" السينجونيام" عريضة عاليـة تظللنـا، أوراقهـا عريضة وسميكة اللحم، غامقة من الخارج، أما في باطنها فهـي مشجرة متشرجة متدرجة التلاوين بالأخضر الفاتح متعـدد القـيم، عودها منصوب مستنفر منتفخ بعصـارته منبثـق مـن التربـة المحصورة، ولن أفرغ من تقليب وجهي على الربوتين المليئتين،

شفتاي تتمرغان في الخصوبة الطرية الداعية المترعة مطواعـة ومقاومة معا، أسمع الصوت بخفوت، ولذة، بعتاب خفيـف كأنـه استزادة، بأنين كأنه من المتعة كأنه المطر.

أما زرعة القشطة الهندي فقد امتدت أصابعها الخضـراء المشرشرة، حتى في غمار النشوة، عددتها فوجدتها تسعة، كفوف عريضة لها شرايين داكنة الاخضرار تسـري فيهـا وتتشـعب، استقرت الأيدي الخضراء رقيقة الحواف مهتزة الأصـابع علـى بطنها الخمران وهي تضغط رأسه بيـدها علـى القبـة اللبنـة، برفق، ـ تريد له أن يغوص مع امتدادات النبات الذي جرت فيـه الآن رجفات مستقلة، فيغوص. وأطراف الأسبيديسرا شبه الحديد النباتي المصبوب صبا بين الجسمين الملتصقين، نازلة، متكاثفـة، مستدقة الحفافي صلبة الشكل، لكنهـا هفهافـة، شـديدة الدكنـة، متراكبة الورق.

أسمع هدير المدفع الضخم على السلسلة، في الشـاطبي، مرة واحدة، فيدوي الأفق بصد مليء مكتوم على حافـة الشـفق المصمت.

القمر ساطع على موج متراوح متناوب الزبـد، وشـبح السفينة بعيد، يسري بلا صوت، كأنما من غير محرك، من غيـر بحارة، من غير بوصلة ولا دفة، لكنه كأنما يعرف طريقه.

روح مسكوبة، نازفة، مفتوحة بلا أسوار.

غرابة التماس اللصيق الذي لا ينبع عـن دخيلـة هـذه الروح.

عين الجسد المظلم تطل على أفق خاص بها، وحدها.

لا أعرف هذا المس الحميم، هذا المسيس، هذه اللوثة إلا بانصباب نبع حنان مكتوم لا اسم له، وإن كـان نـزرا، وربمـا ضرورة له، لكن الجسد من غيره لن تقوم له قائمة. حنـو غيـر محدد بل شائع كماء رقراق منساب على الأرض.

سوف تقول له: لا يمكن أن أعرف الحب دون قدر مـن التفاهم والعطف الإنساني.

" العطف الإنساني" هكذا سوف تقول.

قال لنفسه: أي قدر يكفي. أي قدر يمكن أن يصـنع، أو يوجد، بلا تعب، هكذا عفو اللحظة، أليس كذلك؟ أين تعب المحبة؟

الجسر على موج الماء العميق، يذهب إلى وسط المجرى العريض، وينقطع.

أما سلسلة الحديد فقد كانت تسد الطريق.

تتعاورني الصور القديمة – وهل ثمة شـيء آخـر؟ - تناوشني وتراودني، تساورني وتغويني، وجود وجسوم أنثوية قد حققت في روحي أنا خلودها العابر، أو ثباتها على الأقل طالمـا بقيت، ديمومتها، متوقفة علي أنا وحدي، نجوم ساطعة في عتمـة الثلاثينيات والأربعينيات، فانتازيات لامعة على بطاقات رماديـة مصقولة. يجمعها رفلة أفندي من علب السجاير الورقية المقـواة البيضاء التي تفتحت – كصناديق باندورا – إلى أعلى، فتكشـف عن السجاير المبططة مرصوصة صفين على بطونها، لها عبـق نفاذ، مذهبة الفـم وعليهـا" جنـاكليس" بـالحروف الأفرنجيـة والعربية ... ذهبية اللون أيضا، وتحت الورقة الشـفافة – كأنهـا دهنية الملمس – البطاقة الهدية: نجمة –أو نجم – من هوليوود.

يحفظها رفلة أفندي في علـب خشـب" أرتيـك" رقيقـة محفورة بتجويفات منمنمة مرهفة على شـكل زهـور ونباتـات متفرعة مفرغة فيجسد الخشب الرهيف.

قضى رفلة أفندي سنوات طويلة مدرسا للجبر والهندسـة في المرقسية الثانوية في إسكندرية، وكان عزبا، وله شـقة فـي

محرم بك، ولم يتزوج إلا عندما كبر جدا، ولم يخاف وكان عندئذ مفتشًا ثم ناظرا في سوهاج.

" كان يقول لأمي بلهجته الصعيدية الإسكندرانية العذبـة الجرس:" يا مرة خالي" كانت أمه بنت عم أبـي، عرفتهـا فـي إخميم: امرأة صلبة وحاسمة تسد مسد ألف رجل، وتلبس طرحـة سوداء مهفهفة شفافة.

كان رفلة أفندي مدور الوجه، أبيض البشرة وناعما قليلاً، وله عينان جاحظتان شيئًا ما، تتألقان بالمرح، وسريع النكتة متدفقًا بالكلام، وله شارب مشذب ينزل من تحـت أنفـه بـين خطـين مستقيمين عموديين كشارب هتلر الذي تظهر صوره في اللطائف المصورة.

وكنت أحبه كثيرا.

كان يعزف الآن في الغرفة الداخلية، على العود، موسيقا " ليه تلاوعيني وأنت نور عيني" بشجاها الراثي للنفس المشـفق على آلامها، تتجاوب بخفوت في رنات لها صـدى – مـن وراء الجدران والباب المفتوح – من أشجان طفلية غير مبررة.

جمال وجهها الجليدي البللوري تقطعه عينـان نجـلاوان مفتوحتان على سعتها بكل رعب السينما المصنوع تحـت قبلـة

مستر فردريك مارش مستر هايد قبحه وتشوهه المدبر المحسوب، معد بعناية لكي ينفر، ويجتذب معا: مريام هوبكنس.

جوان كراوفورد وروبرت مونتجمري: نمـوذج ونمـط وحلم الشاشة البيضاء الرومانتيكية، الشعر المصفف بدقة، ليسـت فيه خصلة ولا شعرة واحدة غير مسواة، والنظرة الحالمة (أمـام الكاميرا) وصدى ابتسامة كامنة وهي تضع يـدها علـى ياقـة جاكتته العريضة وتسند رأسها إلى كتفه العريضة. هـو، الثقـة والأمان في وجهه الذي يعتمد عليه في ملمات العواطف، يتقبـل الحلم.

بتي جرايل، نجمة راديو، من البروفيل، شـقراء كاملـة الجمال إلى حد الهندسة، مقوسة الحاجب في خط تـام التـدوير، الشفتان الرقيقتان الناضجتان معا مصبوغتان تلمعـان بـالبريق، مفترتان عن طاب مرهف – لا يكاد يخفى – للحب، ثـم الأنـف المنحوت والشعر معقد البناء مركب الاسترسال محكم الانثيال ...

الطفل الصبي تستثيره" دائما فاتنات هوليوود المغويـات المصنوعات ببراعة، وورومانسيات البطولة أيضا الموزعة بمعرفة شركة جناكليس للسجاير المصرية الفاخرة، يعود الآن إلى غـيط العنب مع أمه في زيها البلدي، ملاءتها الحريرية اللاف المحكمـة

حول جسمها الرشيق الناعم والبرقع الشبيكة المخـرم الهفهـاف، بقصبته الذهبية المحززة على أنفها، يخفي – ويضيء – نصـف وجهها المشرق.

مع الصبي الطفل حمل هذه الأطياف الطائرة التـي لـم تغادره – أظنها لن تغادره قط حتى آخـر لحظـة فـي حياتـه: وبعدها؟ بفعل الكتابة تبقى ؟

هاه ...

قالت لي نايرة بالأمس فقط: أحيانًا أحس أنني بعيدة عنك جدا. عندما تنقلب فجأة إلى إنسان شديد القسوة. كأنك جراح .

قلت لها: أنا؟ أنا لا أعرف في نفسي هذه القسوة، أبـدا، ربما كان ذلك بفعل ما أفضل أن أسميه صرامة عقلية، أو نزاهة فكرية، أو أشياء عنترية من هذا القبيل.

ضحكت، وضحكت هي على التليفون.

كانت شوارع محرم بك هادئة ومظللـة فـي الغـروب. وهناك ربوة هينة الارتفاع، مرصوفة كلهـا بأحجـار البازلـت العريضة السوداء، دافئة، لامعة ونظيفة كأنها بلاط حمام، تنبثـق من بين شق في تدويرات البازلت الناعم أعشاب خضراء نديـة، مبلولة وشهوية.

وعلى قمة الربوة سلسلة حديد، ضخمة الحلقات، تمتد بين عمودين مدورين مغروسين في الأرض، لهما رأسان مفلطحان.

هل كانت السلسلة الحديد لتمنع مرور عربـات الكـارو وشطط أحصنتها الجامحة؟

أو لتعوق انحدار السيارات التي كانـت قليلـة ومربعـة الفوهات ولها رفارف تضع عليها رجلك قبل أن تفـتح أبوابهـا العريضة؟

أو لشيء آخر؟

كانت السلسلة الحديد المشدودة بين العمودين تسحرني.

في أحيان قليلة، ونحن عائدان من عند ابن عمتي رفلـة أفندي كنت أجد أن السلسلة الحديدية منزوعة من أحد العمـودين، ملقاة على أحجار البازلت، طريحة على الأرض بجسدها العضل الكثيف الحلقات، مستسلمة.

أما دولوريس داريو، عارية الظهر والصدر إلا من إكليل الزهور الاستوائية الباذخة، شعرها منفوش بقصد ومكـر، ومـن وسطها تنزل الجيبة المضفورة من قش النخيـل، فيحملهـا بـين ذراعيه الحانيتين القويتين جويل ماكري – عاري الجذع تماما – يدها مبسوطة على منتصف صدره تماما ويـدها الأخـرى وراء

عنقه، بتلك الحركة النسوية الشبقة التي أعـرف أثرهـا المـدمر الدافق في صميم حقوى، عيناها مسمرتان بعينيه، يحـدقان إلـى أحدهما الآخر بوله واستغراق، لا تستطيع تغيير مسارها المدفون في عمق عينيه، ولا يستطيع.

فرانسيس دي، شرقية الملامح تكاد تكون مصرية، قويـة الذقن لكنها حالمة العينين شاردة النظرة، شعرها الغنـي يعكـس أضواء البروجكتورات القوية فيبدو مثل موج الليل الخصيب.

أما ليان هايد الألمانية فهي" الربيع بأجلى معانيه" شقراء، باسمه، ترفع بسمة صافية عن أسنان لامعـة مكينـة، وعينـين صافيتين، إلى أزاهر مطاولة تونع وتنبثق مـن علـى تعريضـة مصنوعة الهندسة.

ونانسي كارول في ثياب البحارة، غلاميـة، مقصوصـة الشعر،، قبعة صغيرة أنيقة لا تكاد تخفي رأسها، سوف تـذكرني فيما بعد ذلك بكثير بقبعة زرقاء صغيرة أهديتها"رامة" في رومـا صباح يوم سفرها إلى برلين، وصلتها للمطار قبل أن أقتل التنين. هل قتلته أبدا؟ هل قتلته؟

كانت القاعة المنيرة الدافئة مزدحمة بالمشـاهدين، علـى الكراسي الخيزران المصفوفة، في غير راحة، أصوات احتكاكها

بالباركيه تندمج في لغط بهجة التشوف، أمام خشبة المسرح، كان الجو متوترا بالشغف والانتظار واستشراف المتعة الآتية. ولم يكن لي كرسي، وقفت مسحورا وقلق الجسم بجانب أمي في الزحمة بين النسوان، روائحهن النسوية تملأني وتدغدغني، أمد عنقي للمسرح الصامت المقفل على أسراره.

هل كانت جمعية الشبان المسيحية – أو كانت جمعية الشابات المسيحيات؟ - عندئذ في مكانها اليوم، في شارع عبد العزيز الهادئ الفسيح، بالقرب من شارع شامبليون الذي كان عندئذ أرستقراطيا، بليل النسمات مفتوحا أمام البحر، تصطف على جانبيه أشجار النخيل السلطاني، وترتفع على أحد صفيه – بعد تقاطع محطة ترام الأزاريطة – ربوة المستشفى الميري المرهوبة الجانب؟

الأضواء الحارقة على خشبة المسرح الصغير، الستار المخملي الأرجواني يرتفع ببطء ليكشف عن قاعة العرش الذهبية المهيبة، الملك في طيلسانه يخبط بصولجانه على الخشب، لحيته طويلة على صدره وعيناه تبرقان، بالغضب أم بالجلال؟

عشتار، السيدة الصغيرة الكوكب المشعة عروس السماء شجرة الآس، تدخل تجري مندفعة غير مأذونة وغير مطلوبة،

ثوبها الأبيض السابغ يتطاير حول ساقيها وهي تنطلق حتى سـفح العرش لتسقط أمامه جاثية، شعرها أسود منسدل على كتفين مـن الساتان، سوسنة الحقل، مصبوغة الشفتين الحادتين بحمرة قانيـة. ولكن في صوتها – عندما تكلمت – بحة غلامية، صدرها ناهـد مليء، هل هو أنثوي، أم لزوم التمثيل؟

كان الملك – في الأول – غاضبا، يستنكر بقوة وخشونة دخولها عليه دون إذن، لكنه أصغى إليها. قالت أنها صائمة، وأنها تصلي ، وتتضرع للملك تكشف له مؤامرة الرجل الذي ينـوي أن يعصف بها.

وكان مستشار الملك يقف على مبعدة قليلاً، شيخًا منتصب العود متهدل الشيبة، ممسكًا بعصا غليظة ذات عقد ناتئة .

ودخلت البنات الصغيرات، فراشات متطـايرة السـيقان يترنمن بالتراتيل، وبالشـكر ، بأصـواتهن الرفيعـة الثاقبـة، وجيباتهن الوردية المنفوشة تصعد وتهبط مع الأجسـام الضـئيلة الرشيقة .

ونحن ننزل السلالم – أمي الآن في فسـتانها الأفرنجـي السمني اللون وشعرها مقصوص آلا جارسـون علـى طريقـة كونستانس بنيت، تشبهها على نحو ما، ورفلة أفندي يمسك بيدي،

وباليد الأخرى يسند امرأة خالـه فـي نزولهـا علـى السـلالم المتحررة، والنور القوي يسقط على الإعلانات الملونة بـالأحمر والأخضر والأزرق – مرسومة ومصبوغة باليد، ومثبتـة علـى الحيطان بمسامير رسم كبيرة، وفيها صورة الملكة الراكعة أمـام عرش غائم الحدود لكنه مكين.

الشارع الصامت معتم قليلاً، وشبه خاو.

من النافذة، وأنا أشرب كوب الشاي ماسخ الطعم قلـيلاً، وأحس أنني لست موضع ترحيب، أرى قطار أبي قيـر يدقـدق ويهتز على القضبان خارجا من المحطة يستجمع طاقة متصاعدة، بصخب متصاعد، حتى أسمع وقفته، هامدا، يفح ببخاره المهدور على محطة الحضرة.

كنت قد جئت من القاهرة، فترة نهايـة الأسـبوع فقـط، وقررت فجأة أن أرى صديق رواق الصبا القديم الحميم، وزرتـه في تلك الفيللا التي لا أعرف الآن أين موقعها.

وفيق فتح لي الباب، فوجئ بزيارتي غير المنتظرة، وكان بالفانلة وبنطلون بيجاما مخطط، منفوش الشعر منـتفخ العينـين، وخيل إلي أن في غرفة النوم الداخلية أحدا، امرأة فـي الغالـب، لكنه لم يقل لي شيئًا، ولم يلح علي أن أبقى، عندما هممت بالقيام.

جاء قطار مصر منطلقًا لا يلوي على شيء أشم، رافـع الصدر، يهدر بعزم قوي. سمعت عن عربدات هذه الفيللا، حكاها لي وفيق في ساعة روقان ومرارة، وسمعت طرقًا من أبطالهـا، شخوصها، دماها: صديقي أحمد صبري الرسام، بلكنته التركيـة الفرنسية ومصريته الأرستقراطية البوهيمية معا، كأنه من عـالم آخر وإن كان ابن بلد، من هنا، جدا. فوزي المر سـاكن شـارع الإسكندراني قديما، مدرس الإنجليزي الذي ضاق صـدره بمـا تصور أنه اضطهاد منظم له – في ظل الثورة – وتحقير مضمر حينًا وسافر أحيانًا لعقيدته وأقليته، فهاجر إلى كندا، تبناها وطنًـا، على الكبر، وكان يدافع، بحرارة أكثر من اللـزوم قلـيلاً، عـن ديمقراطيتنا في كندا، ومات هناك. ثم إيهاب الحضري الضـخم، أسمر داكن الوجه، ملامحه خشنة قاطعة الحدود، وإن كان فيهـا سحر حيوية دافقة وخفة دم لا ينال منها شيئًا.

حكى لي وفيق حكايات عن فيللا الشـلة، بـلا مبـالاة، وزراية، وسخرية عاتية اصطنعها حتى استحالت فطرة وسـجية ثابتة.

كيف كانت النسوان – وحتى بنـات الكليـة وخريجـات الفلسفة والإنجليزي – يأتين إلى الفيللا، وحـدهن أو جماعـات، الهاويات والمحترفات على السواء.

تقفل النوافذ التي تطل على شارع – أو ممر – مهجـور تحت خط السكة الحديد، وتضاء الأنوار الحمراء – حتى في عز النهار – حسب أصول العربدة الموصوفة. وبالفعل كانت هنـاك في الفسحة الواسعة المفروشة بسجاجيد قديمة، ولكن فيهـا آثـار العز، نجفة مصابيحها القوية مصبوغة بالأحمر الكامد، واضح أنه من ألوان أحمد صبري وأنه صبغها بنفسه.

الضوء الأحمر – حسب المجرب المأثور – يهيج معاشق الأجسام المقهورة التواقة للجموح، مع براندي جناكليس الفـاخر الباذخ المذاق – الزجاجة كانت بـ ٣٥ قرشًا، غالية، لكن تستاهل – في سطوته تتصاعد سورات النشوة والاستهتار وضرب الـدنيا بالجزمة، تدفعهم إلى استغراق الحواس فـي سـمادير الهـوس، غضبا لا متعة، ورفضا للانصياع والامتثال.

من حكاياته أن صفية بدر العرب – خريجة الفرنساوي – كانت بعد أن تشرب وتنال حظها من اللعب، تنام علـى بطنهـا، تحت النور الأحمر، وكان أحمد صبري يرسم رسومات شـبقية

على ظهرها وردفيها بفرشاة رفيعة، بينما وفيـق يتلـو عليهـا الأشعار الماجنة، موزونة مقفاة، بالإنجليزي، لا يكاد أحد يسـمعه في وسط الضحك والصخب المستميت، فوزي المر مستلق علـى ظهره كأنه ليس هناك، يحدق في السقف أوفي بواطن خفية حتى عنه، بينما إيهاب يرقص حول الجثة الممدودة المرسومة رقصـة الهنود الحمر، ويطلق – ضـروري – صـيحاتهم فـي أفـلام هوليوود.

كلهم بعد ذلك أصبحوا محترمين – فيما عدا أحمد صبري الذي عاش ومات عبقريا – تزوجت صفية بأستاذ مصري يدرس الفلسفة بالفرنسية في طولوز وانفصلت عنه بالطلاق، بعـد لأي، وبعد أزمات عقلية وعصيبة – دخلت المصحة وأجرت التحليـل النفسي اللازم، وكله – وبعد ولـد وبنـت أصـبحا – طبعـا – فرنسيين، لا علاقة لهما بمصر إلا علاقة عاطفية غامضة، وحنين ربته فيهما الثقافة الفرنسية، وربما دماء عريقة، من يعرف؟

قال لي وفيق أن شغلتهم أساسا كانت اصـطياد النسـوان واستدراجهن إلى أحابيل النسيان، هكذا قال.

أين هذا من حكاية كأنها تماما من أحابيل أفلام هوليـوود في الأربعينيات، عن ضـوء القمـر الفضـي ونـور مصـابيح

الكورنيش البنفسجي الهادئ – في ١٩٤١ – على أمواج سـيدي بشر الحالمة المتراقصة بزبدها الأبيض، نجوى الحب الطـاهر، وأحلام الجزيرة النائية الخالية ليس فيهـا إلا الحبيبـان، كأنهـا الجزيرة المسحورة التي تحيا فيها – في عتمة صالة السينما، لمدة ١٠٠ دقيقة – حوريات مثل دوروثي لامور أو دلوريس دلريـو، مكللاً بعقود أثيثة من الزهور الاستوائية الضخمة، صفراء ساطعة وحمراء ناصعة تلتف بالجيد وتنزل على الصدر تخفيـه – هـل كانت الصدور عارية؟ - والجونلة ضافية حتى الأقدام الحافيـة، مصنوعة بحذق من جدائل رفيعة مضفورة من سعف نخل الجوز الهندي، الرومانتيكية كان قد عفا عليها الزمن، بسرعة.

" عزيزي.؟ وصديقي المحبوب ...

... ليس هناك ما هو أشد إيلاما للنفس الحساسة مـن أن تكتشف أشياء لم تكن تود رؤيتها في يوم من الأيـام ... هنـاك بعض النفوس ... لا تهتم كثيرا ولا تتأثر بما تصدمها به الحيـاة من صدمات متتالية، فهي تتقبلها في خضوع حيواني سـاكن ... وأذكر أنك في خطاب من خطاباتك الماضية ذكـرت لـي مـثلاً شبيها بذلك، هو" حمار السبخ" ...

أما تلك النفوس الحساسة اللعينة المجنونة ... فإنها تثـور لأقل شيء ويؤلمها أقل شيء وتوجعها أتفه الأشياء أليس كذلك يا عزيزي؟"

لماذا ألعن دائما كل ما أحبه؟ ألعنها باسـتمرار، ألعنهـا لآلاف الأحلام الهنيئة التي مازالت تعيش في، والتخابيـل التـي تدور حولها، هي فقط، والكوابيس المميتة التي تملأ وحدتي فزعا وتعذيبا، ألعنها هي، ليأسي أنا.

" اسمع يا صديقي! يخيل إلي أنني بسبيل أن أفضي إليك بأشياء قد تدهشك وقد أكون متسرعا في الإفضاء بها، فقد أكتشف فيما بعد خطأ فيها ... فأندم ... ولكن ذلك لا يهم طالما أنا بهـذا الكلام أسري عن نفسي ... بذكر هذه الأشياء، التي تؤلمني، فـي قلبي ... قسوة غريبة ...

يخالطها – وتصور الجنون – شيء من اللـذة الغريبـة الخافتة أنني مجنون يا صديقي ... ولم أنم أكثر من ساعتين ليلـة أمس".

ليس فيه عودة، ذلك البحر، وتلك التي معي همـا البـدء الذي لا يزول ولا تدور به دورة ما. والبدء أصلاً قـائم دون أن يكون ماضيا ولا حاضرا وليس له مستقبل.

هو الآن فقط. دون أدنى حس إنه الآن عصا سحرية قد محت عنه المستقبل الذي أصبح ماضيا فيما بعد والذي لم يطرأ قط بعد ما كانت معي. وكان هناك سلام، ونور الصبح الرائق.

وكانت ملامحها غير واضحة، كأنها تسبح في سحابة مشعة صامتة الضوء.

لم يكن مهما – ولم أتساءل قط، ولم يخطر لي أن أسأل – أبدا من تكون أعرفها تمام المعرفة، مطمئنًا وراضيا، وساجي الروح.

ليس للحلم زمن. ليس حلما، ليس هناك زمن.

عندما هب الهواء فجأة، منعشًا وأميل للبرودة، كان أدعى للتحدي.وعندئذ تخلل نور شمس الشتاء شعرها الأصهب المصفر، وسقط بوضوح على خصلة خفيفة منه مرفوعة على جبينها المدور، فاشتعلت بالنار. كان حاجباها عميقي السواد، وكانت العينان فاتحتين وصلبتين. فيهما شكة تخز القلب، تفيضان بإيحاءات استفزاز.

" بي رغبة أليمة في البكاء يا صديقي ... ولكن هذه الرغبة ذاتها تبعث في شعورا عميقًا بكراهية لا حدود لها ... وحقد عميق مخيف ... والمصاب ... إنني لا أعرف إلى أين

تتجه هذه الكراهية أو إلـى أيـن ينـدفع هـذا الحـق الأسـود المجنون ... لا جهة معينة ... ولا مصدر معروف ... إنها شـبه شيء مخيف ثائر مهول، يندفع في كل اتجـاه وكـل مكـان يـا صديقي ... دون أن يذهب إلى أي اتجاه أو أي مكـان، دون أن يتوقف لحظة أو يستقر ثانية ... وهو في أثناء هذا كله ... لا يني عن نزيف ممتد وزئير مخيف ... محطما ... مدمرا متقدا.

... أفكر في الانتحار كثيرا ... ولكن هل أنوي أن أنتحر حقًا؟" كنت قد قلت لا. هذا كفاية. لا يمكن أن يستمر هذا الألـم. كفى وقلت هذه بداية المهزلة الحقيقية، ربما، أو ختامهـا، لسـت أدري.

كان في جيبي ثلاثة قروش، وفي روحي مرارة وغضب وعزم معقود.

قلت يجب أن أتحرر، يجب أن أحطم الأسـوار، أسـوار الحياة نفسها.

كان ما وراء ذلك كله عدما كاملاً يبدو لروحـي راحـة كاملة.

قلت انطلق إذن انطلق، أخرج من وحل الألـم والحـب المنكور ووطأة الصمت.

ما أشد رهبة هذا اليم، وما أقوى دعوته وغوايته، عذوبته لا تضارع.

وسرت على الرمل المبلول متجها إلى هذا القبر الطـامي بكتل الماء الضخمة السوداء، حتى وصلت إلـى الشـط، وكـان تصميمي ثابتًا وكأنني في غيبوبة، وكانت أمامي خطوة واحدة.

أتخيل عالما كله لحظات حادة ولامعة.

كحد سكين

قاطعة

ليس فيه لحظات مترهلة مجوفة سميكة الجلد.

ليس فيه عجين حامض خمران.

أريده.

عالما لا يطاق.

"أفهمت شيئًا يا صديقي"

خير ألا تفهم ... ولكني بالرغم من ذلك أنتظر منـك ... بل أتوسل إليك أن تتكلم وألا تؤلمني يا صديقي، ولو دفعك هـذا إلى الكذب علي.

نعم لا تؤلمني ... فكفاني نفسي ...وكفـاني خيـالي ... وكفاني ليالي الطوال.

أين أنت الآن يا صديقي؟

إنني في حاجة مخيفة إليك يا صديقي المحبوب.

إنني في حاجة إليك أيها الملاك الهادئ النقـي البسـيط النفس والقلب.

يا إلهي ... كم يخيل إلي أنني طفل صغير يحبو ... وأنك لي أب حنون عطوف!

وكم أشعر بلذة غريبة لمجرد هذا الشعور.

تذكر يا صديقي ... أنني خلقت وحشًا وهو يقتلنـي الآن، رويدا فإياك أن تخاق أنت شيئًا ... فلتمت في سكون ... بعيدا ... في صحرائك الجميلة الهادئة بوحشتها".

وفيق

من يجرؤ أن يكتب الآن بهذه الحرقة، بهذا وفيـق غيـر المحكوم، بهذه العاطفية التي لا تخجل من نفسها؟

ومن يستطيع؟

الآن؟ في عصر ثورة المعلومات والتكنولوجيا العالية، في القرية الكونية الواحدة، في عصر الأقمار الصناعية، في عصر ما بعد الإمبريالية، ما بعد الصناعة، ما بعد الحداثة، ما بعد الحـرب

الباردة، ما بعد التوازن النووي، ما بعـد تفكـك الإمبراطوريـة السوفيتية، كأنما هو عصر ما بعد الحياة نفسها.

ولماذا ندين هذه الكتابة – أو ننظر إليها من عل؟ ألأننـا نخشاها، أو نتوجس من وخيم عقابيلها؟

ما شأن ذلك كله بأي شيء؟

وكيف أستطيع أنا أن أبعث هذه" الوحوش" بعـد نومهـا الطويل، وأن أخلق" رواية" كأنها هي نفسـها فرانكشـتين الـذي يتحدث عنه صديقي القديم. وحوش الكتابة الرابطة.

هاهو ذا" النص – الوحش" يعكف على ذاته، على مرآة لا نهاية لترداد صورته فيها. أعمدة الملح متكررة حتى المدى.

الملاك النقي البسيط القلب؟ صحرائي الهادئة بوحشتها؟

من؟ أنا؟

بعد طول تجوال هامة وصات، ويدي خاوية، إلى مرسى حجري، مؤقت جدا، عند تقاطع طرق متشعبة، وشـتى؟ أم فـي نهاية طريق؟

كأنما كانت هذه الكلمات استفزازا لي، واستنفارا لما هـو في – بالقطع، غير ملائكي، ولما أعيش فيه – بالقطع ... مما هو غير الصحراء الهادئة.

تبنيت هذه الكلمات تبنيا مضادا، بعـد أن عاشـت فـي داخلي، وليس فقط في أدراجي العتيقة، أكثر من خمسين عاما.

كنت أحب نوريس فخري الفخـور الشـامخة الصـدر، وأمرت من المرارة والوجد في ظلام الوحدة وراحتهـا السـرية، دون أن أقول لها أو لأحد كلمة واحدة، كنت رومانسـيا أعـرف شيلي وكيتس وناجي وابن زيدون ولا أعرف من التنين إلا ذهبه الأصفر الساطع في القلب مخايلاً في المستقبل المنـدثر البعيـد. وبالمناسبة اشترى لي أبي بدلة – شاركسـكين بيضـاء تتمـوج نصاعتها الحريرية المنسدلة بانسجام وكرافتـة حمـراء منقطـة بالأبيض وجزمة بيضاء على بني ذات نعل كريب عال ومـريح وطري، ينزل بي قليلاً عندما أخطو على الأرض كأنهـا خـف جمل. ولم أكن قد عرفت بعد أنه قد مات في آخر هذه السنة.

كان روميل قد توقف في العلمين، ولكننا كنا قـد مللنـا الهجرة إلى إخميم ودمنهـور والطرانـة، وقلنـا سـنبقى فـي الإسكندرية، خلاص، مهما كان الخطر. ربنا كبير. وكنت أمقـت الألمان كما أمقت الإنجليز سواء وقلت هم في البلاء سواء. فـي السادسة عشرة كنت صاحيا وليبراليا ونباتيا، ومن عشاق روسـو وقصيرى والسيرياليين. ولم أكن كبير الاهتمام بأخطار الأحـداث

في آخر هذا النصف الأول من القرن العشرين، كنت فقـط قـد حزنت جدا لسقوط باريس التي أحببتها من كتب أناتول فـرانس وزكي مبارك وأحمد الصاوي محمد وموباسان وكنـت أحلـم أن أعيش فيها معنى المعرفة والحرية، ولم أعرفها قط إلا بعد اكتمال العمر زائرا مشغوفًا يرثي أحلام صباه.

قالت لي أن المخبأ الواسع الكبير في عمارة التركي أمام كازينو كليوباترا كان باردا بالليل، وقالت أن تيته كانت ترفض أن تنزل للمخبأ وتقول أن العمر واحـد والـرب واحـد، وكـانوا يحضرون لها البطاطين ويلفونها حول جسمها الصـغير الرقيـق فكانت تهز رأسها الشفاف الأبيض وترضى أن تذهب معهم فقـط حتى لا تتركهم وحدهم. وقالـت أن السـت تيريـزا الطليانيـة وأولادها: البنتين والولد، كانوا يبكون بصوت مكتوم عندما تدقدق المدافع المضادة للطائرات، وأنه عندما يشتد الضرب كانت" أبانا الذي" تختلط بسورة الكرسي، والدعاء باليونانية والطليانية يختلط بيا لطيف بالطيف يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف، وأنـه عنـد انتهاء الغارة بالصفارة الطويلة المتصلة البهيجـة كانـت النـاس تضحك، وتصعد سلالم المخبأ وهي تكاد تسقط من النوم.

قالت أنه عند سيدي جابر تقوم صخرة كبيرة بعيـدا فـي البحر وكانوا يسمونها" صخرة مالطة" ويتسابقون فـي السـباحة إليها، وكانوا يعودون إلى صخور الشاطئ العالية البرية الشـكل، ويطاردون أبا جلمبو الصغير الأبيض الجسم الشفاف الأرجل، بأن ينقروا على الثقوب الصغيرة التي يأوي إليها في قلب الصـخر، يدفعون إليها بعصي رفيعة ترغم الحيوانات المذعورة الدقيقة على الهرب إلى الخارج، وإن من كان يجمع أكبر عدد منها كان لـه الحق في أن يكون سلطان اللعبة أو سلطانتها، وأن يملي شروطه.

حكاية خضبتها بدم قديم هبت عليها أنفاس النار اللافحـة مع سكرات عشق بائد.

كان موعد درس الرسم يزعجني، الثالثة بعد الظهر تماما كل يومي اثنين وخميس، كان معني ذلك أن أخلص بالكـاد مـن مكتب الترجمة وأسلم على الخواجة ساسون، وأقطع شارع سـعد زغلول صاعدا حتى محل بنيامين فأخطف سندوتشـين: فـول، وفلافل، آكل في الطريق الجانبي الذي تقع علـى قمتـه سـينما ماجستيك ويحفه السور الطويل الذي لم أعرف قـط مـا وراءه، وأنفذ من شارع السلطان حسين، فالنبي دانيال، فشارع فؤاد، وقبل

حلواني بودرو أعبر إلى الرصيف المقابل وأدخل إلى حارة واسعة وقصيرة، فيها البيت العريض المنخفض.

السلالم خشبية تتأرجح وتئز تحت قدمي، وعليها دائما تراب خفيف، وواطئة مريحة تدور في الحوش الكبير المدكوك بالحجر الأبيض الذي نعمته السنوات، ويغطيه سقف عال زجاجي مثلث الأضلاع، وقد بهتت ألوان الألواح الزجاجية وتحولت الصفرة إلى صهبة فاتحة، والزرقة إلى بنفسجي كامد والضوء يتقطر منها نزر فيه حمرة مكتومة.

قلت: ألوان الصبا، ما أشد قتامتها، وعنفوان نذيرها.

كنا أربعة في الدرس عند المايسترو أنطونيوني. أنا، وأحمد عزمي مدرس الإنجليزي في المدرسة المرقسية الذي مات في شبابه قبل أن تزدهر موهبته الحوشية، والأخوان مرادلي: إحسان الذي كان حتى في تلك الأيام مدورا سمينًا يتسايل شعره على جبينه وضحوكًا مقبلاً على النساء وطيب الحياة، وإلهام الذي كان موظفًا بمخازن وزارة المعارف العمومية في محرم بك، نحيلاً وأميل إلى السمرة والتأمل والانطواء.

أتخونني الذاكرة أم تصور لي خيالاتي شيئًا أكثر من أي"واقع" فعلي، أم أن هذا" ما حدث" فعلاً؟ (ما شأن ما أكتب هنا

بما حدث فعلاً؟ هل ما حدث أكتبه؟ وما أكتبه حدث؟ ثم ماذا يمكن أن يكون قد حدث؟)

ذهبت إذن إلى" المنطقة" (إدارة منطقة وزارة المعـارف العمومية، أليس كذلك؟) ولقيت إلهام مردلي.

لم أكن قد رأيت شيئًا من لوحاته، وإذا كنت مررت بهـا فلعلني لم ألق إليها كبير بال. لم أكن أظن أنه رسام كبير، أو حتى مهم.

صعدت سلالم رخامية متهدمة في بيت من البيوت التـي تشغلها الإدارات الحكومية بعد أن كانت سكن عز قديم، حميمـة. أخذت حيطانها يتساقط طلاؤها الجميل، وأخذت أشجارها القليلـة تذبل وتجف قليلاً وخشب الشبابيك الطويلة قد بهت لونـه، وفـي البيت أطياف ساكنيه القدامي، أشباح لم تركن إلى راحة بعد. كان منهم فتاة الروب الأزرق التي لم أعرف اسمها قط، وكانت تسكن أمام بيتنا في محرم بك، وكنت أحبها على البعد – عبر شارع لا عبور منه – (شارع بني مروان المتفرع من شارع عرفان) من شرفتنا التي تقابل شرفة بيتهم لم تكن تخرج إلا خطفًـا، تسـطع، جسمها ملفوف في الزرقة الناعمة الحريريـة، للحظـات. أظـل أترقبها طويلاً بالساعات، وما تكاد تشرق، ويمتلـئ العـالم بهـا

وهجا، حتى تئوب إلى الداخل الخفي عني، البيت المكنون علـى أسراره والحديقة بأشجارها الخلفية ونخيلها الذي لا يلوح لي منه إلا سعف متكاثف علوي. كان عندي أيامها ثلاثة عشر عاما.

كان إلهام مردلي يجلس وراء مكتبه المكـدس بالملفـات والأوراق في غير نظام كما يبدو، وطبعا لها نظام خـاص عنـد صاحبها، فيما أظن، أم أن لها نظاما، حقًا؟

وقف من وراء المكتب نصف وقفة، ومد إلي يدا وجدتها من غير قوة شد ولا حرارة لقاء، وجلس بسرعة.

كانت الغرفة معتمة قليلاً، هل كان الشباك القديم الطويـل مواربا أو مغلقًا؟ وهل كان المصباح الكهربائي العاري المدلى من السقف يسكب ضوءه الأصفر الشحيح في النهار؟ تتخايل لي الآن الملفات الكثيرة، مكومة ومكدسة وعليها غبار وأغلفتها رمادية من القدم، هل كانت ملفوفة، كل دستة مثلاً بدوبارة؟

خرجت من حارة الجلنار المزدحمة التي كنا نسكن فيهـا منذ سنين، وحيطانها المتقابلة تغطيها دائما مساحة داكنة الرطوبة صاعدة من الأرض، متموجة الخطوط. والرائحة الثقيلة التـي لا تنجاب عنها أبدا وتسطع في آخر النهار، محسوسة رائحة ميـاه الغسيل والمسح وبقايا الطبيخ وريش الفراخ وقشر السـمك التـي

تصب، ويطوح بها من النوافذ والبيبان والسطوح في أي وقت من الليل والنهار على تراب الحارة، فلا يجف الوحل أبدا حتى علـى الرصيف، ورائحة ما يتركه الأطفـال تحـت الحيطـان عنـدما يرفعون الجلابية ويقعدون فرادى أو جماعات، ويغيبـون لحظـة عن العالم في نشوة مستغرقة خاصة، ثم يثبون، وينطلقون جريا إلى صراخهم ولعبهم الذي لا ينقطع، حتى تلحق بهـم أخـواتهم البنات الأكبر قليلاً، يضربنهم على الرأس والكتف لكي يعـودوا للبيت.

كنت قد صحوت من نومة بعد الظهر المتـأخر، وكنـت بالبيجاما القطن وفيها خط مستطيل لامع، وصعدت السلالم القديمة بسياجها الخشبي الذي يلمع سواده من القدم ومس الأيادي. وكان معي" جمهورية أفلاطون" وأنا أطل من سور السطح على الحارة التي تتقلب في ضجيجها وروائحها ونداءاتها.

الست سنية زوجة المعلم أبو دراع العربجي، في البيـت المواجة القريب أمامي، من تحت. تطـل مـن النافـذة القديمـة المفتوحة، بصدرها الثقيل، مكشوفًا في قمـيص النـوم السـاتان الفضي الناصل النسيج المشغول بدانتيلا سوداء. كـان صـدرها مضغوطًا على قاعدة النافذة بلحمه الأسمر الزيتي، أراه من فوق.

وجهها يبدو منتفخًا، وعيناها ثقيلتان قليلاً من نوم بعـد الظهـر، فأضم بين ساقي صلابة استدارة غير مقلقة وغير ملحة .

في تلك السنة أجرنا كابينة في مصيف أصدقاء الكتـاب المقدس في المندرة. وكان للمصيف سور منخفض من الطوب من الطوب الأحمر حول أرض واسعة ناعمة الرمل. وكنت أحب أن ألعب تحت النخل العجوز العفي خشن الحراشيف، بـين الكبـاين الخشبية المتناثرة من غير نظام، وأن أنظر إلـى عناقيـد الـبلح الأخضر المدور تقريبا بغضارته الكثيفة تحت السعف العـريض، وهو يهتز بأطرافه الشوكية المسننة على زرقة السماء التي تكـاد تكون بيضاء. وكانت الفراخ تجري وتنق وتلقط أكلها من الرمـل تحت النخل وحول الكباين، ونقفل الباب الخشـبي فـي السـور، عندما نجري وراءها، أنا وأمي، لنمسك واحدة. وتـذبحها أمـي بالسكين الحادة التي تومض في الشمس، وهـي تقـول " باسـم الصليب، وشارة الصليب كاك كاك، إلهي يصبرك على ما بلاك " ثم ترمي الفرخة على الرمل تصفي دمها وهي تجري قلـيلاً ثـم تسقط وأجنحتها تتخبط بجسمها.

وكان أبي يأخذ حمام الصبح مع أمي، مبكرا جـدا قبـل القهوة، هو بالمايوه الأسود الطويل الطويـل كالفانلـة، وجسـمه

كالعود مشدودا، وله عضلات جافـة ونحيلـة. وهـي بالمـايوه القماش، غامق الزرقة، مقفل تماما، له أكمام قصيرة مكشكشة عند أعلى الذراعين وينزل إلى الركبتين، وكانت قد فصلته وخيطتـه بنفسها على الماكينة السنجر القديمة الرفيعة البطن التـي بهتـت الكتابة الذهبية عليها، قليلاً.

وأجري معهما، وأنا لما أكد أصحو من النوم، بالشـورت الأبيض والقميص الخفيف، نعبر الكورنيش اللامع السواد من أمام المصيف مباشرة، هواء البحر البارد بعد كن الكابينة ودفئها يصدم وجهي، والسيارات قليلة جدا في هذه الساعة، وننزل إلى الرمـل الواسع المتحدر، وليس فيه ولا شمسية، ولا أحد، وأقـف علـى حافة الماء وأنتظرهما حتى يعودا من البحر، وعلى ذراعي الفوط الطويلة كثيفة الوبرة.

كنت ذاهبا إلى الربع القديم في بحري، وقد استأجر فيـه قاسم إسحق شقة صغيرة، من غرفتين على السطح، ليهرب مـن مطاردة البوليس.

وكنت أمشي بسرعة بين البيوت المبتلة القليلة الارتفـاع، أحاذر أن أنظر، بشكل صريح، إلى المداخل المعتمة قليلاً المليئة بالنسوان، منهمكات في الطبيخ أمام مواقد الجاز التي تفح وتنيـر

العتمة بنور أصفر ثابت الاتقاد، أو متربعـات أمـام الطشـوت المعدنية يغسلن ويدعكن هدوم الرجـال والعيـال، أو محنيـات الرؤوس عاكفات على تنقية الرز في الصواني النحاسية في نور النهار على عتبات البيوت، وهن يرضعن أطفالهن، تـركن لهـم أثداءهن بحركة نسيان لهم وللعالم كله. وكنـت أحـس عيـونهن مفتوحة علي صاحبة لي في الوقت نفسه، متسائلة.

عندما عبرت الباب الضخم العتيق، عاليا جـدا. ورؤوس المسامير الغليظة مدقوقة في خشـبه السـميك، إحـدى ضـلفتيه مغروزة في تراب الحارة التاريخي، والثانية مسـنودة لا يمكـن تحريكها على حجر الحائط العريـق المسـود، فجـأتني رائحـة الرطوبة وبلل التراب في الفسحة الواسعة المعتمدة. كان زجـاج نافذة المنور العلوية، وأنا أرفع إليه بصري، فيه إثارة باهتة مـن ألوانه القديمة الزاهية، وتراكمات التراب الذي تكثف وجف حول حفافي الزجاج قد زحف وساح تحت مطر الأمس.

مررت بجانب العربة الكارو عالية العجلات، ذراعاهـا الخشبيتان الطويلتان مسنودتان إلى حائط بير السـلم، وصـعدت السلم الخشبي الحلزوني العريض، درجاته تضيء تحت قـدمي، خشبها قد اهترأ أو انبرى تماما وزال من المنتصف فـي بعـض

الدرجات، والدرابزين البلاط السميك المدور نعمته سنوات من مسح الأيدي ومسكها وتحسسها، يهتز ويميس كأنما يوشك على الانخلاع.

كانت إسكندرة، بنت خالتي لبيبة، كعروسة المولد.

صافية، خمرية، ملساء. عيناها واسعتان خضراوان، وشعرها الوحف ذهبي داكن. ولم تكن خالتي لبيبة، أمها، خالتي على الحقيقة، بل خالة أمي، ولكن إسكندرة كانت في مثل سني، يمكن، أو أكبر قليلاً. وكانت تلبس فستانًا حريريا، أبيض، مختصرا وواسع الحاشية، واسع التقويرة على صدرها، وكأنها لم يكن عندها غيره. وصدرها لم يكد ينبت، ولكنه، على صغره، ناهد، وقوي.

وكنت، في كل مرة، واجف القلب وأنا أزورهم في بيتهم في شارع نزيب، في غيط العنب، قريبا من بيتنا. أدخل من باب خشبي كبير، كأبواب المخازن، يفتح على حوش طويل كأنه حارة داخلية، فيها حنفية ماء سوداء غليظة الفوهة، قائمة من الأرض، عمودية، أمام مرحاض مبني من الحجر الأبيض الخام، وحده في الحوش، يخدم البيت كله، وقد نشع الماء في تموج قاتم يدور بحيطانه الأربعة، وتهب منه، دائما، رائحة خاصة نفاذة، تظلله

شجرة توت ضخمة، في الموسم تطرح حبهـا الأحمـر الأسـود الغض الدسم، وأحس أن في داخل جذعها العريض المفتول حياة خاصة وباقية.

ركنت على حائط الحوش عجلات خشبية عالية، هائلـة الاستدارة، مخلوعة من عربات الكارو الضيقة الضخمة، وصفائح مياه صدئة، وطشوت سوداء، وكراسي مكسورة الأرجـل، وأنـا أخطر بحذر وتوجس بين الكراكيب وبرك الطين المبلولة دائمـا، أمام ثلاث غرف متتابعة، أبوابها مفتوحة عن بوابير الجاز التـي تتقد وتفح تحت الطبيخ والغسيل، والستات اللاتي تـربعن علـى الأرض بلحمهن المنفرط وهدومهن القليلة المفتوحة عـن أفخـاذ مدموكة وصدور محصورة منبعجة أو متهدلة ساقطة فـي أفـواه الوضع، حتى أصل إلى غرفة خالتي – خالة أمي – لبيبـة، فـي آخر الحوش، جنب السلم الحجري الخارجي، الذي نصعد منه إلى سطح البيت، أنا وإسكندرة، ويأتي معنا، أحيانًا، أخوهـا زكـي، صغير الجسم، صموتًا، وثاقب العينين. نترجـى خـالتي لبيبـة لتعطينا مفتاح باب السطح، فتخرجه لنا من تحت رأس المرتبـة على سريرهم الوحيد، وكان مفتاحا حديديا طويلاً له رأس علـى شكل حلقة مفرغة كبيرة.

كان السطح هو الذي يسحرني.

كان مسورا من الخارج بالحجر، وطويلاً، وله باب رقيق الخشب باهت اللون نفتحه بالمفتاح الصدئ الكبير. وعندما يصر الباب، وينفتح، تفاجئني، كل مرة، تكعيبة العنب تغطي السطح كله، مورقة، ومظللة، وبليلة الأنفاس. والهدوء الساري، وخفوت كل ضجيج، والبلاط الأبيض. النظيف ليس عليه إلا ورق عنب جاف ساقط وجذاذات رفيعة يابسة من فروعه وتراب خفيف مكنوس. والنور تحت التعريشة اللفاء الممتدة خفيف كأنه خمر، وعطر الخضرة. وكانت رقرقة الهواء بين أوراق العنب المتربة قليلاً، المتدلية من التعريشة، واهتزاز حلقات الضوء المستديرة تلعب بها الشمس على البلاط الأسود بين الظلال الصغيرة المتراوحة، كأنها رنين موسيقا خافتة من أصابع كريستال بللورية طويلة متأرجحة، وفي آخر الصيف أشم سكر العنب الذي يستوي، مترعا بعصارته، على مهل.

كانت إسكندرة تأتي إلى بيتنا، قبل الأعياد وقبل رفاع الصيام لتشتري من وابور الطحين الذي أمام البيت نصف كيلة دقيق ناعم نمرة واحد، تصنع منه خالتي لبيبة الفطير الفلاحي

المشلتت على مرق الوزة أو ذكر البط. وكنت أصحبها إلى الوابور أساعدها في شراء وحمل الدقيق وأكون معها.

كان هذا المطحن يختلف عن مطحن راغب باشا الذي بعد الكوبري.

هنا كنا ندخل، أنا وإسكندرة، من فتحة صغيرة مربعة مقطوعة في جسم الباب الخشبي الضخم، نعبر فوق عتبة رخامية مرتفعة قليلاً فكأننا ننزل منها إلى عمق فسيح متموج الهواء معتم قليلاً، بعد الشارع بنوره الحاد، نجد أنفسنا في باحة عريضة عالية السقف، خافتة الضوء، يسبح فيها رذاذ الدقيق كأنه ضباب جاف وشفاف ورقيق جدا، وأرضها سوداء صلبة الحجر، ويقف، في مواجهتنا، في آخر الباحة، حاجز عال من السلك الأخضر دقيق الخروم وفيه ثغرة مربعة مقابلة تماما للشق المفتوح على الشارع.

ووراء السلك في حزمة من نور الشمس تسقط من فتحة مدورة مغطاة بالزجاج في السقف، تقوم الأقماع الحديدية الهائلة، جنبها سلالم معدنية مكشوفة مثبتة إلى الحائط بقضبان أفقية تنصب الأقماع في مواسير أسطوانية تهتز باستمرار وتدور حولها السيور الجلدية العريضة التي تدخل فجأة من شقوق ضيقة

مفتوحة على مقاسها تماما في حائط حجري، تقع وراءه منطقـة المحركات الخفية والمحظورة علينا. في المطحن.

كله تتجاوب أصوات الدق المتواتر الذي يأتي مـن وراء الحائط، منتظما، بقوة قلب معدني هائل، وخشخشة غربلة مستمرة متراوحة الإيقاع، ونشيش احتكاك الحبوب بسلك الشبكات المعدنية كوشيش الماء الساقط على شط خشن الرمل.

كان بيتنا الذي أمام هذا المطحـن فـي شـارع اللبـان مزدحما، ولكنه واسع فسيح مليء بالحركة والحياة.

لوحت لي وجوه الميتين بأيديها المنفصلة عنها من فتحات الرخام العالية، ولكنني كتمت روعي باحتمال طفـولي مـا زال معي، ولم أصرخ. بل أمسكت بيد أمي، بشدة، وهي تسير بسرعة ورشاقة أمام مبنى الملجأ اليوناني الذي يبـدو خاويـا تضـرب الوحشة جدرانه.

سحب بيضاء ذيول مفرودة لطاووس أبيض في السماء.

سماء الروح التي لا تريد أن تنطفئ.

تتلقى هذه السحب، دون توقف، طعنات ثابتة من الأعمدة الخرسانية التي تنتهي بشعث من الحديد المسلح متلويا ومعوجـا،

ضاربا في الزرقة البحرية الساجية لهذه السماء الإسكندرانية التي لا مثيل لها.

ظلت هذه العمارة سنوات لم يكتمل بناؤها، أوشك صدأ البحر أن يأكل قضبان الحديد الناتئة من أعمدتها وعوارضها الأسمنتية الضخمة المتقاطعة، التي تذهب إلى بعيد في غور ظلمات العمارة الداخلية.

نشط العمل الآن فيها، فجأة قلت لنفسي، وأنا أمر على الكورنيش، عند جليم، وهواء البحر القوي يصطدم بوجهي. ضممت ياقة معطفي الواقي من المطر حول وجهي متلمسا دفء الفرو الداخلي، والرذاذ يصعد إلي من خبط الموج على الصخر وكتل الحجر الرازحة مغطاة بالطحلب المبلول داكن الخضرة، تحت.

كان الصبح العالي مختبئًا وراء السحاب الأبيض، مازلت أحس أنفاسه، والشمس تتخايل تخترق الحجاب ثم تتوارى. أحس دفق دماء الشتاء الصحية في جسمي سعيدا سعادة فيزيقية بحتة بمجرد المشي السريع على الكورنيش في مواجهة الهواء، وتشوقًا للقاء أوديت في سكارابيه.

وأنا مع أوديت على حافة البحر أرتشف كأس" البـوردو" الأبيض، النبيذ مصفر، شاحب الزعفرانية في بياضه، أعرف الآن في فمي طعمه الحريف ناعم الحـدة، وأتلقـى طعنـة نظرتهـا، مكبوحة الغواية، تقول بهاتين العينين المصوبتين إلي، مالا تريـد النطق به.

كنت منذ أسبوع، أسبوعين يمكن، في قسم بـاب شـرقي أستخرج ورقة الفيش والتشبيه لتقديمها للنقابة.

ولما خرجت من مكتب الضابط النوبتجي أحسست بخجل قليل من نفسي. البيه الصغير له معاملة خاصة، بينمـا طـابور البطاقات الشخصية يمتد ويتلوى أمام الشباك بقضـبانه وفتحتـه الصغيرة، فوقه لافتة ورق أوشكت أن تبلى، بخط رقعة: المملكة المصرية، مصلحة العمل، ووراء القضبان يجلس الشاويش وراء ترابيزة موضوعة تحت الشباك مباشرة، مكرمـة بالاسـتمارات والطلبات على عرض حال دمغة والبطاقات الجديـدة. عرقـان، مكدود، ضيق الخلق، عليه أن يتعامل مع طابور صاخب بـالكلام والاستعجال والتزاحم والتدافع الخلفي تحت ستار حلو المجاملات. كان القانون رقم ١٢٣ لسنة ١٩٤٤ قد صدر وابتدأ تطبيقه منـذ قليل، على الكافة أن يستخرجوا بطاقـات شخصـية: الصـعايدة

الخالدين، عمال البناء الذين كانوا عندئذ أغلب من الغلب، لم يكن لهم وصف إلا أنهم يشتغلون في الفاعل، حفاة أقـدامهم العاريـة سوداء تقريبا، مشققة جافية الجلد على أسفلت القسم، والبيـاعين وأقفاص الجريد والمنشآت المرصوصـة بالفاكهـة والخضـار، موضوعة على الأرض على جنب – بعد إذن الشاويش الواقـف على الطابور ومعه عصا خيزران قصيرة، وقد تكرم بالإذن، بعد الشخط والنتر حسب الأصول المرعية، وبعد الحتة بنص فرنـك التي دست في اليد الغليظة، والصنايعية بعضهم بالعفريتة المزيتة وبعضهم بجاكتات كاكي من" الأورنـس" الإنجليـزي، والكـاب العسكري الطري المطبق دون شارات – هل قايضه أسير طلياني من وراء سور المعتقل بزجاجة سـباتس؟ - والأفنديـة بالبـدل الكحيانة والطرابيش التعبانة ليس لهم واسطة كما كان عندي مـن الأستاذ باسيلي المحامي بالنقض، إلا واسطة ربنا وحده.

ولكن ما يدهنني هو هذه المرأة في الطابور – لـم تكـن موضة الرجال في صف، والنساء في صف منفصل، قد اخترعت بعد، وكان كل واحد ودوره، أو شطارته، كانت تـدافع وتـزاحم كالرجال، جلابيتها السوداء تشـي بأصـلها، سـمراء محروقـة صعيدية الملامح وصلبة قائمة العود، يبدو أنها لن تنكسـر وفـي

يدها – التي أدهشني صغرها ورقتها ورهافة أصابعها على مـا يبدو فيها من جفاف واضح – ولد قلت أنه، من جسمه، في نحـو العاشرة مثلاً وإن كان وجهه – الذي يطابق وجـه أمـه تقريبـا بدكنته وصفاء خطوط عظامه تحت البشرة التي ما زالت نضـرة ترف بماء الصبا – يبدو أكبر عمرا. وفي عينيه نظـرة اقتحـام، وشجاعة، وصبر.

كانا قد سارا طويلاً، في الشوارع الواسعة الأنيقة.

جلسا أمام المتحف، على مقعد خشبي متين مدور الظهر، في آخر المساء البطيء يتلبث ضوؤه الكابي على حافـة السـماء التي تطعنها روافع برجية متقاربة ممدودة الأذرع، وسقوف مثلثة يبهت لون قرميدها الأحمر الداكن. السلالم الرخاميـة العريضـة شاهقة ولكنها مبرية قليلاً وعاجية البياض، ترتفع أمـام أعينهـا، بمهابة راسخة وثابتة وناعمة معا، تحت الأعمدة اليونانية المتقنـة الرشيقة، تيجانها مسودة النقوش، وفي مواجهتها صـف البيـوت الوقور العجوز الراضية بنفسها، نوافذها المتماثلة الطويلة مسدلة الستائر، الشارع خاو تمر به سيارات صامتة قليلة، والنور الكئيب يهبط عليه. عصافير آخر النهار تتواثب كبيـرة ثقيلـة رماديـة الصدر على السلالم الرخام وعلى تيجان الأعمدة، والحمام ينقض

فجأة من على سقوف البيوت ليلقط في أول العتمة حبوبـا غيـر مرئية تحت أشجار الساحة الصغيرة الكثيفة المورقة.

وقد صمتا، كلاهما، فلم يعد هناك الآن ما يقال. لكنهمـا كانا معا في داخل هذا السحر الصموت، نور آخر المساء يبعـث فيه مرة أخرى هذه الأشواق الغريبة التي لا يفهمها. نوسـتالجيا الصبا وسنوات أحلام الحارة داخل غرفته الضيقة ببيتهم القديم في راغب باشا، ضجيج الحارة المزدحمة الحيـة قـد خفـت الآن، ونافذته تطل على منور داخلي يقتنص قطعة من سماء الإسكندرية التي يزداد عمق زرقتها في نور هذا الغسق الذي سـرعان مـا ينتهي. كان عندئذ يقول لنفسه أشعار الشباب رتيبة الإيقاع، حزنها طفلي عذب مهدهد للجراح الأولى البريئة الساطعة وكانت الدموع حلوة ومرضية، أشواق هذا المراهق الذي لا يعرف أبدا كيف يبلغ سن الرشد تحبط قلبه بنفس قبضتها القديمـة، حنـون وتعتصـر أحزانًا صعبة. تأتيه من عبر مسافات السنوات صـرخة كـروان الغروب المفاجئة الثاقبة تشق السماء غير المرئية كأنها سكين. بلا إجابة، وهو يرى حمامة رصاصية اللون منتفخة الصدر، بطيئة، تثب بقدمها الواحدة المفلطحة التي ينبت لها ريش أبيض صـغير، على رخام السلالم، وترفع من على الأرض قدمها الأخرى التـي

لا جدوى، مكسورة. وهي تعرف بلا شك إلى أين تسير بخطاهـا المتقطعة الصبور العنيدة. وقال لنفسه: لا تراعي. دعك من هـذه العاطفية. هذا سهل جدا. حمامة مكسورة القدم؟ وما فـي ذلـك؟ أظنك ترى في ذلك أليجورية ساذجة ما؟ ألا تنتهي من الاستعارة والتشبيه؟ انقطعت عن كتابة الشعر من زمان، أليس كذلك؟

العصافير والحمام تدور في حلقات متجمعة، وتدف فجأة ثم تطير كالسهام إلى رؤوس الأعمدة، ولفائف ورق الشجر، لـم يعد يرى، من بينها، حمامته الثقيلة المليئة الصدر.

وعندما خرجا إلى ميدان المحطة، فجأة، شاسع الاتسـاع، كان الهواء يهب بهما باردا وعنيفًا، ويتطاير بأطراف جيبتها على ساقيها الممتلئتين، ويحسه ينفذ إلى صدره منعشـًا ولاذعـا فـي الوقت نفسه، فاقتربا وتلاصق ذراعاهما المتشابكتان وهما ينزلان بسرعة إلى الشارع العريض المستقيم وسـألها: نأخـذ تاكسـي؟ قالت: لا يا خبر، هل أنت نعسان؟ قال: أبدا، وضـحك بسـعادة وقال: لم أكن يقظًا أبدا مثل يقظتي الآن. قال: وليست القهوة هي السبب على الأقل ليست وحدها.

وهي لا تتوقف عن الحديث وهما ينحدران في الشـارع بخطى واسعة وتحكي حكايات. وقالت له كيف كانوا ثلاثـة مـن

شباب الحي في المنيرة يحبونها جميعا في وقت معـا، وتـذهب معهم إلى السينما وإلى نادي الجزيرة في عز مجده القديم: كنـت صغيرة جدا في العاشرة، يمكن أو الحادية عشرة، يعني عيلة، ما أزال، وليس هناك شيء، وهي تمر بيدها الأخرى، بخفة، علـى صدرها الناهض المستدير الذي يبدو متوهجا في الليـل المنيـر تحت البلوزة الخفيفة في الهواء البارد، وتضحك ضحكة قصـيرة خافتة قالت:" عندما ذهبت للمدرسة الداخلية هنا فـي إسـكندرية كانوا يرسلون لي الخطابات، ثلاثتهم، سرا عن طريـق صـديقة مشتركة تسافر للقاهرة كل أسبوع لم أكن أنا أسافر للقاهرة إلا كل شهرين أو ثلاثة تعرف، أبي كان مشغولاً بحكاياتـه ومسـئولياته المتعددة، بمغامراته التي لا تنتهي مع القصر والجيش والسياسـة والفن والنساء ورجال الأعمال.

" أمر على الديار، ديار ليلى ..."

فهل تنكرني الديار أن يستخفي بي عرفانها؟

سماؤها بلون الكوبالت الأزرق العميق في الغسق. لمـاذا يسحرني لون الغسق؟

أنذير الغياب والفقدان؟

أم نعومة التسليم لضياع الجسد الوشيك؟

أسمع سعف النخيل السلطاني على جانبي محطة الرمـل القديمة، يهفهف. ما زالت تخـايلني حتـى الآن. هـذه المحطـة القديمة، وكشك ناظر المحطة الخشبي المسقوف بالقرميد الأحمر الداكن، فيه دفء كفاءة مفقودة، واحترام الدقة التي ولى زمانها.

أجلس في" كازابلانكا" في الـدور الثـاني، وراء النافـذة الزجاجية العريضة. الغيم في سماء الصبح البدري ينزلق فـوق البحر البعيد، أنتظر بقلب واجف أن تعبر ليلاي.

ليلاي صغيرة الجسد، موسيقية الخطو، مرهفة الخصـر حتى تكاد تطوقها أصابع يدي، فستانها الأصفر الفاتح فريد فـي لونه ونسيجه وفي أناقة انسيابه على القد الرشيق الـبض معـا، ينوس على الساقين بسمانتيهما الممتلئتـين، كـاملتين فـي دقـة سحبتهما، كاملتين في دوران خرطتهما، إيقاع مشيتها عندئذ يتردد الآن في ساحة روحي التي أظنها قاحلة خاوية حينًا، وأراها حينًا مزدحمة مثقلة بكراكيب الذكريات وأنقاض السنين.

أما زلت أنتظر عبورها؟

وهي المقيمة.

لست واثقًا أنني سوف أرى الآن من تعز رؤيـاهن، بـل تستحيل.

بل أعرف أن ذلك لم يحدث.

أهذه شذرات ممزقة أسمع حفيفها من الداخل ولا أرى لها أثرا؟

مادلين، وميريام، بشعرهما المنسدل الطويل، متطـابقتين تقريبا في مشيتهما شبه الآلية التي تثير الجسم. ستيفو ذات الثديين الهائلين التي كان يحبها فريد إسكاروس، وظل يذكرها في المعتقل وهو يمص سيجارته الأبدية بين شفتيه الطـويلتين الشـهوانيتين. نيتسا تافانيوتيس ملفوفة في ثيابها المحبوكة دوما، أنيقة مفصـلة الأوصال، وادنه ولها مهابة الطول الممشوق والجديـة الخالصـة والأنوثة الموضوعة تحت تحكم عقل دقيق الحسابات. ثم أرتميس – آه من إلهة الصيد الجامحة الفاتنة – توقع بفحول الرجال، هكذا في خطوها، دون اهتمام، دون أن تلقي بالاً.

إيماءات الروح المبددة، تسقط أمامها أطـلال البوابـات الحجرية التي لم توصد قط، لكنها لم تكن قد فتحت قط.

أهذه ديار مازالت ارتادها، أم لم أعرفها قط، ولم تكن؟

وهل خطت رجلاي حقًا على هـذه السـاحات المظللـة بوارف الأشواق، أو هي مواقع أضمرها بعد أن حددها الأطياف

الأولى، لن تبين، لعلها لم تقم، لكنهـا تعـود، لا تتوقـف عـن مراودتي ومراوغتي.

أهذه ديار تنفيني، لأنها هي منتفية؟ أم تتغافل عني، عمدا، تستنفرني؟

زاد قديم محفوظ، ومع ذلك لا تبلى بكارته، يتقطر، يغذو النفس العطشى التي مهما رويت تظل صادية.

أيامها، بعد اندلاع الحرب بقليل، وبدء الغـارات، كنـت أعرف جان جاك روسو، كتبت عن جنيات وحوريات شيكسـبير في" العاصفة" وقرأت عن داروين وجوليان هكسـلي، وتغنيـت بأشعار كيتس وشيلي، وعرفـت المعلقـات والكامـل والعمـدة والحماسة، ودرست مستنسخات عن لوحات بنتوريشيو ورافاييـل وروبنز، ولكنني لم أكن أعرف سوق المسلة.

قالت لي أمي: تأخذ الترام من عندنا أمام البيت، يمر من راغب باشا حتى شارع الخديو توفيق، ثم النبي دانيال، ويحود في السلطان حسين حتى يدخل على الشارع الذي نرى البحـر فـي آخره، شارع المسلة، وتنزل في المحطة التي قبل محطة الرمل.

لكني تهت – أو سرحت، لا أعرف – وفضلت في الترام حتى شارع سعيد، ونزلت، وسألت، ورجعت. وعرفت أن شارع

المسلة اسمه الآن شارع صفية زغلول، وتذكرت وجه أم المصريين كما كنت أعرف صورته من المجلات القديمة، الوجه المكتهل الصبوح الوديع.

لماذا أحتفظ حتى الآن بهذه الأوراق التي اصفرت الآن ورقت، فيها هفات النزوات والأحلام القديمة التي لم تندثر قط، هبات شهوات الصبا الأول وغياباته، خيالات جسدانية دائما؟

من شارع صفية زغلول دخلت من ممر جانبي صغير جنب آخر محطة قبل محطة الرمل، إلى سوق المسلة.

بدهتني روائح السوق النفاذة الفاحشة: اللحم الأحمر المشبوح مصقول الجنوب وطري، والأضلاع المكسورة بالساطور بيضاء حادة البياض، زبل الطيور الطازج والقديم، نفح الفراخ المتميز الحريف. وكانت الديوك الرومي تقوقئ فجأة بصوت ثاقب مرتفع، سيقانها مربوطة بالأقفاص المستطيلة المصنوعة من جريد النخل الرفيع، بقضبانها المتوازية المتقاطعة، بينما ترتفع أعناقها السوداء باللغد الأحمر المترجرج والرؤوس مستدقة المناقير بشكلها البدائي الموحش، صوصوة الفراخ والكتاكيت البلدي وهديل الحمام وانفلات الأرانب فجأة من طرف إلى طرف في سجن الأقفاص.

السوق يتردد فيه الصدى، ويتجاوب الكلام والصياح، لأنه عالي السقف وحيطانه مكسوة بالقيشاني الأبيض النظيف، وجدت الجزارين في داخل أقفاص زجاجية أخرى، تحت اللافتات المكتوبة بخط ذهبي على أرضية المرايا:" تاوضروس وأبناؤه، لحوم خنزير" ورأيت وجه أبي من وراء الزجاج.

كان جالسا إلى مكتب صغير جدا تكدست عليه دفاتر الحسابات الضخمة، بورقها السميك الذي يبدو، حينما يغلق الدفتر، مقعرا إلى الداخل، بتقويس منتظم، ولونه أزرق خفيف فيه خطان رفيعان جدا بالأحمر.

كان طربوشه مازال مكويا حاد الكية، وجهه الناحل بعظم خديه الناتئين، ابتسم لي، بابتسامته العذبة. وكان مندى بعرق خفيف، ولكنه كان يلبس ملابسه الكاملة، القفطان الحرير السكروتة والبالطو الجبردين أسند عصاه الأبنوس، ذات المقبض العاجي الذي على شكل رأس صقر، إلى المكتب الصغير، وكان يراجع، ويحسب، رصة من الأوراق والفواتير وبوالص الشحن وإيصالات بضاعة السكة الحديد وحسابات تجار الجملة.

قال لي: ربنا يسهل ويعدلها، الليلة إن شاء ا ع العشاء تكون فرجت بإذن يسوع، ونجيب الأجرة.

وقال لي ست ورقة حمراء كبيرة لتحت: قول لستي وست الكل تشوحها وتوضيها مزة ع العشا.

كان أيامها يقضي النهار بعد النهار يلف في السوق، مـن غير شغل. فإذا جاءه الرزق من ربنا اشتغل، باليومية، بحسابات أولئك الجزارين أو تجار الطيور والسمن والحبـوب والبـيض، بدياته أو زملائه السابقين من قبل أن يخسر كل شيء في الأزمة. بل كان أحيانًا يعمل بالساعة،أو بالشغلة المحـددة، ليرجـع لنـا باللقمة، والمصروف. وكان دائما راضيا ودمثًا، وبشكل أو بآخر يدبر لنفسه كأس الكونياك أو العرقي، والمزة، يشرب مع أمـي، ويعزم علي وعلى أخواتي، أما أجرة البيت ...

كم تحملنا يا أبي – أنت، وأنا فيما بعد – من أجل لقمة العـيش، بشرف، حتى يعيش من نحب، فقط يعيشون، ولكن بكرامة.

وكم أنكرت نفسي – فيما بعد – بوهم هذا الشرف وتلـك الكرامة التي يظل يمتهنها الخنازير.

هذا الوهم الذي لا ثمن له في السوق، وربما لا محل لـه في هذا العالم.

بعد أن صلب المسيح، وطعن، وروي بالخل، وألبس تاج الشوك، وسخر منه العساكر الرومان وسفلة المتعصبين – وغفر لهم – من تلك التي تلقته بعد أن أنزل من على خشبة التعذيب؟

المجدلية؟

أم مريم الأخرى؟

من تلك التي تمسح ساقي المجهـدتين بشـعرها العطـر الغزيز؟ "الليل مملكة البوم والفئران والنساء".

ضحكات الصبيين الوحشية تقريبا، في فناء محطة مصر الواسع الفراغ الموحش، تتردد لها أصـداء إذ تـرتطم بالسـقف الزجاجي العالي والحيطان النظيفة، الساعة الرابعة وقطار سيدي جابر يدخل على القضبان اللامعة، صغيرة يدوي بمهابة، وترحب به صدورنا، ونصعد، ومعنا بنات مدرسة نبوية موسى الراجعات إلى الرمل، والطلبة يتبعونهن بأعين لامعـة مكتومـة الحيويـة، وهمسات المعاكسة الخافتة المؤدبة الحيية تقريبا.

قال لي وفيق: وله ... أنا عايز من ده!

في أول بعد الظهر، كان في الشارع الظليل تحت شرفاته وبيوته العالية الشبابيك نفحة من هواء البحر المبلول، وصمت بدء

القيلولة، وكانت دكاكين النجارين الذين يصنعون نسخًا من طـرز الأثاثات القديمة، وبائعي الفحم البلدي الهش، والمقـاهي البلديـة الصغيرة، قد هدأت كلها، وقد خلا الميدان الصغير، قـد هـدأت كلها. وقد خلا الميدان الصغير الذي تحيط به أسوار ضخمة حول ورش وكالات السيارات، تطل عليه من الناحية الأخرى شـرفات لها أعمدة حجرية صغيرة متقاربة، كالسيقان السمينة مـن غيـر أقدام. ومرا بجانب جدار سينما مترو المصمت بأبوابه الحديديـة المغلقة واختارا مائدة صغيرة في ساحة مقهى إيليت المكشـوفة، وأمامها على الرصيف الآخر محطة البنزين ومحـل لورانتـوس وباب سـانتا لرتشـيا الرشـيق ونوافـذه الزجاجيـة المسـتكنة بأرستقراطية خلف الأستار المسدلة.

قال لها: إيليت هذا كان مجرد كشك لبيع الجيلاتي، حينما كنت في الثقافة العامة سنة ١٩٤١، قبل التوجيهية. وكنا نخـرج من العباسية الثانوية، أنا ووفيق صاحبي، فـي طريقنـا لمحطـة الرمل، أو إلى البحر، في أول الشتاء، فـي شـمس إسـكندرية الناعمة الدفء ونقف هنا ونأكل جيلاتي. وعنـدما تمـر امـرأة ممتلئة بالرشاقة والأنوثة معا – كان معظمهن عندئذ يونانيـات أو ليفانتيات – كنا نقول لأحدنا الآخر" وله ... نريد مـن هـذا ..."

ونأخذ جيلاتي فيما يشبه الطقوس ونضحك. وكان الخواجة بنفسه صاحب المحل هو الذي يصوغ الكأس المنعشة البـاردة بـاللبن والشيكولاتة أو الفستق، وكانت كئوس الجيلاتي مدورة وصـغيرة ومصنوعة من ألومونيوم مفضض رشيق.

فنظرت إليه وفي وجهها شبهة ابتسامة لم تتكون بعد، ولن تتكون وفي عينيها لا مبالاة.

طلب من الجرسون اليوناني صديقه القديم والضئيل القد، المحكوم في جاكتته السوداء الضيقة بإحكـام أدب بائـد ودماثـة غابرة، بوجهه النحيل المثلث وعينيه القلقتين الصغيرتين. وجـاء طبق الجبنة المنوعة: الشرائح الصفراء الشفافة، والأصابع الكثيفة المحمرة، والمكعبات البيضاء المشققة الجلد، والسلاطة المرتفعـة بكرمة منسقة من أوراق الخس العريضـة الفاتحـة الخضـرة، وأرباع الطماطم مقطوعة اللحم نضرة ومتضرجة بدمها الصافي البهيج، وأمشاق الجزر الطويلة المستدقة الأطراف بلونها الرماني الفاتح، وفي قلبها استطالات لبها الهش النـاعم بلونـه الخشـبي الأبيض قليلاً، وعليها كلها ندى الزيت النقـي، ومعهـا زجاجـة الكيانتي المنتفخة البطن، زجاجها الرفيع تحتضنه برفق حصـيرة رقيقة من القش المجدول الطري النسيج.

كانت شمس بعد الظهر رطيبة بنسـيم البحـر، وكانـت صفوف التلميذات والطلبة والموظفين والموظفات تمر من أمامنا في اتجاه محطة الرمل، وعربة حنطور تنطلق فجـأة بسـرعة، والعربجي، قد وقف نصف وقفة على مقعده، يتحكم في الحصـان الأصب الثقيل الذي يجري في مرح وقد وجد لنفسه حرية مؤقتة في قلب شارع صفية زغلول. وكان تحت أقدامها على الرصيف جزر خشبية مرفوعة مدهونة بالأصفر وعليها أصـص نباتـات الصبار الغضيرة، قاتمة ومنتفخة وشائكة، داكنة الخضرة، تنفجر أجسادها بحشوها المزدحم بالعصارة المكبوتة، ومع ذلك فقد كان شوكها رقيقًا ليس فيه شر – وكان على فمه دون غرابـة حـس الشوك الدائم لا يخدش شفتيه بل يهدهدهما.

سقط معه مصباح الجاز القديم الطراز، بزجاجته المنتفخة البطن الطويلة العنق، وهو يسقط على الأرض، دون صوت. هل هذه هي الحصيرة الصفراء القديمة التي كانت على أرض غرفته، في بيتهم في غيط العنب، في سنين طفولته؟ يداه تتشبثان بالهواء، وقد انكسر بطن الزجاج، وتطايرت شـظاياه، خرسـاء، علـى الحصير. وسال الجاز ببطء. واسودت بقعة متطاولة الاسـتدارة على فتائل الحصيرة الرفيعة المضفورة برقة، والممسـوحة مـن

طول مس الأقدام وضغط الشلت ووسائد الجلوس الطرية. ارتطم وجهه بالألياف الناعمة المتلاصقة. ألم مفاجئ يطعن صدره وهو يفتح فمه المصطدم بالأرض فلا يند عنه صوت. أجنحة متسـعة المدى صلبة الريش تصطفق على جسمه لا يسمع لهـا خفيفًـا. وتدق الحيطان التي تضيق بسرعة وتطبق عليه. النـار البطيئـة تسرى بلون أحمر فاتح به حواش متراقصة تميل إلى لون قشـر البرتقال. ألم لا اسم له ينفضه ويرجه كأن أوصاله كلها تتكسـر وتسقط أحجارا حادة مشعثة الحواف، وكلابات التمزق تغوص في لحمه الحي. يخبط بقبضتي يديه على الأرض خبطات لا يصـدر عنها أدنى حس ولا صدى، عشواء متلاحقة في تصميم لا يجديه في شيء. زجاج النافذة يتزعزع ويصدر عنـه فجـأة صـوت ارتجاج متصل. أول صوت يسمعه بعد الصمت الطويل، ويسقط مرة واحدة في دوي متقاطر جارح الأصداء. الأجنحة الضـخمة ترفرف بخشونة حول رأسه وتصطفق بـدروع وثيقـة حديديـة الصليل، تقعقع. والرمح الطويل يغوص في سماء طينية. أبـواق النذير في نواح يأس تسقط فيه النجوم بين يديـه وتتفتـت بـين أصابعه. ابتسامة المتعة في وجهها الجميل تتفتح في قناع نحاسي صدئ، يتمدد وينسحق تحت الدروع. أمواج بحار العالم لا تمحو

المرارة التي في نفسه. ولا تمسح الألم الذي تتفجر به ضلوعه. زلزلة عظيمة تطوح به، وتتقاذفه حيطان الغرفة الضيقة التي احتوت السماء والأرض وقد أصبحت كلها خرابا شاسعا تهب فيه الريح. جدائل شعرها العسلي تتلألأ من الشمس، والقمر بعيونه الخضر يتقطر دما، أحجار الدموع تنحدر من عينيه.

الأختام السبعة مغلقة لا تنفك في هدير الزلزال، ولا تحطمها قبضة يده التي ما تني تخبط على مغاليقها. الفرس السوداء تشق السقف هاربة في هزيم حوافر سريعة منتظمة الإيقاع.

يهتف بلا صوت في عجيج الزلزال: يا ميخائيل يا رئيس الملائكة يا قائد المئين ...

ذراعاه تلتفان، باستماتة ويأس، حول أرجل مائدته القديمة التي طالما جلس إليها عبر سنوات طفولته وشبابه يدرس ويحلم. يرى بعينين لا تطرفان بلاطتها الرخامية البيضاوية، ويتشبث بسيقانها المتعرجة المشغولة من خشب أسود نخر فيه سوس قديم تحويفات صغيرة غير منتظمة، والمائدة تترنح تكاد تهوي، ثم تستقيم فوق رأسه وقد ارتفعت ألسنة اللهب برشاقة ودفء تلعق الجانب السفلي الخشن الرمادي اللون من الرخامة البيضاء.

ذراعاها الناعمتان الباردتان تحيطان بعنقه مـن فـوق ارتطـام الأجنحة الوحشية، فتهب من بينها نسمة راحة رخاء كأن ليس لها ثقل، يتوق لأن يمرغ وجهه المتقطع في طـراوة غوايتهـا. ولا يقول كلمات التعويذة النهائية التي تكرس سقوطه وراحتـه:" يـا ساحرتي أنا أستسلم لك". فلذات أحشائه لا تنتهب منها الكلمـات. لهب كاو لاعج مدمر، لوثة عذاب مس من مسـوخ الألـم، فقـد عايشها طويلاً، لا يمكن أن يعايشها دون عقاب.

في زمن آخر رأيتك، رأيت تقمصا لك، في منال، قـديما وغضا في وقت معا، على رمل المعمورة. وأمسكت بنفسي، فقد كان زماننا قد انقضى. الجبهة الضيقة، واستدارة عظـم الوجنـة الدمث، الساقان العضليتان القصيرتان المدورتان، عاريتان تحـت الفستان الصيفي الوجيز، بقدميها تفصحان الرمل الساخن بحركـة غائبة، تحت الشمسية المائلة، وعينين ليسا هما عيناك، وهما هما مع ذلك، بخضرة عميقة داكنة تحفران القلب، كالمعتاد. ذهبا وسط الرمل الشاطئي الأبيض العكر بنفايات الصيف الذاويـة الهشـة المبرأة: أعواد بوص لوحتها الشمس وذراها الهـواء، وأكيـاس بلاستيك ممزقة تتطاير وتستعصي على الذوى والتفتت، وقشـر بطيخ جديد مدفون نصفه الأخضر في الرمل. هذا الجسم الشـاب

الفتي في صباه الجديد لم أعرفه فيك، حدسته فقط تحت لحم الجسد الذي عركته وملأته وانحسرت عنه الشهوات والسنوات. وهذا الشعر القوي الوفير الخشن الملمس، تحت الشمس، أعرفه، بحرافته ووحشيته ونعومته وإثارته. وفي أصابعي، وعلى شفتي، بقية من ملمسه. هذه البنت التي نمت ليلة في فراشها العذري الخالي الذي كان يحتفظ بشبهة من نكهة جسمها. هذا المثول الفريد يكرر مثالاً غابرا وباقيا في عالم ما يزال، تمخضني ظلمات حبه واختناقات العشق فيه. وقد انقطعت عن عالم البحر والرمل والصيف ونفايات البورجوازيين الذين يقطعون على شاطئ المعمورة ساعات نهار ضجرة ومضجرة، تحت الشماسي الملونه، على الكراسي القماش المبلولة بين أصوات الكاسيت من المسجلات، ضائعة مبحوحة في هواء البحر ووشيشه المضطرد، والأولاد يملئون الجرادل البلاستيك بوشل قليل من ماء يذوب سريعا في حفر من الرمل قليلة الغور، وباعة الصحف واللب وحلوى السوداني والخبز المسكر الرقيق، والعقود الصدف، وتفاهات الحاجات المنزلية للمصيفين، الأكواب والأواني والمفارش البلاستيك السخيفة الألوان، وشمس الظهر القاسية على أجسام ملقاة في الرمل وفي الظل وفي الماء تبتل وتحترق ببطء

وسأم من غير راحة ولا متعة. وأنت – هي وحدك، إلى الوراء من سيف البحر وصف الشمسيات، بعيدا عن. زحمة الشاطئ الذي تأكل رماله أمواج عكرة مزبدة ومستأنسة، فقدت عرامتها وسطوتها، كأنك قد شغلت سياقًا زمنيا جديدا وأبديا. ضربت حولك هالة غير مرئية من شمس خفية تقطعك عن العالم وتجعلك بؤرة العالم، لأنك هناك تتمص عائد إلى قلبي ومنبثق منه، متعين وحده من غير وهم، فلا يمكن أن ينال، بل لا يمكن الوصول إليه. كم يمكن أن يكون الحب موجعا.

عرفت هيلين موسى، ولعلني أحببتها، وكانت طفلة، عندما كنا نزور خالي فهيم في شارع جانبي غير مرصوف، تحفه الأشجار العتيقة الضخمة من الجانبين، متفرع من شارع الجمرك.

وكانت سرايتهم على قمة هذا الشارع. عند التقاطع، تجاور الحيط في الحيط بيت خالي – الذي لم يكن خالي على الحقيقة، بل قريب أمي قرابة تعود إلى عائلة جدتي في شبين الكوم. ولم أستطع حتى الآن أن أتبين هذه القرابة على وجه الدقة. وكنا نزور خالي فهيم في عيد الملاك ميخائيل، لنهديه أقراص الملاك، التي تعملها لي أمي وتدهنها بزيت السيرج، وتضغط على العجينة بالخشبة التي فيها رسم صليب وكتابة بالحروف

القبطية. وعندما تخرج من الفرن، هشـة، مقرمشـة. فواحـة، محفورة بالرسم والحروف الغائرة في لحمها، عندئذ أعرف حقّـًا فرحة العيد، عيدي الخاص. ولست أنا مع ذلك ميخائيل، لا علـى وجه الدقة ولا – حتى – على وجه التقريب.

كانت سراي آل مرسي تقوم، بمهابة ومناعة، وراء سور حديدي عال مشغول، وتنتهي عيدانه الرفيعة المدورة بسهام مدببة مذهبة، ويحفها النخيل السلطاني الشامخ.

كنت أراها عندما نذهب لخالي فهيم بعد الظهريات، تلعب بكرة كبيرة وتنط بمرح، ضفيرتاها الطويلتان تتماوجان على ظهر فستانها القصير الذي يكشف عن ساقيها الـرفيعين السـمراوين، تحت نظرات – ورقابة – مربيتها التي تصورتها نمساوية مـثلاً، في اليونيفورم الأزرق الفاتح والكاب الصـغير علـى شـعرها المعقوص وراء مؤخرة رأسها على شكل كعكة. فهل هذه صورة من الذاكرة المراوغة؟ أم صورة من فـيلم مـن نـوع" صـوت الموسيقا"؟ هل أكرر الأكليشيهات المصنوعة التي تطبعها علـى أرواحنا شركات هوليوود المتسللة؟ أو أنني أحتفظ بقسمات حيـة تومض في ليل الصبا البائد الذي لم ينقض قط؟

حكت لي – عند عودتها – بعد ذلك بسنوات – أن أباهـا كان على علاقة وثيقة بالرسامين الإسكندرانية، على أيامه، أنجلو بولو، وكليا بادارو، وأرستيد بابـا جـورج، ومحمـود سـعيد، وهاجوب هاجوبيان، وأنريكو برانديني، وسيف وأدهم وانلي. كما كان وثيق الصلة بالسرياليين والتروتسكيين القـاهريين: جـورج حنين، ورمسيس يونان، وفؤاد كامل، وأبو خليل لطفي. وإيـزاك ليفي، وجو شلزنجر، وإيريك دي نيمش. كرت الأسـماء علـى السبحة، تحفظها عن ظهر قلب، كما تحفـظ التمـائم والعـزائم والرقي.

لكني لم أعرفه على وجه التحديد من بين جموع المعتلقين معي في ١٥ مايو ١٩٤٨، في أبي قير. لا شك أنني رأيته لكنـي لم أعرفه وسط جماعات الماركسيين من كل جنس ولـون مـن الأرمن والجريج إلى المصريين الأقحـاح، وكشـافة المابـاي، وشباب صهيون، واليوغوسلاف الهاربين من حكم تيتو، والروس البيض. قالت لي أنه أفرج عنه بعد شهور قلائل بعد أن رفـض السفر والترحيل إلى الخارج من المعتقل مباشرة، ثم اعتقله عبـد الناصر مرة أخرى في ١٩٥٦. ومرة أخرى رفض أن يوقع على كل أنواع الالتماسات والتنازلات والتعهدات، حتى رحـل بـالقوة

الجبرية، ونقل من المعتقل إلى الباخرة" الجزائر" التي حطته فـي مرسيليا حيث منحه الفرنسيون اللجوء السياسـي، ثـم الجنسـية الفرنسية.

قالت هيلين أنه عندما نزل إلى رصيف مارسيليا، قال لها أنه لم يره من وراء سحابة الدموع التي لم يملك أن يحبسها. وأنه بكى مرة أخرى.

عندما تلقى جواز سفره الفرنسي. قال لها أنه عندئذ فقـط عرف معنى المنفى، الانتزاع عنوة من أرض الوطن .

هل هذا مشهد مؤثر متوقع ومنتظر في هذا السياق – إن كان"مؤثرا" من الأصل؟ أو أنه قد حدث بالفعل؟

قلت: ما دمت أحكيه فقد حدث، بالفعل.

وكان ثدياها الصغيران ينسكبان، بحرية من ثوبها الواسع الفضفاض، عندما تنحني ثم تعتدل على الفور، كأنها أحسـت أن هذا لا يصح أن يحدث، هنا. وعندما تنحسر ملابسها عن سـاقين طويلتين – مازالتا رفيعتين، ولكنهما امتلأتا الآن بشباب الأنوثـة غير المتورع وغير المكبوت – كانت تسارع بتغطيتهما، بحركة مألوفة عند معظم البنات المصريات، وبالأخص الإسكندرانيات.

كانا يجريان في المشهد الليلي يفتحان طرقًا لم تطأها قدم، بفرح الشباب الجديد.

الشارع الضيق الممتد يشرئب إلى أعلى بقوة. ملوءا بطاقة مكبوحة ولكن متأهبة. يتجهان ناحية البحر، بحدسان جيشانه وجلاله ومناعته، تحت ... أما إلى يسارهما فيقوم سور معسكر مصطفى باشا، سدا مرتفعا مصمتًا أحجاره الضخمة مغلقة على صرامة غير معروفة، على روح ثقيلة من فيالق الرومان الأمبرطورية في نيكوبوليس القديمة، وعسكر بونابرت، ومدافع الإنجليز، ومعتقلات الأسرى الطليان، وغموض ثكنات الجنود المصرية. لكنهما يجريان تحتها، نحو تفتح البحر في نور الليل، يشقان الطريق الصاعد الطويل، هواؤه مبلول، إلى نجوم قليلة ونصف قمر شديد السطوع. وإلى اليمين حدائق البيوت المقفلة بأركانها المتينة البناء وشرفاتها الحجرية، على الطراز الفرنسي النيوكلاسيكي، بيضاء في القمر، وبرج كنيسة إنجليزية الطراز مفاجئ الارتفاع، من بين كثافة أشجار الكافور والنخل الهندي الملوكي بسيقانه البيض الرشيقة، ونباتات الخبيزى الأفرنجي الوارفة الغضة، تترامى على الأسوار الحديدية المشغولة بأناقة، تومض من الرطوبة وتتنفس عمق الخضرة الشتوية الغامضة.

عندما وصلا إلى أعلى شهقة في الطريق وبـدأ ينحـدر تحت أقدامها، ظهرت أمامها، من تحت، رؤوس أعمدة النور على الكورنيش، مصابيحها بيضاء النور، ثمرات مستضـيئة متقاربـة على أغصانها القائمة الحديدية، تحيط بها هالات مدورة مشعة من الرطوبة.

جذبته إليها فجأة، وهي تجلس على الرصـيف بأحجـاره البازلت الأسود المحبب الندي قلـيلاً، وارتفعـت ركبتاهـا فـي جلستها، مدورتين عاريتين مشدودتي اللحم علـى عظـام مـن جرانيت وردي حي، وهو ينظر إليها، في لحظة توقفـه قبـل أن يهبط إلى جانبها. كان شعرها مسـرحا إلـى الـوراء، ممهـدا، مبسوطًا على رأسها، ملتفًا بها وجهها ناعم، وحاجباها دقيقان. من تحت عينيها المرفوعتين إليه، فيهما بـراءة واسـتغراق، تعبيـر أبيض مغسول طاهر، كأنهما تنظران إلى شيء مـا، ينبـع مـن داخلها، رائع وفسيح ولا وصف لـه، داكنتـين الآن، شـديدتي الاتساع والدوران. وعظام خديها رقيقة. وجه امرأة كأنها بنـت، عذري، حليبي.

وأخذت تغني له، مرة أخرى، وفي داخل علاقتهـا بـه، همسا. أنفاسها مازالت متداركة، ولكن محكومة، بصوتها الخشـن

الجريح، له بحة لدنة: يا ريس البحر خدني معك أحسن لي، أتعلم الكار يوسع البال أحسن لي، خدني، نوتي أشد البان، أحسن لـي. وكانت يداها في يديه عجينة متماسكة خمرانة، وغناؤها الغـزل الخفيض قد ثبتت أنفاسه، تهدجه الآن ليس من الجري بـل مـن شوق جسدي فوار: يفوت علينا الهواء يحايلنـا، ونميـل عليـه، وتطير جدايلنا، يفوت علينا قصده يميلنا، وإن مالت الدنيا ما يقدر يميلنا ...

قال: في هذه القصة كلها، رومانسية ضرورية، قاسـية، صلبة.

قال لها: كنت أراك تلعبين بكرة كبيرة في حديقة بيتكم في الجمرك، من وراء السور الحديدي ذي الأطراف المذهبة، و"نناني" ترقبك بصرامة، هل كانت نمساوية؟

دهشت قليلاً – وسعدت قليلاً – عندما قالت لي أن أباهـا كان يأخذها – هي أيضا – مع أختها الكبرى كاترين، إلى المكس. كانوا يقضون اليوم في الكازينو نفسه الذي كان يأخذني إليه خالي ناثان، ربما قبل ذلك بسنوات قليلة. ذكرتـه – وهـل ينسـى؟ - بالنوافذ الزجاجية المربعة الكثيرة المطلة مباشرة على مرج البحر الصخري المزبد. قالت أن زجاج النوافذ هذه كان يسحرها، سميكًا

مضلعا، حوافه مصقولة ترق وتخـف عنـد الأركـان الخشـبية الأربعة، حتى يمكن أن تدخل في حزوز القنوات المحفورة لها في الخشب، وقالت أن أباها كان يشوي البوري والمياس والجمبـري في الفرن القريب. يمسح لحم السمك الطري بالزيت، ويلفه فـي ورق زبدة، بعد أن يتبله بالبصل والملح والفلفل وطبعا الليمـون والزعتر وورق الغار، الذي كان قد أتى به معه من البيـت. وأن السمك كان يخرج من الفرن طريا وشهيا، تحت جلد قشرته التي كانت تقب وحدها سهلة الانسلاخ، كان لحم السمك أبيض خفيـف الاحمرار، يشر بدسمه الطبيعي، فواح.

ضحكت للذة الذكرى، لذكرى اللذة البائدة.

قلت: هل نحن شركاء في جريمة واحدة؟

كانا يقفان تحت عمود دقلديانوس، عمود السواري.

قال لها: انظري إلي هذا الجمال. كيف يمكن أن يكـون الصخر وردة سامقة لا تنحني، والجرانيت فيه شبق الجسد الغض المستدير؟

قالت: أليس من السهل أن تقول أنه بديل قضيبي؟

قال: سهل ولا معنى له. حذلقة أو سفسطة إذا شئت. لا. إنما أنا أفكر في روعة وبشاعة وحتمية آلاف، مئات الآلاف، من

أجسام أجدادي الذي يقوم هذا العمود على عظامهم. هذا الجمـال بكل قسوته، ذهبت أجسام الشهداء طعما لـه. هـؤلاء الأقبـاط، بعنادهم العقيم، وأقول المجيد؟ ما الجدوى؟

قالت: الاستشهاد لا يبحث عن جدوى، بطبيعته.

قال: أما نحن فنبحث. نحن الذين لم نستشهد بعد. نحـن الذين شهادتنا معاناة غير مسطورة على حجر، ولا مذكورة فـي كتاب. كان عنف رده لطمة، ليست لها.

كانا قد ركبا التاكسي الإسكندراني الأصفر الفيات القديم، بمقاعده الصغيرة المطوية، والحاجز الزجاجي العتيق فيـه ثقـب دائري يصل مؤخرة السيارة ومقدمتها، ويغلقها إذ يجـر عليهـا نصف الفاصل المتحرك ووضعت يدها تحـت فخـذه، فأثارتـه. ودارت من على جانبيهما أطلال كرموز وبـاب سـدره وكـوم الشقافة، الشوارع التي كان يعرفها في صـباه واسـعة مورقـة الشجر، يجري فيها الترام مصلصلاً بجرس بهيج علـى الأرض المرصوفة بالبازلت اللامع النظيف. أصبحت ركاما من البيـوت الرثة المتقاربة، وضوضاء المرور المتزاحم الضيق بالسـيارات وعربات الكارو واللوريات المثقلة ببالات القطن والمتجهة بـبطء نحو مينا البصل والقباري. وتلاطم مواكب مختلطة من الرجـال

والنساء والأولاد، بالقمصان والبنطلونات والبيجامات والجلاليب والملايات اللاف القليلة والفساتين وقمصان النوم الخفيفة المتغضنة، باللاسات والمدورة البلدي والعمم والطوافي، بالشباشب والقباقيب والكعب العالي والزنوبة التي تطرقع على الأرض، والقليل منهم بالسراويل الإسكندراني السوداء المنتفخة بفخر واعتداد.

نظر إليهما حارس الآثار العظمي الوجه، بجاكتته الصفراء الحائلة وعينيه الملونتين المتسائلتين الضيقتين، من داخل ظلمة الكشك الأخضر الذي تقشر طلاؤه عن الخشب القديم المتين – من أيام الإنجليز – وسقفه الهرمي الذي تساقطت من جوانبه قوالب القرميد الأحمر الداكن وأعطاهما تذكرتين، قائلاً: توريست؟ جايد، جايد، ولكام مام نيدوان جايد؟

قال: لا ياعم. صل على النبي. نحن أولاد بلد.

قال بخيبة أمل طفيفة، وسرور حقيقي مع ذلك: أهلاً وسهلاً، شرفتوا، زارنا النبي.

قالت له: تتصور، كان هذا العمود مسلة من جرانيت أسوان، أقامها فرعون من سلسلة الفراعنة التي لا تنتهي، أظنه سيتي الأول أو الثالث، لا أذكر الآن.

قال: كيف سوى أجدادنا حدوده القاطعة المثلثة، وصنعوا منها هذه الاستدارة الكاملة النعومة، الكاملة الرشاقة، الكاملة الجلال؟

في عاصمة العالم، مدينته المسحورة اليونانية القبطية، برهبانها، وتجارها وبهلواناتها، ممثليها ومغنيها وصناعها، بطاركتها وبغاياها، غوغائها وغوانيها وخوذاتها، مكتبتها الواحدة الوحيدة غير المتكررة وحماماتها بالآلاف، كنائسها السرية تحت الأرض وأعمدة معابدها الرخامية الصقيلة، عذاباتها ومهرجاناتها، السيرك والمنارة والمسرح وهياكل جوبيتر وزيوس وآمون المذابح في الساحات والمحارق ومعاصر النبيذ وصوامع الغلال الذهبية، وأشرعة السفن المبسوطة والمربوطة بالحبال في الميناء الشرقية، والفلول الباقية المطاردة من كهنة الدين العتيق، وشهداء الهرطقة اليسوعية الجديدة، وفلاسفة اليهود وعلماء الجغرافيا والطبيعة، والشعراء ما يزالون يرصعون اليونانية القديمة بصياغات وزخرفات لا حياة فيها، والناس الناس الذين لا اسم لهم بجموعهم الغفيرة التي لا تنتهي أبدا، يأكلون ويكدون وينسلون، ويزحفون ويمتعون بشهوية ويتمزقون بشقاء لا يوصف، ويموتون بلا أهمية، لا يعرفهم أحد ولن يعرفهم أحد.

قال لها: في عاصمة العالم، أقاموه، على عظام الشـباب والخيل في مقبرة كاركالا.

قالـت، وقـد اقتربـت منـه بجسـمها ووجههـا: يـا إسكندراني ... يا متعصب ...!

قال لها: تعرفين أنني، هنا، في السيرابيوم تحـت، منـذ خمسة وخمسين عاما ربما، وثبت فوق بئر مستحيلة، لا قرار لها، وعبرت، طفلاً، إلى ساحة منيرة، وطرقت ممرات منقـورة فـي الصخر، وأحسست هناك بما يشبه الحرية!

قالت: نعم، حكيت لي.

قال الرجل: متأسفين وا . النزول تحت ممنوع. الميـاه طافحة.

قال: المجاري تاني؟

قال الرجل: ا أعلم. جاء مهندس مـن شـهرين، ولـم يرجع.

سألته: ومتى يفتح؟

قال الرجل: ربنا يسهل.

كان العمود أقل ضخامة، وأقصر، ممـا كـان يتـذكره. والتراب على قاعدته المربعة العريضة وأبو الهـول الصـغير،

تحته، يبدو لا مكان له، أو هو في غيـر مكانـه، كـأن موقعـه الصحراء العريضة المترامية الموحشة، وحدها. وكانـا يـدوران حول القاعدة، والتمثال، على الرخام الواسـع المكسـر القـديم، يتجنبان الاصطدام بأنقاض وأحجـار صـغيرة متنـاثرة حـادة الأطراف، لم ترفعها أبدا منذ زمن طويل. إكليل العمود بنقوشـه الرومانية والبيزنطية غير الواضحة، يسبح في السحاب الأبيض المهلهل النسيج، يتحرك بسرعة بين قطع السماء الزرقاء الصافية التي تأتي وتتراجع، وفي الهواء النقي المبلول رائحة تراب مقابر المسلمين الشاسعة المزدحمة.

قال لها: أين نتعشى؟

قالت له: أمرك يا حبيبي. لا أعرف أنا. هذه مدينتك.

كانا، في الوحشة، يعرفان ساعات صغيرة مـن الأمـن وهدوء الحواس واستنامة مسوخ القلـق، بعـد عاصـفة شـتوية وجيزة.

ونزلا إلى الكورنيش،فسيح السماء، مصـطفق المـوج. وكان المطعم خاليا، وزجاجة تغطية من الخارج طبقة من ضباب رطوبة البحر، تلعب فيها انعكاسات الأنوار بإشـعاعات رقيقـة زرقاء حمراء. متقلبة ومراوغة. وكان للجمبري المشوي والنبيـذ

الأبيض الجاف طعم جديد، وكان حديثهما قليلاً، ولكن من غير توتر ولا ترصد، وصدمات المياه بأحجار الأسمنت المربعة الضخمة تحتها لها صدى مكتوم، فيه إلحاح متكرر ومخدر قليلاً، وهما يتطلعان إلى أشجار صنوبر يهزها هواء الليل على الجانب الآخر. ويحسان أنهما وحدهما، ولا يحتاجان لشيء، والسحب بيضاء تجري على صفحة البحر الداكنة، ونصف القمر ينزل من وراء القلعة البعيدة التي تبدو صغيرة وسوداء، كأنه قطعة صفيح مكسورة باهتة، تنقلب وتغوص.

قال: لم أعرف نشوة السعادة التي تطير بالقلب وتتجاوز الحواس إلا في أيام الكشف الأولى التي لا يمكن أن تعود. عندما تفتحت أبواب قديمة موصدة عن ساحات من الخفة والسكر المتقد الصاحي، لم أكن أعرف أنها موجودة في العالم. عندما كنا نسير معا في الشارع الخالي بالليل، ثم قبلتني على فمي فجأة ومن غير روع ولا تلهف، من تلقاء نفسك، في نزوة عفوية كلها حنان وعرفان، تختم على شيء قد اكتمل وتبدأ رحلة لا نعرف إلى أين تفضي.

كان العمود يبدو الآن بعيدا، والشهداء شيئًا ضروريا، عندما أمسك بيدها، وقال: نعود؟

كيف ينحسر الزمن، لا يوجد ولم يكـن موجـودا قـط. والبراءة الأولية هي القانون.

في جوهر من الكينونة لا أثر فيه لمـا مضـى، لـلآن، وللمستقبل، أنا معها في قهوة على الكـورنيش، البحـر الأزرق النقي وزبده الأبيض الهادئ بلا صوت، كالصبا، حي لم يندثر ولا انقضاء له، وصاف مثله، ليس فيه إيماءة لما جاء بعـده، ولـيس قبله شيء.

" وأيضا جعلت الأبدية في قلبك"

في ساحة محطة مصر الفسيحة كانت عربات الحنطـور السوداء المنتظرة تحمل معنى معلقًـا غيـر محسـوم، مواكـب الوصول والرحيل معا، الأفراح والمآتم معا، ورائحة بول الخيـل النفاذة من البرك الصغيرة لونها أصفر راكد في الشمس.

كان صوت المطبعة اليدوية يأتي إلي وأنا أذرع شـارع محرم بك. صلصلة الذراع الحديدية السوداء التي ترتفع وتنخفض بدقات مكتومة رتيبة، أراها من وراء الواجهة الزجاجيـة التـي عرضت فيها كتب الهندسة والحقوق، وفجر الإسـلام وضـحى الإسلام، والاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية من ترجمة راشـد البراوي، وعند قهوة الإسكندراني، انحرفت وليس في ذهني هدف

معين، قلت أطلع ربما أرى حسن محمد حسين، وربما نزلنا وذهبنا إلى سينما بلازا في شارع فؤاد، وعددت القروش القليلة في جيبي، ونسيت فورا كم كانت.

عينان ذهبيتان في محطة أوتوبيس، وهياج من الشعر المخضل بنار شقراء محمرة.

قالت لي: العنوان سهل. لا يمكن أن تتوه "٩ الباب الأخضر" في سكة الجمرك.

ولما كنت أكن للرقم ٩، من أيامها، إجلالاً خاصا – أقرب إلى السحر عندي الرقم ٩ – ولما كان الباب الأخضر أيضا يوحي بالتفتح والنفاذ إلى آفاق مزدهرة بالخصب والحياة، فقد وافقت.

طول عمري غريق في بحر الإشارات.

ولكني لم أكن أعرف ماذا ينتظرني.

تيقظت في الصبح البدري، نافذتي مفتوحة على سماء صافية شفافة الزرقة تقريبا، تلوح لي من وراء الشجر الذي عريت فروعه من الورق، وبدت نحيلة ولا مناعة لها إزاء هذا النقاء المستحيل.

لكن شجرة البنسيانا الوحيدة باذخة الورق، كانت مشتعلة بزهورها الحمراء، متفجرة بنارها النباتية البهيجة سعيدة بمجـرد وجودها وازدهارها.

لم أكن عادة أوافق بسهولة على الذهاب إلى أحـد هـذه البيوت" السرية" وكان لي بإزائها ألف هاجس وهاجس، أحسب لها حسابا: الأمراض المشينة المستعصية، البلاطجة، احتمالات السرقة أو الضرب أو البهدلة. فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، فالرثاثة المنفرة والفقر الذي يحبط الحس ويقتل الشهوة. وكل هذه الأمور التي لا تحتاج أن أقولها.

إلى اللسان الذي يشق البحر، كان المدفع الضـخم وراءه مصوبا نحو الأفق قالت لي:

حارجع من هنا، أخرم من الشلالات. العواف بقـى يـا خويا، فتك بعافية، أشوفك بكرة؟

كان في سؤالها قلق الرغبة الذي يتجـاوز مجـرد أنهـا صفقة، ونوع من طلب النجدة الصموت.

عندما مضت، كانت السماء صخرية، لا تناقش.

ندمت قليلاً لأنني لم أعرض عليها أجرة التاكسي. قلـت، متأخرا، مشوارها طويل. صحيح لم يكن في جيبي إلا حتة واحدة

بعشرة صاغ، ونصف فرنك، وشوية ملاليم، لكن كان ممكن تدبير الحكاية، خلاص، قلت، كالعادة، فات الأوان.

أما في هذا الصباح فقد كان قلبي يطفو فوق الماء الملـح المتموج من الشوق، والرقة، والحبوط النهائي.

لأن عينيها كان فيهما هذا النور الـذهبي الباهـت عنـد الغروب، وكانتا مرفوعتين إلي بسؤال لا أعرف إجابتـه. ولـن أعرف أبدا، قلت.

مازلت لا أستطيع أن أتحمل عـبء الأحـلام، ولا ثقـل الأسئلة.

أنوء بها.

نزلت من بيتنا في شارع ابن زهر، وركبت الترام لغايـة محطة الرمل، كانت البلد يقظة ونشطه، وهواء المينا الشرقية، في أوائل مارس، مبلولاً.

وكان وشيش ماكينات القهوة الإكسبريسو والكابوتشـينو وشهقاتها المفاجئة بالبخار المنـدفع، ورائحـة الـبن البرازيلـي الأصلي النفاذة، تملأ المكـان بـدفء حمـيم. شـوالات الـبن مرصوصة على الأرض الرخام مسنودة إلى الحائط اللامع مـن النظافة، وعليها الماركة المدورة المميزة، الطاحونـة الضـخمة،

رابضة وراء سور قصير من قضبان حديدية، وتهتـز بذبـذبات متلاحقة، وتفوح منها رائحـة البـن المطحـون، طـازة عبقـة بالحوشية.

وأنا أشرب باستمتاع خـالص مـن الفنجـان الأبـيض المستدير، أستطعم أيضا سماكة جدران الفنجان الصيني المدورة، ومفاجأة الشفطة الأولى من الكابوتشينو السخن، رغم أن متعتهـا متوقعة ومكررة.

وعندما خرجت سمعت ضربات الماء بسور الكـورنيش، وطالني بعض رذاذه، على الصبح، وبل جاكتتي الزرقاء الطويلة التي لم يكن عندي غيرها. كانت الجاكتة تنزل إلـى مـا فـوق الركبتين بمسافة قليلة. وكان فيها، ما زالت، أناقة أيام عز غـابر قبل أن تأتي من أمريكا في بالات المعونة، وتشتريها لـي أمـي باثنين جنيه. وكانت مدفئة، بطانتها حريرية.

ورافقتني سنين طويلة.

وصلت المنشية، منتشيا بالبلل في هواء البحـر وإيقـاع وشيشه المطرد وخبطاته على كتل الأسمنت اللزجـة بالطحلـب الأخضر. وحودت من عند ضريح الخديو إسماعيل الرخامي ذي الأعمدة البيضاء الرشيقة. ومن عند تمثال جده الذي كنت أظنـه

يحمل سيفًا برونزيا على جنب حصانه الصـافن الصـاهل دون صوت. وعبرت وسط الزحمة من سوق الخيط وسوق المغاربـة وسوق العقادين وسوق الصيارف وزنقة الستات وسوق الخراطين وشارع فرنسا. وعبرت بذهني، خاطفة، صـورة أوديـت التـي تنتظر مني أن أتقدم لها رسميا. ولم أفعل قط، ولقيتها مـرة فـي سوق الطويلة، وأدانتني إلى الأبد نظرتها الجريحة القاتلة، ونفيتها ثلاثًا. وكنت قوي العزم على أن أذهب مشيا حتى الباب الأخضر.

كنت قد دخلت"بودرو" على قمة شارعي فؤاد وشـريف، قلت أتشبرق بحتتين جاتوه وفنجان شاي على العصر. فيم كـان الاحتفاء النادر بنفسي؟ ا أعلم، هو أنا عقلي دفتر، نسيت.

كان"بودرو" فسيحا ومريح الهواء، نظيف الأرضية، يلمع رخامها لمعة أنثوية تقريبا، والفاترينات الداخلية تضيء من وراء زجاجها البلوري السميك بقطع الجاتوه لدنة ومتماسـكة القـوام: الشيكولاتة بوجوهها البنية المحببة حبيبات مدورة دقيقة في غايـة الصغر محددة ومتلاصقة، والكريم شانتييه الفضي اللألاء المتجمد برشاقته في سيولته المخادعة المغوية، والميل فيي بطبقاته الرقيقة المسواة بعناية الحب، والميرانج الهش المكور أكاد أحـس رقتـه تتكسر في فمي لتغمرني زبدة اللذة المتسايلة.

رأيتها تدخل، مترددة قليلاً، تنظر بقلب إلى الرواد القلائل في أول بعد الظهر، وإن كان واضحا أنها تعرف هذا الموقع جيدا من مواقع جولة صيدها.

كان حذاؤها الأبيض بكعبه العالي المصمت قطعة واحدة من المقدمة حتى الكعب، كان اسمه"كعب دبابة"، يرن على رخام "بودرو" له صدى.

ابتسمت لها.

ألم أقل أنني، على غير العادة، كنت أحتفي بنفسي؟

كانت سماء الصباح الفضية تهمي برذاذ خفيـف الوقـع، يطير به هواء الإسكندرية المبال من الترعة ومن خضرة الغيطان القريبة، وكان أسفلت الطريق مرآة سوداء لامعة وخطرة قليلاً.

هل كانت تلك هي المرة الأولى التي قـدم لهـا ذراعـه بحركة مجاملة ومقاربة جسمانية بسيطة وصفو، ليست فيها أدنى فكرة خلفية، مجرد حنو الزمالة؟ والمرة الأولى التي أحس فيهـا، على ذراعه، ثقلها الهين المطاوع في معطفها الصوفي الخفيـف الناعم بحمرته الداكنة؟ كانت ابتسامتها له منورة، كورد الشـتاء النادر، وهو يحدثها عن ماريو بوليس الراقـدة تحـت الرمـال، ويقول لها على ا يصبح الغد صحوا، فالإسكندرية أحيانًا تظـل

غائمة متصلة الرذاذ أياما بطولها. وهما يخطوان بحرص علـى حديد الكوبري الذي يهتز قليلاً، والترعة السوداء الضيقة تحتهمـا بين ضفافها الملتفة بالخضرة الدسمة، والتراب الداكن من الليـل تنحدر عليه خيوط بطيئة من الماء يشـق لـه مسـارات دقيقـة متعرجة، والتين الشوكي بأقراصه الغليظة الشرسة الشكل تحـت الرذاذ يحيط يخص خشبي بأقراصه الغليظة الشرسة الشكل تحت الرذاذ يحيط بخص خشبي موارب الباب منير بمصباح كهربـائي أصفر على نصبة القهوة الضيقة بوابور الجـاز وعـدة الشـاي والأكواب المصفوفة.

كان سياج الكوبري من الحديد المشغول الدقيق نباتات لا تهتز متفرعة ومتلوية برشاقة الآر نوفو، من آخر القرن، صقيلة السواد، فيها نفس الخطر الكامن وديعـا الآن، واستشـعر نفـح جسدها الرطيب الدافئ، في برد الهواء الخفيف، وهما يسـرعان قليلاً تحت المظلة المفرودة الواحدة يرفعها بذارعه الأخرى، فـي طريقهما الذي مازال طويلاً بعد، إلى كازينو النزهة وكانت بجعة بيضاء تنساب بجلالها الرشيق، تلعاء العنق، لا تـرى شـيئًا ولا تهتم بشيء على ماء المحمودية المتدفق إلى البحر، ينقشـه رذاذ المطر بنسق متقلب.

قالت لي أنهم كانوا يلتفون جميعا، صبيانًا وبنات، حـول الميجور الإنجليزي الذي كان يأتي إلى شقة الست تيريزا الطليانية في الدور الثاني من البيت، في شارع بوياسـتيس. كـان اسـمه جيمي، وكان يحرص على أن يحضر معه، كل مرة، شـيكولاته نستلة وبرادبوري محترمة، من" النافي" ويوزعها على عيال الحتة كلهم.

كان طويلاً ونحيلاً في ملابسه الرسـمية مـن السـيرج الكحلي، أشقر الشارب وشعره مقصوص مشذب ومحفوف جـدا. وكان يقضي الليل عندهم، لأن الخواجا لافونتي رجل البيت كـان غائبا، كان معتقلاً في معسكر عمل جنب السويس. كـان يلـبس القميص الفاشستي الأسود، وبنطلون الركوب الضيق عند الساقين، ويركب الموتوسيكل القديم الذي يطلق دخانًا كثيفًا وقعقعة كثيفـة، في الشارع. وكانت مدام تيريزا ممتلئة الجسم وبطيئـة الحركـة وصموتًا قلما تتكلم، أما البنتان والولد فقد كـانوا مسـقيين بميـة العفاريت، ويعاكسون كل الأولاد في الحتة.

مرة بالليل جاء صوت هده قوية في الجنينة الصغيرة التي تطل البلكونة عليها مباشرة، لازم حاجة وقعت. ما هي؟ قنبلة لـم تنفجر؟ لا يمكن، لأن صفارة الإنذار ما كانت قد ضربت. شـلة

الأولاد الذين كانوا نائمين صحوا، ولموا أنفسهم، ورغم زعيـق الكبار انطلقوا جريا بالبيجامـات وقمصـان النـوم والشباشـب، وحافيين أيضا، إلى الجنينة الصغيرة. نطوا من البلكونة، ووجدوه على الأرض. ممدد هادئ الملامـح، مغمـض العينـين. قـالوا الميجور جيمي خلاص، مات. وصرخوا. جاء الكبار، وعرفـوا أنه فقط سكران طينة. نزل على الأرض اللينة المبلولة وأخذ معه في وقوعه جزءا من سور التراسينة التي فوق. راحوا ينـادون: "ياست تيريزا ... ياست تيريزا الحقي جيمي. الحقـي" واحتملـه الكبار وهو غائب، ووجهه سعيد، وصعدوا به إلى الدور الثـاني، ومددوه على سرير الخواجا لافونتي، حتى أفاق ثاني يوم الصبح.

أما في شقة شارع ابن زهر فقد كانـت السـاعة الثانيـة صباحا، وكانت النافذة محكمة الإغلاق علي، وكنت قـد فرغـت من" لزوميات أبي العلاء" وبدأت أستأنف ترجمة"قبرة" شيلي وفي اللحظة نفسها التي انطلقت فيها صفارة الإنذار بصوتها اللجـوج المتقطع الملحاح، تمزق سكون الليل وتدق القلب، سمعت صـوت الهدة المروعة. واهتزت جدران البيت، وسطع النـور الأبـيض خطفه واحدة، ملأ منور البيت ودخل علـي فـي حجـرة النـوم والمذاكرة التي يشغلها السرير الكبير المزدحم بأخواتي النائمات:

عايدة وهناء ولويزة، مع برق النور الضارب، صوت انهيار أنقاض مقرقع ومتلاحق وقريب جدا. وخطف في ذهني أن البيت قد ضرب لكني وجدت كل شيء كما هو، ليست الجاكتة على البيجامة ونزلت بالشبشب. وعند قمة الشارع وجدت في أول الحارة المتقاطعة معنا، واجهة البيت الذي فيه بياع الفول والفلافل قد سقطت كأنها كشطت بسكين ضخمة، وكومة من الطوب والهدد في الحارة، والثلاثة أدوار بانت كلها في ضوء الكشافات التي تجوب صفحة السماء الزرقاء الصحو بين قرقعات مدافع الآك الآك الرفعية الثاقبة التي تنفجر وتنبسط ورود شظاياها القرمزية والخضراء كالألعاب النارية. كانت السراير والدواليب، والملابس المعلقة على المسامير في الحيطان، وكراكيب البيوت، وصور أصحاب البيت، والآيات القرآنية وصور مار جرجس والعذراء بالأزرق والأحمر، معوجة قليلاً، ولكنها مازالت ملتصقة بالجدران الداخلية التي لم تمس. وكان على الباب مجموعة صغيرة من الرجال والنساء بملابس النوم، والبنات الصغيرات يبكين ويصرخن بخفوت، والأولاد يتعلقون بفساتين أمهاتهم بصمت، ووجوههم تبدو بيضاء في الليل. وفجأة صفرت صفارة الأمان. طويلة ممتدة سعيدة. ورجعت.

كأنما قمت بطقس آخر من طقوس لقانة الرجولـة، بعـد طقس الحريق، وخلصت من محتويات مراهقتـي، فـي الـدور السفلي من" البترينة" الخزانة الخشبية ذات الدور العلوي الذي له واجهة زجاجية، رصصت وراءها ما أملكه من كتب قليلة" التنين" للشعر الإنجليزي، التوراة والإنجيل، والقرآن" الأدب والدين عنـد قدماء المصريين"،" المنتخب من أدب العرب"،" مختار الصحاح"، وقاموس وست الإنجليزي، وقاموس بيلو الصـغير الفرنسـي – العربي، الذي بللته وجفت عليه مياه المحمودية عنـدما غرقـت "لحظة" وأنا أخرج من المعدية إلى الشط. وأعـداد قديمـة مـن مجلات الهلال والمقتطف و" مجلتي" و" أبوللو" اشتريتها من بياع الصحف الذي كان يضع فرشته تحت الجدار الرخـامي لشـركة ليبون في آخر شارع صلاح الدين. أجري حافيا علـى أسـفلت الشوارع النظيفة السخنة، وصندلي تحت ذارعـي، بالبيجامـا أو الجلابية، عندما تنام أمي نومة بعد الظهر، وأوصي أختي عايـدة وهناء أن يتركا باب الشقة مفتوحا حتى أدخل دون أن أدق عليـه عندما أعود، لاهثًا، دماء الجـري والمغـامرة واللقيـا تضـرب جسمي، ومعي غنيمتي، دون أن تحـس أمـي أننـي خرجـت ورجعت.

في يوم أحد آخر، بعد أن كانا بالأمس في النزهة، وعبرا الكوبري الحديدي الصغير على الترعة، كان ميعادهما في محطة مصر، خرجا من الباب الحديدي المشبك يجريان على الرصيف، لا يباليان النظرات المستغربة قليلاً من الواصـلين والمسـافرين والحمالين وباعة الصحف والبيض والكروربا، منطلقين في اندفاع بهجة مشتركة بأنهما معا صديقان لا أكثر، لا يعرفـان بعـد أن الحب مرصود لهما، كامن يتربص بهما، وخرجا إلـى السـاحة الفسيحة ذات الأعمدة، والبوابة الكبيرة الرخامية الطراز والرخام الأسود اللامع المكسوة به الجدران المتينة، ونشقا ريـح الشـجر المهتز، وغرقا في لجب الميدان، وأخذها إلى الترام المؤدي إلـى المنشية الصغيرة. كانت العربة بمقاعدها ذات الخشب المتجـاور الرفيع الصقيل شبه خاوية في صباح الأحد، والناس ينظرون من الزجاج السميك المضلع الحافة شديد الصفاء إلى سـماء شـتوية الزرقة، بعد مطر الأمس، يطير فيها سحاب خفيف ملاءات هفافة من ندف القطن البيضاء.

كانت لا تعرف الطريق الذي يقطعة التـرام، بالضـبط، وتسأله عن أسماء المحطات والشوارع. والعجلات تدق القضبان بإيقاع متكرر، صوت دقاتها يعلو ويخفت. عندما نزلا بعد التمثال

الأخضر الرشيق. الفارس الملتحي بعمامته وسيفه وملابسه التركية الفضفاضة الذي كان يسحره في طفولته، على حصانه المتوفز بصدره العريض وإحدى سيقانه مرفوعة أبدا، برشاقة خرافية في الهواء، وأشجار النخل الملوكي بيضاء السيقان تهتز جدائلها الفضية في زرقة الريح، وأنفاس البحر الندية تأتي من انفساحه الملتطم، صوت الموج يرتطم بسور الميناء الشرقية الأبيض ورذاذه يتطاير على الرصيف العريض المغسول، من بعيد دخلا في حواري المنشية الصغيرة، معظم الدكاكين مغلقة، والأرض المرصوفة بالبازلت متعرجة والكنيسة اليونانية خلفهم بجدرانها البيضاء وقبتها الناعمة الدوران. وصفقت بيديها فجأة وهي تندفع إلى دكان صغير ضيق الباب جدا، وفي وسط الأكشاك الخضراء القاتمة الطافحة بحزم الزهور، قد امتدت أجسادها النضرة مطاولة وتدلت في عنف ألوانها ورقتها. وجذبته من يده وهي تدخل بجانبها إلى الدكان، فيمتلئ حيز الدكان بها ويقف ميخائيل نصفه بالداخل ونصفه على الرصيف. وهي تنتقي بلا تردد الدب الصغير بفروه البني الناعم، والطوق المذهب الصغير حول عنقه، مدملج الجسم مكور السيقان، عيناه الخرزتان السوداوان تلمعان بمرح وتضرع معا، معلقًا بخيط أصفر مضفور

رقيق، وحده، كأنه غريب وسط العـرايس والبالونـات والـدمى البلاستيك المنتفخة الخدود، وكرات أديداس ومضارب الأسكواش وألف صنف وصنف.

تذكر وكيل النيابة الذي حقق معه في الأربعينيات، وكان مهذبا جدا أيضا، وسأله عدة أسئلة كأنما بلا اهتمام. ثم عرف أن القضية أو التحقيق. لا يدري، قد حفظ. ولكنه اعتقل في ١٥ مايو ١٩٤٨، دون أن يوجه إليه اتهـام، وخطـرت بذهنـه شـوارع الإسكندرية بعد منتصف الليل، وهو يلصـق منشـورات علـى حيطان محرم بك، ومعه فرشاة صغيرة وسطل صغير جـدا بـه غراء صنعه بنفسه، وأنوار الأعمدة الطويلة تسـقط عليـه فـي الشوارع الخاوية. وقد انقطعت الرجل وفات ميعاد الترامـوايـات، وهو يحاذر من عسكري الدورية القادم من أول الشـارع بحلتـه السوداء، وقلبه يدق، وحيدا في المدينة التـي يـدعوها بحـروف صغيرة ملصقة على الجدران، إلى الثورة وإلى الكفاح من أجـل الجلاء، إلى إسقاط الاستعمار والاستغلال.

كنا نطبع المنشورات في نصف العتمة حتى لا يفضـحنا نور الشركة بعد ساعات العمل. وأحمل نصفها إلى زكي إبراهيم صدوق ابن البلد اليهودي الإسكندراني القح، الذي يشـتغل فـي

فابريكة بولفارا ويسكن في حارة في العطارين مع أهله: أخته مارسيل، وأمه بالجلابية والمدورة، وأبيه الصغير الجسم الذي كان يشتغل بتصليح الكراسي من بيت إلى بيت، كان زكي أعرج قليلاً، وذراعه اليسرى مشلولة، ولكنه لماح الذكاء وشديد الإيمان بالثورة، وعدو لدود للصهيونية، وكان قد اشتغل صبيا في دكاكين البقالة، واسطبلات العربات الكارو، وعند الحدادين والسمكرية، وفتح ا عليه أخيرا بشغلة سقع، في الفابريكة. كان يلبس الجلابية والبالطو البلدي، ويعرف يكتب اسمه بالعربي بالكاد، ولا يعرف كلمة بأية لغة أخرى.

في ١٩٤٩ وضعه بوليس الملك فاروق على مركب، بالقوة، ورحله إلى جنوا.

كنا نخرج من المساجيري ماريتيم وقد لففت الورق الأستنسل ونصف رزمة المنشورات تحت بالطو المطر الغامق الذي كنت قد أخذته، بإذن مكتوب وقع عليه وختمه مستر" لي" من مخازن البحرية البريطانية في كفر عشري، والذي أخفيت في جيوبه بعد ذلك ثلاث قنابل يدوية قديمة اشتراها صديقي أحمد النمس من عرب العامرية. وكان أحمد النمس إرهابيا إسلاميا، ثم ناقشته وحاورته وعلمته، أسابيع طويلة، حتى أصبح، ماركسيا

لينينيا، تروتسكيا حافظ على عقيدته دون حول حتى مات، حتـى بينما كان يضرب في متاهات الغربة يعلم الرياضيات في زائير، ويترجم مواد علمية لهيئات الأمم المتحدة في بـاريس وجنيـف وفيينا.

نزلت من ربوة العباسية – التي تحولت الآن إلى جامعـة –" فاروق الأول" بالليل، أتحـدر علـى الأرض المائلـة بشـدة المخضوضرة بالعشب المتلوي الملفاف الغضر دائما.

كنا قد قررنا بالأغلبية الساحقة فـض الاعتصـام. كـان الناس طيلة الأيام الثلاثة الماضية يلقـون إلينـا بالساندويتشـات والأكل الجاف الملفوف في فوط، مـن النوافـذ، عبـر شـارع طنطاوي جوهري. والجيش بدباباته الصفراء الصـغيرة، تبـدو كاللعب، يحاصرنا. بينما نقوم على حراسة جثمان الشهيد الـذي سقط برصاص الإنجليز في محطة الرمل. حفرنا له قبـرا فـي ساحة الجامعة، وسهرنا والشموع الكبيرة مضاءة حواليه، (مـن أين أتينا بها؟) ونحن نتبادل الخطب الثوريـة وننشـد الأناشـيد الوطنية.

اختبأت قليلاً في سفح التلة المخضوضرة، فـي الظـلام. كانت الدبابات بعيدة نوعا ما، وسرت بهدوء من أمامها ولم يتصد لي أحد.

ولجت بيتًا قديما من مدخل ضيق مظلم، وكـدت أتعثـر على درجتين متآكلتين في سلم ترابي طويل من الناحية الأخـرى من البيت الذي يقع في أرض دحديرية الفخرانية، بابه في مستوى الشارع من ناحية، أما الناحية الأخرى ففيها هذا السـلم الطويـل المحفور في أرض الدحديرة نفسها التي تعود إلي كثيـرا، حتـى الآن، في نومي. كان هذا الطريـق لا يعرفـه إلا القلائـل مـن جماعتنا.

كانت الشوارع الجانبية المتربة خاوية وموحشة، تنتهـي فجأة ببيوت سد. أعود أدراجي إلى الحواري المتفرعـة عنهـا، معتمة وحيطان بيوتها مصمته بلا نوافذ ومبنية بالطوب النيـئ، وأنا أجري نازلاً باندفاع وقوة التحدر تنطلق بي إلـى تحـت، لا أملك رد جسمي وهو يهبط حتى أصل إلى محطة الحريق أمـام محطة مصر، بأعمدتها السميكة القصيرة المـدورة التـي تشـبه أعمدة أديرة قوطية ذات أقباء وأحناء وممرات مبلطة، تنبثق مـن بين شقوق بلاطها أعشاب صغيرة غضة، ولها فناء صغير لـيس

فيه إلا الرمل والحصى. تحيط به مخازن هائلـة، لهـا أبـواب حديدية منزلقة على عجلات، موصدة الآن أمام كل أمل. وهنـاك جرس ضخم نحاسي يلمع، مدلى بحبل غليظ من قبـوة عاليـة، وساكن لا يتحرك. رأيت لسان الجرس المعدني الـداكن الكبيـر، وفكرت أنه لو أن هذا الجرس دق، فسوف يصـحو أهـل البلـد جميعا، بل ستدق كل الأجراس في مصر مـن إسـكندرية إلـى الشلالات دقًا واحدا متصل الجلجلة ومدويا يوقظ الموتى. ولم يكن هذا الجرس كنسيا، بل هو أشبه بأجراس محطـات المطـافئ أو محطات السكة الحديد، صامت، ثقيل لا يهتز أدنى اهتزاز، وحوله عساكر المطافئ واقفين كالحرس بخوذاتهم الصـفراء الرومانيـة الشكل، وملابسهم الداكنة الزرقة الكاملة الأهبة .

دوائر غير كاملة الاستدارة أبدا ما تني تئن شوقًا للنهايـة البداية بلا بدء ولا انتهاء الأحشاء مصـوحة تحتـرق وتحـرق السمندر في النار، وتطس الماء. الثعبان يمج اللـبن مـن فمـه المفتوح، ليس الآن مدعوا للمجيء بل هو مقيم. ميتافيزيقا اللحـم تتحدى الحلول والإجابات.

كانت الساعة الثامنة صباحا يوم جمعة شات، بهذا التبكير جئت أرى صديقي قاسم إسحق في بيت بحري، لم أجده. طرقـت

باب شقته على السطح بشدة ولا رد، ووجف قلبي، وقلـت هـل قبض عليه البوليس أخيرا؟ ما العمل الآن؟

فتحت لي أم ميخائيل بابها، من تحت، ونادت علي:

- يا فندي. يا فندي. صاحبك مشي امبارح.
- مشي ازاي؟ كده؟ وحده؟
- ما تخافش أمال، ديهدي. الرجالة برضو وصـلوه لحـدة أول شارع خمستاتر، وسي شنوده شال عنه الشنطة لغاية المحطة. وقفوا لغاية ماخد الترامواي.
- تصورت فجأة الضغوط التي وقعت على صاحب البيت، من ناحية أو أخرى ربما، وأرغمته على العـدول عـن اتفاقه معنا، وعن الجنيهات الخمسة الغالية أجـرة الشـقة الصغيرة على السطح.
- لا مؤاخذه يا سيدنا لفندي. بقى صلي على كامل النـور، صليت على النبي؟ بقى احنا برضو ولاد بلـد ونعرفـوا الأصول. واحنا نشيلكو في عينينا من جوه يا راجل، لكن بقى العين بصيرة ... وانت كاك نظر. برضو البيت فيه حريم. آه. وما يخلاش الأمر من كده، وكده. الحرمة من دول تطلع تنزل، تبجى هنا، تروح هنا برضو ما يخلاش.

واحنا بقى ولاد عرب، ودمنا حامي. ما نقبلوش على دمنا إنه يبقى في البيت طلبة ... شباب يعني لوحـديهم فـي البيت مع الحريم. داحنا كل من حاله بيدور عل المعايش. الجري ورا المعايش صعب يا سيدنا لفنـدي، والشـرف برضو صعب. ما تآخذنيش، إحنا ما نقلـوش حاجـة لا سمح ا .. أبدا وا العظيم موش مونكن، دا احنا رقابينا سدادة، وانتو أولاد أصول. آه ما هو الكتاب يتقـرا مـن علوانه أمال، لكيني بقى لحدية العرض ومـا نقـدروش. طب دا أهل الحتة كلت وشنا، وحياة سيدي المرسي، بقى لغاية كده ولأ. اسمع بقى يا سيدنا لفندي، احنـا رجالـة برضو وحنوصلوك لغيية بر الأمان.

عندما سلمت علي لآخر مرة لحظتُ فجأة الزرقة الناصلة في وشم الصليب القبطي المورق الأطراف على رسغها الأسـمر الناعم، من الداخل. كان الولد في حضنها – كالأول تماما- وكان نهدها في فم الثعبان. الثعبان هائل الجسم، ينبسـط لـه جناحـان عريضان ثابتان في الهواء، يثبت بسهولة من أعلى السلم الخشبي الدائري، تحت نافذة المنور، جناحاه لا يكادان يرفرفـان، حتـى

يحط على ذروة المخلة العريقة القائمة وحدها في عتمة الحـوش الترابي.

ملامح وجهي مطبوعة على حدقتي عينيه الزجاجيتين.

هل كنت قد قتلت أليفته الوحدانية التي ما تني تبعث حية!

أبمجرد الإرادة قتلتها أم بالفعل، وما تنـي تتكـرر بـلا انتهاء؟

فهل هي يمكن أبدا أن تموت؟

كان هناك عسكري الحرس في" معتقل أبي قيـر" يبـدو نحيلاً وداكنًا في اللبس العسكري الكاكي، بالشورت الذي يصـل إلى الركبتين، يقف بمدفعه الرشاش القصير على كل ركـن مـن أركان السلك الشائك المزدوج الذي يحيط بنـا. النـور الكشـاف القوي يطرف ببطء على السياج، تدور بقعته المستديرة السـاطعة دورة متمهلة متربصة.

قال: أهذه – كتاك – صورة من أفلام الأربعينيات عـن معتقلات النازي؟ أهذا مشهد من صنع هوليوود أيضا؟ هل تلعب بي الذاكرة لعبها المعتاد؟

قال: لا، هذا العسكري الأسمر بالشورت الكاكي والبدلـة المتهدلة نوعا ما، ولفات الألشين الخشنة الرمادية تلـف سـاقيه

الرفيعتين ليس من الجنس الآري، ولا هو ياباني تحركه وطنيه أتوماتية مبرمجة عمياء – كأنه كائن آلي من كوكب آخر – بل هو من أبناء بلدنا. هذه صورة تظل – وحدها – باقية. ليست كاملة السواد، وأحادية النغمة، ليست من أفلام هوليوود.

قال: كنت لا أحب الخروج بالليل من العنبر المرصوص على الجانبين بالسرر النقالي، مفروش عليها مراتب قش، والبطاطين الميري، وأصوات أنفاس النائمين المثقلة جسومهم وأرواحهم الشخير المجهد وأنين الحبس الذي لا يسمح له بالخروج من باطن القلب، ملفوفين بالملاءات البيضاء – غير النظيفة كل النظافة – أو الملونة، التي طلبوها من بيوتهم. وبجانبهم صناديق الشاي أو المربى، خشب أو كرتون، تقوم مقام الكومودينو، موضوعة بعناية في فسحة الممر الضيق بين كل سرير وآخر، تحت المصابيح العارية المطفأة الآن، والسلك الكهربائي المتدلي المأخوذ بمهارة من الفيشة الرئيسة، وعليها كتبهم ومجلاتهم المختومة بتصريح الدخول من قومندان المعتقل، وفيها الأكل المحفوظ ... لبن نستلة مركز محلى، وبرطمانات المربى والبن والشاي والأباريق والكسرولات والأطباق الصيني

أو الصفيح، والأسـبرتاية وزجاجـة الأسـبرتو، والفنـاجين أو الأكواب، وسائر عدة الحياة في الحبس.

لكن إذا ضاق بي خناق الحبسة، وألزمتـه، فـي بعـض الليالي، غامرت بالخروج من ثقل العنبر ووخامة نومه إلى الفناء الرملي بين العنابر – نسميها" الحزاءات" – أعب الهـواء الليلـي المبلل برطوبة البحر القريب، ووعد الحرية المراوغة، وتجيئنـي على الفور صيحات الحرس:" مين هنا" لتنبئني وتنذرني.

فأمشي ببطء، واضحا، من غير مناعة، لا أقتـرب مـن السلك الشائك، وأنظر إلى سماء أبي قير التي أحسها محصـورة، مزدحمة بالنجوم، ليس لي منها إلا قطعة مجتزأة ومنتزعة عنوة، بينما هي فوقي شاسعة حتى البحر الذي لا منال له.

" الأحياء الشعبية بالإسكندرية كغـيط العنـب وكرمـوز وغبريال قد منيت بعدد وافر من الكـلاب تحتـل كـل شـارع وزقاق ... وما يكاد الناس يستسلمون للنوم حتـى تبـدأ ورديـة الكلاب".

أما زينب عطية، أخصائية اجتماعية بكرموز، فتقول:

" أبكاني الياميش وانهمرت دموعي مدرارا، عندما رأيت، وأنا أزور إحدى صديقاتي صاعدة درجات السلم إليهـا، أطفـال

إحدى الأسر الفقيرة يبحثون في قشر الياميش على بـاب الشـقة المقابلة لهم، لعلهم يجدون ما التصق بقشـرة أو بـأخرى، لكـي يذوقوا طعم الياميش".

حضرة المحترم الأخ العزيز.

أهدي إليك أطيب تحياتي، وأتمنى أن تكون مع العائلة في أطيب صحة وعافية.

الرجا إفادتنا عن أحوالكم في إخمـيم وطـرق المعيشـة عندكم وشدة الحر طبعا، والعلاقة مع الجيران. وهل أن والـدك العزيز سافر معكم أو لا من شدة الغارات على بلادنا المحبـوب. وإليك أخبار الغارة التي حدثت يوم الاثنين الماضي الموافـق ٢٣ يونيو، وعدد القنابل، إذا أمكنك حصرها، والمناطق التي ضربت في هذه الغارة، راغب باشا وغربال وغيط العنب.

وهذه القنابل كلها محرقة ماعدا قنبلـة واحـدة متفجـرة وطوربيد:

قنبلة على منزل ستي بغربـال فـي المنـور الخلفـي، وانفجرت وأحدثت حريقًا، ولكنها أطفئت بمعرفة الجيـران، ولـم يكن بالمنزل أحد، ولم تحدث أية خسارة مادية.

قنبلة أمام منزل ستي أيضا.

أخرى على المخبأ.

قنبلة على قمة منزلنا.

اثنين في شارعنا، واحدة خلف منزل ستي، وأخرى بعده بثلاثة بيوت.

خمس قنابل بشارع الترامواي، من الكوبرى إلى تقابـل شارع إيزيس بشارع راغب باشا.

واحدة على مخازن الخشب على المحمودية، وواحدة على كوبري راغب باشا. وأخرى على وابور الدقيق الذي يوجد على المحمودية، بعد الكوبري وليس الذي أمام منزلكم القديم.

وما يزيد عن عشرين قنبلة في ترعة المحمودية.

وقنبلة متفجرة على نقطة بوليس غربال وذهب ضـحيتها الجندي المنتدب للحراسة بأن قطعت رقبته.

قنبلة على منزل خالتي بغيط العنب، ولم تحدث خسـائر في الأرواح. قنبلة محرقة بغيط العنب أحدثت حريقًا في إحـدى الحظائر، والتبن" وذهب ضحيتها ٤٧ جاموسة.

كما تعرض حي أمبروزو إلى قنابل الطائرات هذه الليلة، وحدثت عدة حرائق، ولم تلب فرق المطافئ نجدة الأهالي لقطـع المواصلات التليفونية.

وهذا ما أتمكن من سرده لك الآن، وسمعت أن المدرسة ستتحول إلى مستشفى. منتظر الرد بفارغ الصبر، ولا مؤاخذة لركاكة الأسلوب حيث إنني لست أديبا مثلك، وعوض ا في مخزنك الذي فيه مجلات الاثنين واللطائف المصورة والمقتطف والهلال وعشرون قصة وغيرها، الذي كان في منزل خالتي، بلغ سلامي للجميع. وفي الختام تقبل تحياتي.

صديقك المخلص فرنسيس أنطونيوس

الإسكندرية في ٢٤ يونيو ١٩٤١

وكنا أحيانًا نخدع قلوبنا بالرؤى حول الصخر الوحشي الطالع من أمواج الأنواء البحرية وزبد الروح المتقلب.

لماذا يتراءى لي حتى الآن ذلك السلم الرخامي في بيت سبورتنج الصغيرة، نازلاً أبدا لا يصل إلى الأرض.

سيلفانا في سورة يأسها ... بنت السكاربيه الغلمانية.

سعاد السماحي طويلة أنيقة ملفوفة بإحكام. من أرستقراطية بحري العريقة، وجهها الناعم العظام مسحوب، وعيناها غائرتان إلى الداخل قليلاً في محجريهما الناتئين، بجاذبية سرية خاصة. تعرف حبي لصديقتها وكأنما تحفزني وتبارك قلبي

بنظرتها وابتسامتها دون كلام، تزوجت مستشارا في الاستئناف، وسافرت إلى العراق قبل أن يهجم الناس على السفر، بزمان.

ديسبينا الدقيقة الجسم كأنها دمية أو لعبة، في قسم الحسابات، متقنة الماكياج دائما، لا تكاد تعرف العربي، وتتحرك بسرعة ولهفة كأن العالم يفوتها. يأتي خطيبها اليوناني الجسيم ينتظرها على الباب في تمام الخامسة كل مساء، فتتعلق بذارعه كأنها لا تسير على الأرض.

زيزي التي ظلت عندي بلا اسم ولا رصيد من حب إلا الشرف الخاص الذي لم يستبح حتى في بارات باب الكراسته وكازينوهات ستانلي.

ست وهيبة التي كنت عندها ابنًا وحبيبا تغار عليه من مسافرة الليل دائمة السفر، حتى لتغدر بها وتكاد تسلمها للتهلكة.

إسكندرة التي غرقت معها تحت الكرمة البحرية، وكان شعرها الطويل يتوهج بنور الشموع في رقرقة الموج الملح.

إيفيت ساسون متدفقة بالحياة، مدورة الوجه وحنيات الجسم جميعا، وشعرها كالقسطل النيئ تحكي عن سهرة الأمس باستمتاع، ولا يني جرس التليفون يطلبها في الشركة وهي جنبي،

فترد بلغات الإسكندرية جميعا، وبكل أنواع الغـزل الهـامس أو الصريح، الحيي أو الإباحي، المرح أو الحزين.

منى المعابثة الخفية القلب، تنظر إلي بعينـي السـلحفاة البحرية الجاحظتين قليلاً الناطقتين بطلب لم أسـتطع أن أجيبـه.

وجمالات الشهيدة التي حملت جسمها على ذراعي تسـري فيـه ببطء برودة الموت.

خالتي وديدة ضاربة العينين ذربة اللسان حانيـة علـي، سحرت مطلع صباي ملابسها الداخليـة وسـوتياناتها المخرمـة والشفافة يتقطر منها الماء على حبل الغسيل.

وامرأة خالي إستر، أغمضت عيني على فخذيها وحبست دموعي ونمت عميقًا، بعد أن ألقت البنت بنفسها من نافذة المدرسة وسقطت على البلاط أمام بيتنا القديم.

سمية فتاة الشاعر المحبط وبنت الإنجليزية التـي انتحـر صديقي منير رمزي حبا لها ويأسا من العالم.

وجانين اليوغوسلافية التي اختلس صديقي فيليب نخلـة، من أجلها، وهجرته بعد سقوطه، ومات بالسل بعد قليل.

الست نجية ذات الثعبان الكامن بـين النهـدين، عيونهـا القبطية في وجه مرفوع من على تابوت في الفيوم.

أم توتو، ديانا النحيلة الهفهافة التي وقع مطلع طفولتي في شباكها الشهوانية. صدمته المعرفة ولم يطلع أبدا من أشراكها.

ليلى الأخيلية البدوية ذات الحلق فـي أنفهـا المخـزوم. والعصابة الحمراء الداكنة فوق جبينها الأسمر الناصع، شـامخة الصدر، تأتي معها برائحة الغنم وإيقاعات الشعر الرتيبة.

نفيسة المشحونة بطاقة متفجرة، المتلوية على التراب بآلام الجنس والمخاض الوهمية الوحيدة الحق.

رانة القتيلة في سيدي بشر، من قتلها؟ العاشق الصـعيدي الصلب العود؟ طافية أبدا على يم العشق المرتطم.

سوسو تلميذة نبوية موسى التـي سـترتها مـن المطـر المنصب، وسددت السكة أمام نفسي عندما قلت لها اسمي الـذي طالما أنكرته وطالما رن صداه في شوارعي.

كتبت الآنسة رضا عبد السلام النعناعي في ١٢ مـارس سنة ١٩٨٠ إلى" الأهرام": انهار المنزل الذي كنـا نسـكنه فـي شارع مختار الجندي رقم ٢٢ برأس التين فـي يـوم ٣٠/ ١٢/ ١٩٧٤ أخذنا غرفة بالمأوى بشارع البيطاس (غرفة رقـم ١٠) إنني أعيش مع أختي الكبيرة المطلقة ومع أولادها، ويعيش معـي أخي ... ثلاثة أسر في حجرة صغيرة لا تسع أكثر مـن ثلاثـة

أفراد، مما ترتب عليه وفاة والدتي متأثرة بآلام الروماتيزم نتيجة الرطوبة الشديدة بالغرفة".

كانت المظاهرة قد خرجت من الفابريكة في آخر شارع كرموز، أما الطلبة فقد كانوا قادمين من ناحية محرم بك، وكان طابور عساكر بلوك النظام، قد اصطفوا في مفترق الشارعين الكبيرين، غير بعيد من الكنيسة الإنجيلية المبنية بالطوب الأحمر، معلقين في أذرعهم الدروع الخشبية الخضراء، وفي أيديهم البنادق القديمة الشكل الطويلة الفوهات.

وكنت قد سهرت طول الليل أتنقل من باب سدرة إلى شارع الهرامسة إلى سيدي كريم، أمر على زملائنا القلائل من عمال الفابريكة، في بيوتهم التي أقاموا في أحواشها أو في الشارع، حتى أمامها، أفرانًا صغيرة وكوانين، وتجري فيها الفراخ والبط الصغير، نقلوا إليه عيشة الفلاحين.

أما الطلبة فقد قلنا، في اللجنة، أنهم مسئولية قاسم إسحق. نمت لي ساعتين ثلاث، ونزلت الشارع مبادرا، كان علي أن أرقب تحركات مظاهرة الفابريكة، فإذا جد جديد نفذت من عند دحديرة الفخرانية لكي أنهي الأخبار إلى قاسم إسحق عند آخر ربوة العباسية على القمة. كان هذا الترتيب صعبا ومجهدا وغير

كفء، ولكنه كان كل ما في وسعنا من حيلة، فليس عندنا حتـى دراجة.

كانت الشوارع قد أقفرت وخلت فجـأة، بعـد أن كانـت الجماعات القليلة العدد قد بدأت منذ الصباح الباكر تطوف بالحي وتنشد" بلادي بلادي"و" أماما أماما جنود الفدا ... وسـيروا إلـى النصر تحت العلم ......" ثم تقول" سلاما بلادي وعاش الـوطن" بدلاً من عاش الملك" كان ذلك أيامها مما يشارف الثورة، وجرأة غير محسوبة العواقب. وكان المتفق عليه بـين ممثلـي اللجـان والجماعات المتحالفة أن تبعد هذه الجماعات، ثـم المظـاهرات نفسها، عن الهتافات المباشرة والصريحة حتى لا تستفز القـوات التي كانت متكومة على المفارق فـي لوريـات بلـوك النظـام الحكومية، ولوريات نقل البضاعة المؤجرة من الأهـالي، علـى السواء.

ومع ذلك كانت بعض الجماعات تهتف: ا أكبر، القرآن دستورنا، والرسول زعيمنا. أغلقت الدكاكين أبوابهـا، وأنزلـت المصاريع الحديدية، وكان الترام يتأرجح مترنحا في شارع راغب باشا الموحش الآن ليس فيه ركاب كل يوم، بل احتله المتظاهرون يهتفون، وفي أيديهم الأعلام الخضراء بنجومها الثلاث، اضطربت

الهتافات واختلطت: الجلاء الجلاء، الحكم حكم الشعب، يسقط الاستعمار، يسقط الاستغلال، يحيا اتحاد الطلبة مع العمال، الجلاء التام أو الموت الزؤام، يسقط صدقي يسقط بيفن، العزة لمصر، ا أكبر، إسماعيل كان صديقًا نبيا، يحيا الشعب، العزة لمصر. كانت المظاهرة قد خرجت عن كل تخطيط وتدبير.

كانت الجموع قد بدأت تقبل من كرموز وتقترب من محرم بك، وهتافات الطلبة تأتي من بعيد، غير واضحة ولكنها هادرة الصدى، وأخذت الهتافات هنا تنتظم وتحتشد ويقوى جسمها. تهز القلب، لها دويها المتوج الغريب في الشوارع الخاوية، لها سلطة وسطوة.

سمعت أوامر قصيرة غير واضحة، وفجأة ترددت في الهواء طلقات الرصاص، تناثرت أولاً، كأنها غير مجدية، كأنها دقات جافة، لا خطر لها، تضيع في الهواء. ورأيت في وسط الناس اثنين، ثلاثة، يهتزون، ويسقطون بهدوء. وكأنني لم أعد أسمع أي صوت، وكان السكوت التام قد حل فجأة. رأيت صفوف الناس تضطرب وتلتئم، تهتز وتتجمع، تنتشر وتحتشد، ثم تتمدد ويتهاوى انتظامها. وكان العساكر راكعين على ركبهم، والضابط وراءهم على الحصان، يرفع مسدسه. وكانت البنادق الطويلة

الفوهات مسددة إلى قلب الجموع. ورأيت الناس يحملـون علـى أكتافهم وبين أذرعهم من يسقط على الأسفلت. ويجرون بهم فـي اتجاه الحواري الضيقة المتفرعة من شارع ١٢ وشارع راغـب. انفرط عقد الصفوف. وخلت المفارق تماما. لكني انـدفعت إلـى وسط الشارع فجأة دون أن أعلم تماما. لكني اندفعت إلى وسـط الشارع فجأة دون أن أعلم تماما ما أفعل. رأيت جمـالات أخـت منى التي كانت تسكن بيتنا في حارة الجلنار تسقط على الأرض. كان وجهها أبيض باهتًا كالعجين، ذراعها قد انطوت تحت جسمها الذي ارتطم بالأسفلت دون صوت وانحسرت جيبتها عن فخذيها، ورأيت أن في قدميها فردة حذاء واحدة، وقدمها الأخرى حافيـة ومكشوفة.

مازلت أحس بين ذراعي جسم جمالات السـخن الهامـد الآن، خيط من الدم يسيل ببطء من ركن فمها، عيناها الجميلتـان مفتوحتان ناطقتان بالدهشة. فيهما نور الحياة الذي تصورت أنـه لن يخبو أبدا. لكن الموت لم يكن جميلاً. كنت أحس جسمها منفرا في ثقله وهموده وانحسار الحياة عنه. قلت لنفسي لعلها جريحـة فقط، وغائبة عن الوعي فقط، وستعود. ولم أقتنع. كـان يحملهـا معي، من الناحية الأخرى، عامل من الفابريكة كما هو واضح من

شكله وتصرفه. ماذا قلت له؟ هل أذكر أنا؟ جرينا متجهين إلـى بيتها. لم أكن أعرف هل أذكر أنا؟ جرينا متجهين إلي بيتها. لـم أكن أعرف هل مازالوا يسكنون هناك، لكني تحركت دون تفكير. عندما فتحت لنا أمها الباب أحسست نفسي أسقط علـى الأرض. كان كل شيء أسود حالك السواد، فيه ومضات حمراء خاطفة من وراء جفني المغلقين. وفكرت بمرارة أنني في المـدخل المعـتم الذي طالما عرفته في صباي، عرفت فيه القبلة المخطوفة علـى الخد من منى، وذراعي حول وسطها. وكنت أنهج وأشـهق ولا أكاد أتنفس، أحس صدري ينفجر طلبا للهـواء، وكنـت غاضـبا لأنني أنا مازلت لا أملك إلا أن أجاهد فقط لكي أتنفس. أنا مازلت أعيش، أنا مازلت أواصل الحياة.

شرارة في طرف نسيج السماء تشعل الحريـق، السـماء مهيضة لكنها تمور، دوامة تجرف معها أنقاض الذكر الطافية في الغمر المرغي الصموت، إعصار أخرس محبوس. ألم تقف هـذه الدموع، ألم تنقض؟

الشوارع تتشعب عن محطة الرمل القديمة إلى مسـارات لها، تحف البحر وتشارفه، أراها من شرفة" كازابلانكا" الزجاجية العريضة، وحمرة الشفق تسري في السحاب الذي ينسـال بنـار

بطيئة على الأفق، يسقط على قلعة قايتباي. يمض قلبي يحس من الأشواق القديمة. أما الموت والحياة والعدل والمحبة. وأقنع نفسي، فلاشك لها قيمة، الشمس التي تغمر جدران البيوت الموسدة على الكورنيش، وزرقة البحر الشاسعة لا أعرف لها حقيقـة، لا أرى فيها نورا، فهل تأتيني من نجم غريب أشواق اللبلاب التي صوحت وسقطت، والحلم المحبوط والحب المنكور، كأنه لم يعد هنـا إلا توهج هذه الدموع المخبوءة في الليل؟ فلمـاذا بعـد أن انقضـت أعلنها الآن، محطة الرمل يخامرها غسق المغيب، صـوتك قـد ضاع مني بينما هواي لا يبيد.

مادلين وميريام الأختان اللتان لا تفترقان، كانتا تمران في محطة الرمل، وننتظرهما من نافذة على كيفك العلويـة أو مـن "كازبلانكا" تتلفت خلفهما كل الأنظار، شعرهما الأسود، كلتاهمـا، منسدل مسترسل على الظهر، وإذ تسيران لا تكـادان تحركـان ذراعيهما. وفي تلك المشية المتصلبة الثابتة الجسم، السيالة مـع ذلك، سحر آسر لا يفلت منه أحد. مادلين تزوجت وهاجرت إلـى أمريكا، ورأيتها بعد ثلاثين سنة في فلوريدا، كهلة ناضرة لم تتغير عيناها، وجدة مرحة، أما ميريام فقد أحبت يهوديـا مـن كنـدا،

وعاشت معه في تورنتو، لم تتزوج قط، ولم تخاف، ولم أرها قط بعد.

أم دولت جارتي التحتانية التي كانت تراسلني، في قلـب صفحات روايات الجيب:"حبيبي يا أعز حبيب، لا أنام الليل حتى تعود فآوي إلى فراشي أحلم بحبنا".

ومادونا غبريال الصامتة، مازالت تشرق علي في الحلم، بنورانية لا تندثر.

خالتي سارة التي تكبرني بسنين قلائل، ألتصق بها بالليل على فرن القاعة في خريف الطرانة البارد. وتراودني كل بنـات ألف ليلة وليلة من بغداد إلى سمرقند.

وكاترينا الشجرة التاسعة المزدوجة المثمنة ترنيمتهـا لا تنتهي.

إيفون نقاش في مدرسة فكس بعد الظهر تتعلم الفرنسـية، وينفتح لي نهداها في رؤياي أمام هبة الهواء الخفيف من البحـر، فاكهتين مترعتين بعصارة غنية محجوزة.

وفتاة الروب الحريري الأزرق في شرفة بيت محرم بك، لغز دائما لا مدخل إليه.

ستيفو اليونانية ثدياها هائلان وفتيان ومهاجمان، وهي مع ذلك رشيقة الخطو خفيفة الإيقاع مفترة الثغر على الدوام، وهـي مع ذلك رشيقة الخطو خفيفة الإيقاع مفترة الثغر علـى الـدوام . صديقي فريد إسكاروس يسميها" البقرة" باللغات الـثلاث، ينتشـر اللقب في الشركة وكأنها استطابته فلم تغضب ولـم تعـبس فـي وجوهنا، بل لم تبخل علينا بنظرة باسمه بين الحين والحين.

حييناها، كنت قد تزوجت من سنة واحدة بالضبط، ونحن ندخل معا محل مانوليديس في الإبراهيمية لنشـرتي خبـز عيـد القيامة المخصوص المعجون بالبيض، وفي داخله عمله فضية من بخت الذي يجدها والتهاني بالفرنسية والعربي، وجو العيد البهيج في صباح سبت النور هو أيضا نعمة ولت ولن تعود. وذهبنا بعد ذلك إلى موناخوس على القمة الثانية واشترينا دستة جاتوه مشكل بربع جنيه، لأنني تركت البقشيش للعامل الأسـمر ذي المعطـف الأبيض الناصع. وكان صاحبي بياع الصحف السفروت الصغير يصيح: أهرام جمهورية تاشودروموس بروجريه أهـرام وهـو يتواثب فوق قضبان الترام الذي يجيء من بعيد يجلجل بجرسـه جليلاً ورشيقًا معا، أزرق نظيفًا، والناس تطل بفـرح مـن دوره العلوي.

أوديت المتحفظة، خفيضة الصوت، عندي معها ميعـاد، أهتف بأختي متذمرا ضيق أصدر.

عايدة، أنا مستعجل فين القميص؟

فتنزل جريا، بالشبشب وجلابية البيت، وتعود بعد دقـائق خاطفة وفي يدها القميص المغسـول المكـوي، ياقتـه منشـاة. المهندس قد الدنيا الذي يعمل الآن في المتحف اليوناني الروماني عنده بالضبط ثلاثة قمصان وبدلة فاتحة وبدلة غامقـة. ومـا إن يعود من الخارج، كل يوم على ا ، مبكـرا أو متـأخرا علـى السواء، حتى تغسل له أمه أو أخته عايدة قميصه، وثـاني يـوم بمجرد أن ينشف القميص تذهب به إلى المكوجي، حتـى يعـود بالياقة البيضاء المنشاة.

أمشي من شارع راغب باشا إلى سينما فؤاد، لألحق حفلة الساعة ٣ بعد الظهر، حريصا على أن يظل الحذاء لامعا. وأجدها بالفعل منتظرة في ردهة السينما، شعرها ألا جارسون، متـرددة الابتسامة، وتقول لي:

عجبك التأثير الجديد؟ لبسته لك مخصوص.

وتمسك بيدي في عتمه السينما، فأضع يدي على حجرها أحس نعومته. ونذهب بعدها إلى السكاربيه في ستانلي بيي، نأخذ

شينزانو أو مارتيني – جاف جدا – على زرقة البحر الشـتوية. هذه الفسحة تكلفني كل ما في جيبي. ثاني يوم سوف آخذ الجنيـه السلف المعتاد من صديقي أنطوان الذي كان يشتغل معـي مـن سنين في مخازن البحرية البريطانية في كفر عشري، وكان هو، شقيق أوديت، لا يعرف، أو لعله يتجاهـل (لا أعـرف) أننـي أواعدها، وأنا لا أجد في ذلك أي حرج وإن كان يطوف بـذهني حس ما بالذنب الطفيف.

أما أختها آرليت السامقة الطول المتهدلة الشـعر، التـي كانت تنظر إلي دائما بانتظار وتساؤل دون كلام، فقد قبلتها مـرة واحدة فقط على خدها، بعد أن شربنا في ليلة الكريسماس، وسقط شعرها على وجهي. ولم أقبل أوديت أبدا على فمها الذي طالمـا اشتهيته، وما عرفت طعمه قط. سافرت آرليت إلـى البرازيـل، وتزوجت قريبها الشامي البرازيلي رجل الأعمال، وانقطعت عني أخبارها وأخبارهم كلهم، بعد سنين قلائل.

بعد ١٩٥٦ سافر الجميـع تقريبـا إلـى أثينـا ورومـا ومارسيليا، إيفيت ساسون ومارسيل صدوق، ستيفو أورفانيـديس، وديسبينا ستاماتوبولو، ريتا وزوجها بيساس، أنا ستازيا وزوجهـا ديمتري كامبانيس، ماريا سيمونيدس العجـوز القويـة، وجـانين

بيركوفيتش، مادلين وميريام وأنطوان وأوديت وآرليـت، ولكـن جورج سيكريانيدس رفض السفر، ورأيته في آخـر السـبعينيات خارجا، في الصيف، بنصف كم بمشية العجوز النشط، من قاعـة البلياردو في شارع صفية زغلول.

نعمتي الباقية، موطني وملاذي في غربتي الدائمة، ماستي الواحدة الوحيدة في" أتينيوس" شـارع فـؤاد. أصـباح، قائمـة كالشهود، لا عداد لها، موسيقاي تعلو وتذوب على جدران الروح. بائع الصحف أمام حلواني" بودرو" يمد لي يده أبدا بصحيفة مـن غير تاريخ، قشعريرة نار الندى سورة حميـا اليـأس والطلـب والشجى معتم النيران، جاتوه ألف ورقة، وأصـابعي المشـغوفة ترسم نداءها على وجنتيك ألف مرة، وتقف على حفافي شـفتيك، المحطة الأخيرة في كليوباترا الحمامات، توكاتا وفوج باخ عمـل ٥٤٥ مقام فاكبير، نباتات متلوية على جانبي عنقك، هذيان السكر بموسيقا جسدك وشفتاي على الندبة الصغيرة تحت أذنك اليمنـى. أنت معي، لا اختيار لي. يا بنت إسكندرية الواحدة مهمـا كنـت كثيرة. كثيرة علي. تلجئينني إلى الصمت . وهل هناك في الآخر إلا الصمت؟ مهما ظلت أغنياتي الإسكندرانية صادحة إلـى أبـد الآبدين.

آه يا بنات إسكندرية، والشفاه السكرية.

هل العالم قد امتلأ بالأمس؟ والأمس فيض؟

شباك الصيادين مفرودة على حجر الكورنيش المنخفض، مغسولة تفوح برائحة السمك، وقد ركعوا تحتها، بأجسامهم الناحلة المفتولة، وطيات اللباس الإسكندراني الأسود ملمومة تحت جذوع السيقان الجافة، يرتقون قطوعها بإبر طويلة تومض عندما ترتفع وتنخفض بين فتائل الشبك.

شبك حبيبي شبك.

القارب الصغير، مشدود الأضلاع، يقـف علـى سـيف البحر، عند الخط الفاصل بين الرمل والماء، يمسك دفتـه القـرد الآلهي العاقل، مدموك البنيان.

القامات الأنثوية الرشيقة، أراها، في عكس النور، مجسمة سوداء، والنهود ثمار أخرى لامعة الجلـد، ناهضـة بعصـارتها الكثيفة المتماسكة. تتنزلق الحمائم الداكنة منسابة، بالكاد تماما على سطح البحر.

هل نزل البحارة بخناجرهم العريضة، وذهبوا بهن إلـى سفينة أسبانية جوانبها مصفحة برقائق الـذهب، غارقـة محملـة بكنوز القراصنة القدامى؟

ما الذي يهفهف خلف القلعة العريقة التي لا يكـاد الزبـد النقي البياض يرغي تحت سفحها؟

أراه من فوق حافة"مارس الدامية" وأوقن أنه لـيس ثمـة شيء.

كل شيء سوف ينقلب بين لحظة وأخرى إلى نقيض مـا يبدو عليه القارب السحري مركب سمك فقير عاد به الصـيادون إلى المرسى بعد كدح ليل طول في قبضة المرج. تتزاحم بنـات الأنقوشي وبحري ورأس التين عليه، والستات التخان بالملايـات السوداء النازلة من على الأكتاف المدورة، تبدو منهـا قمصـان النوم غير النظيفة تماما، عارية الأذرع والنحور، ليأخـذن منـه بالرخص شروة سمك ملء القفة، ملء الحلة من السبارس والشر الصغير، أو ملء الكروانة جمبري عاجي الجسد.

السفينة السحرية شراع مبسوط في نسيم الصـباح، فـرد جناح حمامة بيضاء، تحلق وحدها في سماء الإشـارات سـبخة صبابة، وجد لن يبقى منه أثر.

أترقب، وأتوجس خفيفة من الزوال والدثور، ملهوفًا أمام دوران دراما لا سيطرة لي عليها، لا أدري عم تتمخض في أيـة

لحظة، أحس رفرفة في داخلي لا أعرف أن أهدئها، ولا أريد أن أطامن من روعها.

وأعرف أن هذا كله قرين البلى، وأن العطب لا محالـة مدركي، والتهلكة.

النخلة النجرانية كان مرآها خلسة على الشاطئ المزدحم في المعمورة مضضا وتعذيبا صراحا. لم تكن تراني، ولا عرفت أنني كنت أراها، تحت مظلات البحر العريضة المتقاربـة. كـان حولها رجالها – كالمعتاد – سمرا مفتولي العضل، على وجوههم سيماء السلطة والفلوس، وهي مسيطرة – كالمعتاد – على الكـل، بالأنوثة المتفجرة التي تبض من كل مسام جسمها، حتـى وهـي بملابسها الكاملة على البحر. وحديثها، شهرزاد السحارة الأبدية، والرجال مسحورن أسرى سيرسيه أرواحهم نفوس خنازير القطة. اللبوءة سخمت بست من أحراش القـاهرة الفاطميـة وأنقـاض الشرقية ونجع حمادي. قالت إنها تعلمت في كلية فيكتوريا للبنات في الإسكندرية، ولكنها ظلت دائما غريبة على الإسكندرية. سيدة الآلام الجنسية وسورات المباهج الحسية. ورقة قلبها؟ فيم قسوتك على المرأة الفردوسية، التي رشفت من سلافتها النكتار المصفى،

ومنحتك من حبها وحنو صدرها ما لم يمنحه بشر، ما يحميك أبدا من جرح العالمين؟

النخلة السلطانية، سامقة ملساء الساق، سمرتها صـافية، خصل السعف خضر مدببة طويلة أسنة العيون الناعمـة، فيهـا شراسة، وما أعذب استنامتها إلى التمسيد وطيب الملامسة، وادعة وهي تنوس في حضني تتلمس الأمان، وتسـتثير دفـق ينبـوع العشق، قريبة جدا من العينين، من الصدر، من عمود الاشـتهاء. يتتابع النخل القصير على شط المحمودية كأن طريقه يفضي إلى سيرابيوم فردي خاص، أو إلى الكرنك الإسكندراني الشخصـي، الذي لا يفتأ يقوم بأعمدته الصرحية وينقض باسـتمرار. نهـداها المدوران محملان بأسباط البلح الرطب الأسود المسكر الحلاوة لا تشبع شفتاي من مماسته وامتصاص سكره، شماريخها العظيمـة المستديرة تنبثق عنها غدائر الغواية بلا انفصال، والأشعة تتخللها شمس طعنتها، أسنان نباتية صلبة وغضة معا.

جمالها دائم.

وعقيم.

وعندما ذهبت إلى قلعة قايتباي في الأنفوشـي، وكانـت مهدمة وأحجارها مرمية، كان النخل السلطاني قد جف واحترقت

أعمدته، سوداء، ذؤاباتها ذابلـة مهتدلـة، وأوراقهـا العريضـة مصوحة، فأين غابات النخل البلدي المفرح الخصـيب، وأعـذاق البلح الأحمر البهيج؟ متى غرق تحت رمال سيدي بشر وآكامهـا المنهارة؟ تحت ضوء القمر كانت أشجار النخيل البلدي متقاربـة، تلقي على جسد الرمل الهش اللدن ظلالها، التـي تمـيس علـي بموسيقية هامسة خاصة لا تكاد تحس، فضة الكوكـب السـحري المعيود. أما في عز الظهر فقد كانت ملاذي في حر أغسـطس، وكانت الأنسام تهب بعطر خفيف من السعف الفضي تحت الظلال المشمسة الهفهافة، نشوة للحس وللقلب خالصة.

لا اختيار لي.

على الكورنيش في آخر رشدي باشا، سلالم حجريـة – أحسها الآن تحت قدمي – منحوتة من البازلت، تنحدر إلـى أول شاطئ ستانلي.

على شمالي، وأنا نازل السلالم: سـاحة صـغيرة أمـام كازينو رشدي الخاوي دائما حتى في عز الصيف، وإلى يمينـي جدار عال عريض، مصمت، يسحرني، ليس فيه نافذة أو فتحـة من أي نوع. في لون الكريم، تنمو عليه وتلتصق به تعاريج نبات داكن الخضرة، نضر، كثير التفاريع.

أجد فجأة أنني أصعد، بسرعة، هذه السلالم الصخرية.

وأجدها فجأة ضخمة جدا، شاهقة، وعرة المرتقى وخشنة الملمس، حوافها المدببة تحوطني من كل جانب، وقـد أصـبحت الصخور أعرض وأكثر تهديدا وخطرا كلما ارتفعـت. لا أنظـر الآن تحتي، ولا ورائي. مازلت أتسلق هـذه الوعـور الفسـيحة الضاربة في السحاب، البحر، تحت، سحيق.

وجدت أنني وصلت إلى ذورة سامقة في قلب السماء.

لا أستطيع أن أهبط، شلت قـدماي. وقفـت لا أتحـرك، والخوف قد استبد بي أن أتعثر، فأتدحرج متقلبا ممزق الأطـراف على هذه السلالم الحجرية الشاسعة، الشائكة الأطراف. قاتلة.

كانت الفيللا التي يحدها الجدار المغضوضر مبنية علـى الربوة المتدرجة في طبقات من المعمار المترف المعتنى به، تطل على الكورنيش من ناحية، وعلى البحر من ناحية أخرى، ولهـا حديقة مورقة الشجر غنية النباتات، كنت أستطيع أن أرى ما فيها إذا شببت قليلاً وأنا على أول درجة من السلالم البازلت. أريد أن أثب من على سورها الحجري فقط لكي أقف قليلاً في الحوش، أو المنور، المبلط النظيف. أوراق الشجر الخريفية الساقطة – كـل ورقة بمفردها لها كيانها – على البلاط الأبيض، الذهب الباهـت

المصحون من فتات أوراق الجزورينا الصفراء منتشرة على الرخام الممسوح المضيء. وأشجار النبق والزيتون، ونخلة ملوكية واحدة تنبثق برشاقة كاملة إلى السماء مباشرة، من داخل الإطار المدور المشغول الذي يحيط بالأرض الطينية الغنية.

في العالم صفو الأبد كأنما يرى من الزمن، والإسكندرانية السمراء الصغيرة القد منمنمة القسمات، كأنها بنت مازالت خاما، وفيها جفاوة العذرية المغلقة كصبار غض الشوك. والأشجار الطويلة المسحوبة بيضاء القامات، لها حفيف بارد في ساحة جليمونوبولو المستديرة، ونحن في طريقنا الليلي المتلوي من الشرب إلى الغرفة الزجاجية في ستانلي بيي وهي بيننا، فيليب النحيل الطويل العظمي الوجه، وتوماس السمين قليلاً بكرشه الصغير الراضي عن نفسه، ورأسي يدور ويعلو ويفور غاضبا وساهما وحالما ومنطويا على قرار داخلي لم ينضج بعد.

أنزل بخفة وفرح الليل على عمود النور المتقد بالغاز المهتز في زجاجه السميك المضلع، أمام بيت خالتي حنونة في شارع سيدي كريم، نور الغاز يضطرب، وابن خالتي وطواط ينزل بعدي على العمود بجسمه المرن وقد انحسرت جلابيته عن رجليه اللامعتين اللتين بلون القهوة باللبن، واللتين هرستهما

عجلات الترام في الصيف بعد ذلك بقليـل. ونجمتـي الواحـدة تومض تخبئ لي مصيرا غير سار. وفي نـور النجـوم الإبـر السماوية، يخلع الأولاد ملابسهم كلها ويكورونها في لفات ملمومة على الأحجار المكعبة المصنوعة بإحكام، أجسامهم تزداد سـمرة ونتوءا في عريهم الكامل الليلي، ونحن نساوم البنـت البردانـة، الجوعانة بوضوح، مساومة قاسية على قروشنا القليلة، وفينا مـن شهوة الإذلال والانتقام مالا يخفى على صحوننا الذي يغيم عليـه أوار البيرة من عند" لورنتوس" في صفية زغلول جنـب سـينما ريالتو.

وعرضت على محكمة جنح المنشية اليوم منعقدة برئاسة الأستاذ محمد حافظ قضية اتهم فيها شخص يدعى السيد عبـاس بأنه في ٥ مارس سنة ١٩٤٦ أتلف عمدا سيارة للجيش البريطاني بأن صب عليها بترولاً وأضرم النار فيها. وقـد قـرر القاضـي تأجيل النظر في هذه القضية إلى ١ يونيو وإحالتها إلـى محكمـة الشئون المستعجلة المختصة بحوادث المظاهرات، بعد أن أثبـت نقيب المحامين بالأردن أن ما نسب للمتهمين يجب أن يقوم به كل مواطن عربي. فقد تعلم أبناء الشـعب العربـي ضـرورة لفـظ

ومحاربة وقتال الاحتلال الإسرائيلي بكل صوره ورموزه، ومـا نسب لأبطال" ثورة مصر"، أتمنى أن أكون مشاركًا بمثله.

كتبت صدف عبد العزيز بالإبراهيمية، الإسكندرية، فـي ٢٨/ ١١/ ١٩٧٥ إلى الأهرام:" عندما طلقنـي زوجـي منـذ ٤ سنوات، وقذف بي وبأطفالي الخمسة منه إلى عرض الطريق، بلا مال ننفق منه ولا قوت يمسك رمقنا، تجمدت الدموع في عينـي: أليس هو الرجل؟ ألست مجرد أنثى يراها أحد الرجال متعة لـه، حتى إذا زهد منها ألقى بها بعيدا كما كان يتخلص من نفاية؟ إلى أن حصلت بعد عناء على حكم نفقة شهرية من أجل أطفـالي، لا تكاد تكفي سد أفواههم أسبوعا واحدا. لم أستطع إلى الآن تنفيـذ هذا الحكم، حيث إجراءات تنفيذ الأحكام بالغة التعقيـد، كمـا أن الدولة لم تضع إلى الآن نظاما يؤدي إلى تيسير تنفيذ أحكام النفقة دون تلك العقبات التي لا حصر لها. ولقد سارعت إلـى العمـل كخادمة، أقصد باللغة التي يتداولها السادة المهذبون"شغالة" نظيـر أجر يومي يقتضيني أن أعمل يوميا بلا توقـف، حتـى أنـي لا أعرف مذاق الراحة لي كي لا أحرم أطفالي من أجر اليوم الـذي قد أتغيبه عن العمل ... ثم – وكل الفضل – توفر معي ثمـن بضعة أمتار من الكستور تكفي لتفصيل ثوب لكل من أطفالي قبل

حلول برد الشتاء القارس حيث توجهت إلى المتجر الشعبي فـي حي كامب شيزار كي أشتري القماش، لكني فوجئت عنـد دفـع الثمن أني مجبرة على شراء زجاجة حبر ... ذهلت ... قلت لست في حاجة إليها، إن أطفالي يستعلمون في كتابة دروسـهم أقـلام الحبر الجاف ... لكن السادة العاملين في المتجر أصروا على أن أدفع ثمن زجاجة الحبر وإلا امتنعوا عن تسليمي القماش؟ دفعـت مرغمة حتى أتجنب ما يؤذي شعوري، لكنني بكيت غيظًا وكمـدا كما لم أبك من قبل".

قبل أن أعتقل في ١٥ مايو ١٩٤٨ كنت قد أجرت، باسم مستعار، غرفة فوق سطح بيت من أربعة أداور في شارع متفرع من عرفان في محرم بك في الأربعينيات كانت الأمـور أسـهل، كان شارعا جانبيا هادئًا ومظللاً بالشجر العريق. كـان بالغرفـة سرير نقالي قديم، حديدي، صدئ وملته هابطة، ولكـن المرتبـة جيدة والملاءات التي أشتريتها بنفسي نظيفة فل، ودولاب ملابس ضلفته غير ثابتة وغير محكمة، وضعت فيه الكتب والـدوريات الماركسية والتروتسكية التي أطلبها من الناشرين، فتأتي إلي مـن أوربا وأمريكا على صندوق بريد في البوسـتة العموميـة فـي المنشية، وأصول المنشورات والمخطوطات الثورية، والمجـلات

والكتب التي اشتريناها من مكتبة شوارتز في شارع صفية زغلول، ورصص النسخ المرتجعة بالمئات من قصص جوركي وتشيخوف التي نشرناها على حسابنا من ترجمة فوزي المر وشفيق راقم.

وضعت في الدولاب أيضا ثلاث قنابل يدوية إيطالية من مخلفات الحرب، ومسدس باريتا صغير، صادرتها، باسم اللجنة، من أحمد النمس بعد أن أقنعته بأن الإرهاب الفردي عمل عقيم، وأنه لا جدوى من قتل كبار الرأسماليين المستغلين لأنهم طبقة وليسوا أفرادا. ومن هنا فإن" الإرهاب" الطبقي الجماعي الذي يمارسه حلف الطبقات والفئات المستغلة المقهورة هو الديمقراطية الوحيدة الحق . وكان النمس إخوانيا في الأول، وظل على ولائه للعقيدة التروتسكية حتى بعد أن طرحت به الأيام وكتب لي بطاقة بريدية – قبل أن يموت بقليل – فيها كل وحشة العالم، ووحشيته.

اشتريت فازة كنت أضع فيها زهورا يهديها إلي جنايني في البلدية كنت أريد أن أجنده في الحركة، أو أغصانًا رفيعة يابسة متلوية أجمعها من على الرصيف، وأقصها على نسق خاص أرى فيه جمالاً خاصا، فقد كانت عقيدتي في الحياة أن الثورة لا يمكن أن تستغني عن الجمال. وفي الوقت نفسه كانت

الزهور والأغصان تنفع في التمويه على الجيران، فيظنون أنني رسام أو غاوي فن، كان في الغرفة مع ذلك صندوق الجستنر البدائي الزجاجي وأسطوانته المطاط، وكومودينو، وأباجورة.

لم يكن فيها لا كرسي ولا كليم ولا حصيرة ولا شيء كانت عارية جدا، ومع ذلك عامرة بنفس حميم شخصي جدا وغير شخصي في آن، ولم يكن يعرف عنوان هذه الغرفة إلا قاسم إسحق النوبي المعجباني اللامع الذكاء، الذي أحببته ثم ترك جماعتنا وانضم إلى حدتو، ومات بالسرطان بعد أن قضى نصف حياته في السجون والمعتقلات. ولكن المفتاح ظل معي. ولا أعرف ماذا حدث للكتب الثمينة ولا للأسلحة ولا للزهور، بعد أن اعتقلت أنا وقاسم إسحق معا.

عندما رأيتها فجأة في شارع عرفان كدت أختنق في صدمة التعرف دون تردد لحظة واحدة. وذهبت إليها على الفور، وعندما صافحتها وجدت يدها رخوة في يدي، ساقطة لا عصب فيها.

كانت جاكتتها الزرقاء التروالكار منسدلة على فستان حريري بدا في عتمة الشارع كأنه أحمر داكن، وخمنت أنه مصنوع من قماش البراشوت الذي كان يباع بالرخص في زنقة

الستات، من لوطات بضائع الإنجليز التي ركدت بعد الحرب في المخازن.

وعندما صعدت معي الأدوار الأربعة كانت تنهج، وتعلقت بذراعي على السلم، وخيل إلي أن العيون المتلصصة كانت تحدق إلينا من وراء الأبواب المغلقة. كانت الغرفة باردة جدا في ذلك الشتاء، وعندما رددت الباب خلفي وجدتها في حضني. كان ملمس شفتيها الرقيقتين غضا ودافئًا في البرد، كانت شفتاها متحركتين وحييتين. هدأت رعشتها بين ذراعي، ووضعت ذراعها فوق جانب وجهي فغطته كله، ولم أعد أسمع من العالم إلا غمغمة جسمها المستند بخفة على جسمي.

كان نور الأباجورة يأتي خفيفًا ومشاعا، من جنب فيضيء بقعة من الحائط الأبيض، ويلتمع فيه ركن السرير الناصع المسوى، ويسقط على عباد الشمس الذي جف ماؤه في الزهرية، وصوحت أوراقه المتشععة بتماسك صعب لا ينفرط. أما سائر الغرفة ففيها عتمة سرية لا تكاد يبين منها الإطار الخشبي المزدوج الذي يحمل صورتين مقطوعتين من الكتب، من غير زجاج: ألبير قصيرى وليون تروتسكي.

عيناي تحدقان بالعينين النجلاوين الفاتحتين القريبتين جدا مني، غائرتين الآن قليلاً، حولهما تجاعيد رقيقة جدا في الجلد الأسمر الأسيل، وكأنهما لا تربانني لأنهما تحيطانني بموجبهما الثابت الصلب. ولكنها كانت في حضني حرية غير مبررة، ونسيانًا لجسمي.

كنت قد خرجت من المعتقل، قبل آخر دفعة، من سنتين فقط. أصدقائي في العمل الثوري كبروا وتخلوا عن حماسات واندفاعات التمرد. كانوا في الأول يتجنبونني، حتى تيقنوا أنني أيضا قد يئست من الحكاية كلها، بل لم أكن أقرأ الأهرام حتى.

كانت باولا تقف على الباب، كأنها تنظر إلى داخلها هي، لا ترى في الخارج شيئًا، غريقة في النور الباهت الساجي، خارقة في سكونها، قبلت هذا الغرق تهبط أبدا إلى القاع بلا وصول ولا قرار.

كنت أعرف أن أنطونيو، زوجها الفتي القوي، وبنتها كارلا التي تقارب أختي الصغيرة سنًا، نائمين جوه على السرير الواحد الكبير.

كنا، بعد أن مات أبي الآن من سنين طويلة، نتحايل على المعايش بتأجير غرفة وأحيانًا غرفتين من بيتنا، فـي الصـيف، بالأسبوع أو بالشهر أو طول الموسم حسب التساهيل.

وكنت عندئذ أشتغل مساعد ورشة في شـركة البـاتنيول الفرنسية المصرية التي كانت تبني ميناء الدخيلة. أنزل من البيت السابعة إلا خمس بالدقيقة كل صباح، أكون قد نمت لي سـاعتين ثلاث ساعات، بعد أن أكون سهرت أقرأ الروايـات الأمريكيـة والشعر الفرنسي. كنت عندئذ أقلعت عن العمل السياسي الثـوري من زمان، وهجرت طهرانية الثوريين، وتعلمت السكر والنهم إلى التدخين والسهر في الفريسكادور، بعد الصعلكة فـي الشـوارع وغير الشوارع، إلى ما بعد نصف الليل. وكنـت أحـب نعمتـي الباقية حبا ممزقًا وممضا وجائحا. وأواعد أوديت على السينمات أو على باستروديس، ولا أفعل أكثر من أن أمسك يدها في عتمة الفيلم أحيانًا. وأقبلها على خدها عند اللقاء أو عندما أقول لها" إلى اللقاء" أحيانًا، ودون أن أعدها، صراحة، بأكثر من ذلك على أي الأحوال.هل كانت باولا تقارب الأربعين؟ فتية وفوارة الجسد، في ذلك الصيف، كأنما تهاجمني بأنوثتها الوفيرة، في الصبح، تـأتي على الإفطار، عارية الصدر تقريبا تحت البلوزة الخفيفة المتهدلة

التي تتجاوب، ساقطة على ثدييها المليئين، مع شعرها المسترسل الذي يسيل بنعومة وكثافة على كتفيها الشامختين.

كانت إسكندرانية، أصلها من العطارين، ولكنها تزوجت أنطونيو صاحب الجراج وورشة ميكانيكا السيارات في الظاهر، وسافرت معه إلى مصر من سنين.

وكانت على العشاء تفتح علي بابها، وتقول لي على سبيل المداعبة" بوناسيرا... كومي ستاي؟ استابيني" عيناها مغويتان، خضرتهما زرقاء داكنة وضحولتها خطرة وزلقة. قالت لي:

إيه دي؟ إنت حبيبي تمللي كتاب في إيدك. حتى وانت بتاكل. ليل نهار، ليل نهار. إيه دي؟ إنت متحبش أبدا شوية فانتازية؟ شوية بحر، شوية رقص وموزيكا؟

بلهجة مصرية تماما، لهجة بنت بلد أصيلة. يعني، تقريبا.

وكان أنطونيو مولودا في السكاكيني، وتعلم في دون بوسكو. وكان متين الجسم، داسما مفتوح الصدر عن شعر أسود كثيف، عضل الساعدين تحت كميه القصيرين الماسكين على ذارعيه المنتفختين بالفتوة.

أما كارلا فقد كانت رفيعة العظام، جسمها الطفلي البنوتي له زوايا حادة وقلقة الحركة وثابة العينين. وكانت أكثر سمرة من المصريات – حتى لا تقول أبدا أنها طليانية.

كانت باولا من نوع صوفيا لورين، أو كلوديا كاردينالي، وحارة، ومصرية الدم، مقبلة على الحياة، حادة الذكاء، ومرحة تبدو محنكة الجسد، مبذولة ومنيعة معا. كأنما كان فيها إرهاص وتنبؤ ببعض ما كانت عليه جنيتي النهمة، كاهنة تنيني مناتي وسوسنتي ونوني.

نعومة وجهها كأنها سر محترز عليه من القدم، تشوبه، بل تكمله، حبيبات دقيقة غائرة، كأنها لا ترى، وكأنها تقع خارج الجسم، خارج الوجدان، خارج الزمن، تمام الوجود الذي لا بدء ولا آخر له. الضباب الجسدي السخن الأبيض يصعد ويتطاير ويتلوى مزقًا حادة الألسنة، وله أزيز متصل ملح، اتشحت بمرط الهوى خيوط الوجد تحتضن بضاضة البطن الوثير المدور وتحبكه. يتمزق النسيج فجأة كأنه يحترق بنار غير مرئية ولصوت انفصام السدي واللحمة هسيس غير منتظر، وتتهدل الأشواق مرتمية على الشط المفتوح، أنين الموت شبقًا وجوى، والعشق عذاب لا تنتهي متعته، والقلب الغوي مبذول دون حيطة،

الثديان حافلان ومحتشدان ينسكبان مبتلين بغشـاوة شـفافة مـن الندى. صعود المراعي الناعمة بطيء والأجراس تصلصـل لـم تصل بعد إلى قرع النواقيس الجسام، ولكن جوف الجرس الضخم يهتز ويتذبذب مرتفعا متجها بلا حول إلى جلجلة تمـلأ السـماء بجلال أصدائها حتى أقصى أطراف الكون الحبال المـدلاة فـي البرج الشاهق مشدودة، استماتت عليها اليدان المحيطان بخصـر الناقوس الأخير النهائي الهزيم، الصلابة القائمة لن تهن أبدا،تلمها وتضمها ظلمه لحم الحب. خامات المادة الأرضية متأججة الفضة والذهب والخشب والحديد والزجاج والنحاس، وجواهر النباتـات مصهورة في النفق التحتي، تسيل وتغوص بكثافة باشتعال ثقيـل تسوقها إلى الداخل قوة لا غلاب لها ولا يلحقها فناء.

عدت متأخرا بعد السينما، وبعد الكابوتشينو الأخير فـي الفريسكادور، فوجدت القيامة قادمة في فسحة بيتنا.

كانت أمي، هادئة ولامعة العينين بتصميم الفكرة الثابتـة التي لن يهزها شيء تقول لأنطونيو:

اسمع يا ميسيو، خد آدي بقية حسابكم، وتسيبوا لي البيت من بكره، اعمل معروف.

صورة ماريوسف النجار التي كانت معلقة في وسط حائط الفسحة في بيتنا – بيتًا بعد بيت بعد بيت بلا انقطـاع – طـوال سنين الصبا والشباب والرجولية، فأين ذهبـت الآن، لا أجـدها. زجاجها، وراء الإطار العريض الفاتح الخشب، يـومض علـى نسيجها الورقي الخشن، كأنها لوحة قديمة ثمينة القمـاش. كانـت كثيفة المرأى، القديس زوج العذراء مريم الذي لم يمس أنملة منها وجهه مليء بتجاعيد دقيقة محفورة لها جمال خـاص، خطـوط قسمات وجهه واضحة محددة ومضيئة، وهو ينحني على الطفـل يسوع: الآن تطلق عبدك بسـلام يـارب، لأن عينـي أبصـرتا خلاصك.

يبدو جيدها المستوي الناعم، ببلاط حمام داكن السمرة، من فتحة العنق الواسعة في فستانها الكاكي، على آخر موضة، وفـي حماستها في الكلام، تنزلق الفتحة قليلاً عن كتفها الملساء ويبـدو شريط السوتيان باللون الكاكي اللميع، لدونـة الكتـف الملفوفـة الصلبة معا تبدو له نباتًا استوائيا غضا، ينمو على عظام هيكـل متماسك مغلف ومدفون في طوايا جسدانية نضرة وقوية.

نشرت " المصور" بتوقيع حسن مصطفى بالإسكندرية ١٠ أبريل ١٩٨٧ أنه حتى الموت أصبح مكلفًا أكثر كلفة من الحيـاة

في مقابر كرموز وسيدي بشر وعمود السواري. يتقاضى التربي ألفي جنيه في عملية الدفن الواحدة. وبعضهم يخرج جثة الميت في ليلتها ليبيعها لطلبة كلية الطب الإسكندرية بالقطعة.

كانت محطة الرمل تبدو كأنما تقع في بلد أخرى لا أعرفها ولا أعرف فيها أحدا، والنخل السلطاني عقيم، صفان متقابلان من شجر طويل رشيق، أشقر الجدائل غريب. ورأيت الناس الذين تصورت أنني أحبهم حب المسيح وتروتسكي معا، يمضون إلى حياتهم ولعبهم وجدهم، في ترام البلد وترام الرمل، بعيدين جدا.

أنكرت شهادتي الجامعية، ولما كنت أعرف كلمتين بالإنجليزية والفرنسية، فقد اشتغلت في النهاية" مساعد ورشة" في شركة بناء فرنسية مصرية مختلطة، لكي أحصل على عشرة جنيهات في الشهر كانت نعمة، لأن المهندسين المصريين لم يكونوا موضع ترحيب أو قبول حتى من الشركات سنة ٥٠ وانتقلت بعد ذلك، بعائلتي وأعبائي وحبي من راغب باشا إلى كليوباترة، وكنت أول ما اشتغلت في الشركة قد وقعت، بصاعقة، في حبي، نعمتي، صخرتي الثابتة، ولكن يأسي كان كاملاً من الحياة والحب والسياسة والشعر جميعا.

في الصبح، نصف نائم، بعد سهرة مع مالارميه، وأنا في الأوتوبيس الذي يأتي على البحر ليقف أمام سيسل، وأغير منه إلى أوتوبيس الدخيلة، رأيت الدبابات والمصفحات وحاملات الجنود تقرقع على الكورنيش، يضيع صوتها في هواء البحر، كأنما لا علاقة لها بالمدينة أو بأهلها. تذهب إلى غاية غير واضحة عند رأس التين، وتبدو لي غير جدية وغير مهددة ولا داعية للانفعال. كانت أمواج المينا الشرقية كأنها مصنوعة الزرقة، تضرب كتل الأسمنت الضخمة المعووجة المدفونة في الماء ناتئة الحواف تحت سور الكورنيش، زبدها قليل. كان الناس القلائل بجلاليبهم وأقدامهم الحافية، وبالقمصان نصف الكم أو البدل الصيفي الكاملة، يتوقفون لحظة، ثم يهتف بعضهم في غير حماسة، ويدعون ا بالنصر لجيش مصر. كان أخطر حدث في تاريخنا الحديث يقع أمامي دون أن أعيره اهتماما أو أدرك معناه.

لم أكن، ولست، بعيدا عنك جدا أيها الصبي المتفزز المعذب بتمزق جسدك، بينما مادتك الخام تتكسر وتصاغ صياغتها النهائية.

أراك الآن في منتصف ليلة إسكندرانية صحو في أول الخريف. القمر، مدورا وفضته صلبة، يدمر السماء بسطوعة

الذي يكهرب جلدك. وأنت في غرفة الصالون الأرضية الفسيحة المطلة على شارع ابن زهر. الطقم الخشبي المنجد بقماش أزرق مزهر ومشجر وكحلي الوبرة، مازال جديدا ومتينًا، يبدو ضخم الحضور في الغرفة المقمرة، شباكها الأرضي عالي الضاف، له قاعدة حجرية عريضة. أين كان أبواك، وإخواتك، كلهم هناك لم يتحيف الموت المتربص أحدا منهم بعد؟ نائمين؟ في الغرف الداخلية المقفلة على نومهم؟ فكأن الشقة التي تطل من جنب على شارع راغب باشا، غير بعيد من حارة الجلنار، كانت كلها لك، خالصة وحرة.

كنت قد ضربك حبك، الحقيقي الأول الذي ظل أخرس ومدفونًا، والضربة قد غارت إلى عمق لم تكن قد وصلت إليه من قبل في محباتك الصبيانية، وترجماتك شيلي وكيتس، ودموعك مع المهجريين، ومع مرجريت جوتييه وأنا كارنينا وآلام فرتر، وأشعار الروح الساذج الكئيب، وتيهك بالكلمات، وتيه الكلمات.

الكروانة الصغيرة النحاس التي كانت أمك تأتي فيها بالبلطي من الملاحة، فضيا لامع القشور وطريا، والطزاجته نكهة زفارة نظيفة وبريئة، جافة الآن، كومت فيها أوراقًا كثيرة مهوشة وممزقة، فواتير تجارة أبيك القديمة التي أفلست من زمان،

امتلأت فراغاتها بالشعر. صفحات لامعة الوجه مـن كـراريس المدرسة الثانوية، وقد غطتها كتابة رقيقـة الحـروف. ورق رز أبيض باهت وخفيف، مزدحم بالكلمات، الكلمات، الكلمات،وورق كثيف حاد المكسر، وأشعلت فيها النار. طقس لقانة وعبور حريق أخيلة قديمة الجدة دائمة.

كانت البنت سمراء غضـة ملفوفـة وخجـولاً، تضـم الكراريس والكتب إلى نبتة الثديين البـرعميين بحركـة بنـات المدارس المأثورة المشهورة. ولكن نظرة عينيها الغائرتين فيهمـا غواية أنثوية مبكرة، تطعن الأجسام المتفتحة على عرامة اليقظـة الذكورية البكرة.

كنا قد أخذنا كأسين مـن الدندرمـة المشـكلة بالفسـدق والشيكولاتة والمستكة الواحد بستة ملاليم – من صندوق الجيلاتي في ساحة فسيحة خالية في شارع صفية زغلول، على الرصـيف المقابل لسينما ريالتو، يشغله فتى إجريجي طموح اسـتطاع بعـد ذلك أن يستأجر هذه الساحة، وأن يقيم عليها" إيليت" ذائع الصيت.

كم دفعتني الوحشة – بعد ذلك بسنين، ربما حتى الآن؟ - إلى المقاهي بحثًا عن لحظات رفقـة وأنـس بالصـحاب، إلـى الفريسكاور وإيليت وقهـوة فرنسـا، ولورانتـوس والكريسـتال

والتجارية وكازابلانكا وباستروديس، وحتى" قهوة الأشباح" التـي كانت – على ضيقها ووعورتها – ساحة مباريـات الطاولـة أو الكوتشينة بكل حموتها وصـخبها، وضـجيج تحـدياتها ووهـج انتصاراتها وحبوط هزائمها، بين رضوان القفاص وأحمد قنديل، بين فتوح القفاص وجمال حشمت، الشاعر الرقيق الـذي عـاش وعمــل ســنين طــوالاً فــي الكويــت والعــراق، والــذي وصمني بعد ذلك بالفجاجة والسماجة وثقل الدم، والذي كان يقول عندئذ:" ما خلاص، بعد سنين تحط إيدك لا مؤخذه علـى جسـم مراتك، كأنك بتحط إيدك على جسمك، ما تفـرقش، ولا تحـس حاجة!" أو بينهم، أو أيهم، وأي من البوابين والبياعين في"أوريكو" الشاهقة التي تكبس على حارة القهوة وتسودها. أما أنا فكنـت – ومازلت – لا أعرف أية لعبة، ما عدا لعبة الكلمات والمعاني التي ما أشد جديتها، وكنت أموت معهم مللاً وضيقًا بنفسـي، وأكـتم حسي، كعادتي.

وعلى أية حال، فما العلاقة؟

ما العلاقة بين أي شيء وآخر مهما بدا من توثق الروابط وإحكام الوشائج، ومهما كانت هذه الروابط قائمة وهيكلية؟ ما العلاقة؟

لا تكف عن فلسفة الصفيح هذه؟

أم أنه – في النهاية – ليست كذلك تجري الأمور؟

كان وفيق راقم بسطوروس، ابن ناظر محطة السكة الحديد في صفط الملوك، الذي يملك قيراطين أو فدانين يعني، لا أعلم، والذي كنت أحبه كثيرا، يأخذ معي كأس الدندرمة من الصندوق الأحمر اللامع نظافة وأناقة، على الرصيف الآخر أمام سينما ريالتو، وبينما هو يمص العجينة الدسمة الملونة المثلوجة، يعبر تقاطع السلطان حسين، ويدخل شارع المسلة – صفية زغلول، ويمر على فرشة بائع الصحف، شبه العميل شبه الصديق. كان الرجل الكهل الداكن اللون، وسيم الملامح بشاربه الأبيض المنمق، يحتفظ له – من تحت لتحت – بمجلات الصور العارية اللامعة، باردة الملمس، وكتب من نوع "بئر الوحدة" و"اعترافات مومس" و"مذكرات إيفا" مطبوعة على ورق أصفر خشن بالعربية – مليئة بالأخطاء المطبعية، وهو غير مهم! –

وبالإنجليزيـة، مخصـوص للعسـاكر الإنجليـز والاسـترال والأفريكاندرز. كان يحوم حول الفرشة عندئذ، ولد حافي القدمين بجلابية نظيفة هو الذي أجده بعد نصف قـرن، صـورة طبـق الأصل من أبيه الشيخ الوسيم داكن السـمرة، بشـاربه الأبـيض المنمق وعينيه اللتين تحملان، مثل أبيه، إثـم المغـامرة داخـل المحظور. وكان الرجل صـديقًا لجـاره حسـين أبـي الليـل، التروتسكي القديم الذي كان جزمجيـا، صـناعا كامـل الإتقـان لصنعته، بل محبا لها حتى العشق. وكان يعمل طوال النهار حتى الليل في الحيز الضيق بين حارة توازي شارع صفية زغلول من وراء، وبين خلفية محل الأحذية الراقي الذي تقع واجهته الأنيقـة على الشارع الكبير.

تطابق الصور. تكرار الصور.

ألا أعرف الصور بالروتوغرافورأو بغيره، صور طبـق الأصل، صور خير وأبقى من الأصل. ربما، ولكن أين الأصل؟

الآن والهواء الرطب يضرب وجهي عبر نافذة "إيليـت" المفتوحة على نصف قرن من الزمان تمر بي تلك المرأة النارية، جيبتها البنطلون الواسعة حمراء، تحبك ردفيها بقوة، ثـم تنـزل فضفاضة مزهوة متفجرة بلهيبها الحيواني النباتي معـا شـعرها

أحمر مهووش مرفوع ومشتعل، كأشجار البانسيانا المتأججة هنيهة، أياما ربما، ثم تنطفئ.

كانت الثورة قد قامت منذ سنتين، وكنت مع أوديت ولقيت حامد عبد ا مع أحمد، جالسين على الرصيف الواسع المـزدحم بالناس، والبهجة واللغط الأنيس واسترخاء مساء الصـيف. كـان إيليت عندئذ مفتوحا على شارع صفية زغلـول، وعـزم علينـا بإصرار، وأخذنا الجيلاتي المستكة الشهير، وقـال أنهـم هتفـوا بسقوط الديمقراطية وسقوط الحرية. وقال أن هذه البلـد سـتمر بمحنة صعبة وطويلة. قلت نعم، ولكن طريق السعي إلى العـدل الاجتماعي وطرد الاستعمار طريق وعر ولكـن عنـدك حـق. وسكت أحمد، بحكمة، كعادته. وكانت أوديت في التايير الكحلـي الأنيق، رشيقة وجافة القد تقريبا، عيناها العسليتان فيهما معرفـة مسبقة وتكذيب ولمحة مكر وخوف وترقب معا، صـدق حدسـها فيما بعد وكأن الزمن لم يمر على الإطلاق.

أمر على الديار ...

هذا الشوق ذاته، هذا الاضـطراب الـداخلي، وطـيش المغامرة من غير حساب للعواقب، وهذه اللهفة ذاتها.

قبل هذا الرصيف الواسع، كنت أمر على كشك عبد المنعم الذي كان يشتغل معي في الشركة، وعرفتني به نعمة. وكان يبيع الصحف والمجلات والكتب العربية والفرنسية بعد الظهر، كان شكله يشبه الديوك الرومية – وهو يطل بعنقه الطويل من نافذة الكشك، ومنقار في وجهه الشاحب ذي اللغد، وعيناه جاحظتان. وحتى صوته يقوقئ أحيانًا عند الانفعال أو الاستغراق في البيان والحساب. وكنت أشتري منه"المجلة الفرنسية الجديدة" العدد الواحد باثنين قرش وروايات فرنسية نصف عمر: أوريليا لجيرار دي نيرفال، وحكاية مانون ليسكو، والشفالية دي جرييه للأب بريفو، والجولات الأدبية لريمي دي جورمون المطبوعة في ١٠ يونيو ١٩٠٦، وكنت أدفع حسابي بالتقسيط كل شهر عشرين قرشًا عند قبض مرتبي. وكان عبد المنعم يقف على باب الخزينة – من الخارج – يرصد العملاء ويستوفي الأقساط. وقرأت في المجلة الفرنسية الجديدة أحاديث لجورج براك، وأشعار لرينيه شار، وشذرات لأنطونين آرتو، وقصصا ليوجين يونيسكو، ومذكرات غير منشورة لمارسيل بروست، واستشهاد الحلاج في بغداد بقلم لوي ماسينيون، ولكتاب وشعراء كثيرين جرف أسماءهم بحر التاريخ الملتطم.

أما رفيق تلك الأيام الذي صاغ مني جزءا لا يضيع أيـا كان صروف الأيام، فقد اعتنقت نجواه:" أيها البحر اللانهائي الذي أحالت دموع البشر مياهه العميقة إلى أمواج من مـرارة لاذعـة الفيض، اللامحدود الذي تصطخب في جزره ومده أمواج الموت، أما زلت جامحا جائعا إلى المزيد، وقد لفظت الحطام الباقية عـن عواصفك إلى ساحل الموت المقفر الماحل؟".

تطعنني – على عكس ما تريد- امرأة نضرة، مخروطـة الساقين، في الشراب الأسود الشفاف والحذاء ذي الكعب العـالي الرقيق، وهي تقول مرحبة ومحتفية بي:

ماذا يمكنني أن أفعل لكي أجلب لك السرور؟

ابتسم شاكرا وعارفًا ؛إنه سوف يعز علي السرور.

وسوف أتنكر لها.

وإذ يخرج الناس من سينما رويال إلـي وشـارع فـؤاد وشارع الكنيسة اليونانية وشارع المسلة، متقاربين متماسكين فـي نعومة الليل الرقيق المندى، كأنما يخشـون شـيئًا مـن عمقـه المخوف، يتهامسون، ولا يرفعون صوتهم، كأنما يدارون بالهمس، روعا، يسقط عليهم من أسطح البيوت ومن أبراج الكنيسة ومـن سقف السوق المخروطي ومن حواف السماء. يضحكون بخفـوت

ويلتمس الرجال والنساء من دفء أجسامهم عزاء وقوة ورفقة في مواجهة هذا الليل الصموت عندئذ كنت يا نجمتي، يـا نعمتـي، أفتقدك، حتى لا تفدحني جفوة تلك السماء، وغربة تلك النجـوم. يضربني هواء الليل القادم من المينا الشرقية ومن موقـف تـرام البلد، محطة الرمل خالية إلا من حفيف النخل الســلطاني علـى الجانبين، والليل ينالني في النهاية، ينال منـي أغـوارا مفتوحـة كجروح، أمام صخر النجوم، وإقفال السماء.

وليس هناك إلا طريق اللبانة وشارع الشـعري اليمانيـة وسوق المسلة، أذرعها قد أصبحت شارات ممزقة مرفرفة، تسبح في الزرقة الصامتة.

مؤلفات الأستاذ إدوار الخراط

التي تنشرها وتوزعها دار ومطابع المستقبل

حيطان عالية (قصص) ١٩٥٩

ساعات الكبرياء (قصص) ١٩٧٢

رامة والتنين (رواية) ١٩٧٩

مختارات من القصة القصيرة في السبعينيات ١٩٨٢

اختناقات العشى والصباح (قصص) ١٩٨٣

الزمن الآخر (رواية) ١٩٨٥

محطة السكة الحديد (رواية) ١٩٨٥

عدلي رزق ا : مائيات ١٩٨٦

ترابها زعفران (نصوص) ١٩٨٦

أضلاع الصحراء (رواية) ١٩٨٧

مائيات صغيرة (دراسة) ١٩٨٩

يا بنات إسكندرية (رواية) ١٩٩٠

أحمد موسى (دراسة) ١٩٩٠

مخلوقات الأشواق الطائرة (رواية) ١٩٩٠

أمواج الليالي (قصص) ١٩٩١

من الصمت إلى التمرد (دراسة) ١٩٩٣

حجارة بو بيللو (رواية) ١٩٩٣

اختراقات الهوى والتهلكة (رواية) ١٩٩٣

إسكندريتي (كولاج) ١٩٩٤